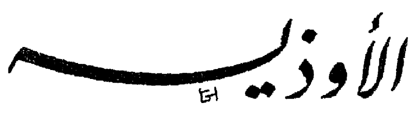

دريني خشبة
دار الكتب الأهلية
ميدان الأوبرا
الأوذيسة

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوي الجويني

الاسكندرية

دريني خشبة



لشاعر الخلود «هوميروس»

الثمن ٣٠ ص

الناشر
مكتبة دار الكتب الأهلية
بميدان الأوبرا

مطبعة الرسالة
القاهرة — ١٩٤٥

إلى اليونان الحديثـــــــة المجاهدة

مقدمة

... وها هى ذى قصة الأوذيسة ... أو الحلقة الثالثة من روائع الأدب اليونانى التى أخذت على عاتقى تقديمها بطريقتى الخاصة لقرائى الأعزاء فى جميع الأقطار العربيـة ... أولئك القراء الذين أكرمونى فتقبلوا كتابىّ السابقين : أساطير الحب والجمال عند الإغريق ، وقصة طروادة ، متضمنة إلياذة هوميروس الخالد ، الذى فُتِنْت به ، فلم أبال أن أقدم طُرْفتيه الجيدتين لقراء الأدب الرفيع فى أقل من ستة أشهر ، ليشقّا طريقهما وسط تلك الزحمة الصاخبة من مئات الـكتب فى الأدب الرخيص .

ها هى ذى قصة الأوذيسة إذن ... كما رويتها ، وهذبت حواشيها ، منذ عشر سنين ، جارياً فيها على المنوال الذى اخترته فى تقديم كتابىّ السابقين ... ذلك المنوال الذى ما زلت أراه أسلم الطرق لتحبيب روائع الأدب القديم إلى نفوس القراء فى هذا الزمن المُتْرَف العَجُولِ الملُول .

و بعد ... فلقد قلت أكثر ما كنت أصبو إلى قوله عن هوميروس فى المقدمة الطويلة التى صدَّرت بها لقصة طروادة ، وذكرت فيها الشىء الـكثير عن قصة الأوذيسة ، والذى لا أزال أرجوه هو أن يوفقنى الله إلى إصدار ما أعددته للطبع من روائع الأدب اليونانى الذى كان فى إحيائه إحياء أوربا الحديثة ، والذى لا بد لمصر الحديثة ، بل للعـالم العربى الحديث ، من الإلمـام به ، إن كان فى نيتنا خلق أدب عربى حديث .

(القاهرة : ديسمبر سنة ١٩٤٥)

دريني خشبة

بين مينرفا وتليماك

أنشد يا هوميروس !

وظل فى فم الأبد قيثارته المُرِنّة ، ونايَه المطرب ، وعوده الآنّ ، ونغمته الحلوة الحنون !

أنشدْ يا شاعر العُصُر الخالى .

وحُلّ فى الأسماع موسيقى مدويّة ، وفى العيون دموعاً جارية ، وفى القلوب رحمة ومحبة ، وانفح عرائس الشعر من لدنك سلطاناً ، وحكمة وبياناً ، وسريراً وصولجاناً .

تَغَنَّ يا شاعر أولمب !

ولْترسلْ من جنتك نغمةً تنتظم الأفلاك ، ورنّةً تجلجل فى الأفق ، وآهةً تزلزل قلوب الجبارين !

* * *

سقطت إليوم[1] ونزح المغير بخيله ورجْله . فتعالَيْ يا عرائس الفنون فافتقدى أوديسيوس فى ذلك البحر اللجي يذرعه ؛ موجة تلبسه وموجة تخلعه ، لا يعرف لمملكته ساحلا فيرسو عليه ، ولا شاطئاً فيقصد إليه ... يخبط فى اليَمّ على غير هدى ، ويرسل عينيه فى الماء والسماء على غير بصيرة ... زرقة متصلة فى العُلْو والسفل ، وتيه لا نهائى يخبط فى أحشائه أسطول السادة المنتصرين ...

---

(١) Ilium هى طروادة

والأقدار وحدها تعلم لماذا ضل أوديسيوس بجنوده فى ذلك العباب ، وقد عاد كل أقرانه إلى هيلاس بعد طول النأى وشحط المزار ، إلا هو وإلاهم ، ممزقين فى دار الغربة كل ممزق ، يتجشمون المصائب والأهوال ، ويتخبطون بين موج كالجبال ، ويخلصون من بحر إلى بحر ، ومن روع إلى روع . فإذا أرسوا على أرض وظنوا أنهم نجوا ، أفزعهم فيها غير الذى رجوا ...

ولقد رقت قلوب الآلهة ، وودوا لو أدركوا برحمتهم أوديسيوس ... إلا نبتيون الجبار ، رب البحار ، الذى يضمر للبطل فى أعماقه كل كراهة وكل بغضاء ، والذى آلى أن يصب على رأسه كل تلك الأرزاء ..

وحدث أن كان نبتيون فى حرب مع الأثيوبيين ، فانتهزها الآلهة فرصة سانحة ، وعقدوا مجلس الأولمب فى ذروة جبل إيدا ، وتفضل الإله الأكبر ، زيوس[1] ، فافتتح الجلسة بكلمة مخلصة توجع فيها لما يلقاه بنو الإنسان من صروف الحدثان ، واستطرد فذكر مأساة أجاممنون المسكين وما لقيه على يدى زوجه وعشيقها الأثيم إيجستوس من غدر وغيلة ، ثم أنحى باللائمة على هؤلاء البشر البائسين الذين يقولون إن كل ما يصيبهم من خير وضير هو من عند الآلهة ، وما هو إلا من عند أنفسهم ... ولكن لا يفهمون !

ثم نهضت مينرفا ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين ، فأيدت ما قال أبوها سيد الآلهة ، وأثنت عليه ، ثم ذكرت أوديسيوس ... « ذلك التعس المسكين الذى تخبطه[2] وحبه البحر ، وقضى عليه — دون

(١) Zeus أو Jove أو Jupiter (٢) أصله وأفسد عليه مآربه

أقرانه جميعاً — أن يشقى هذا الشقاء الطويل ، عند عروس الماء الفاتنة كالّيسو فى جزيرة أوجيجيا ، ثمانية أعوام أو يزيد . ماذنبه؟ ماجريرته ؟ لماذا يُنفى هذا العبد الصالح فى أقصى الأرض يا أبى ؟ إنه خير عبادك أجمعين . أذكر كم ضحى الأُضْحِيَاتِ باسمك ، وقدم القرابين من أجلك ، وحارب أعداءك ، وجاهد شانئيك ! لقد نمى إلىّ أن كالبسو تحاول جاهدة أن تستميل قلب البطل ، وأن تنسيه وطنه إيثاكا ... يا للهول ! كيف يا أبتاه ! وهذه الزوجة التاعسة بنلوب ؟ ! بنلوب المحزونة المرزّأة ! بنلوب التى صبرت وصابرت طوال هذه السنين على ما كرثها الدهر به من بُعد زوجها ؛ بنلوب التى حافظت على طهرها و إخلاصها ؛ أتظل هكذا سجينة فى قصرها المنيف الباذخ ، ويظل هذا القصر محاصراً بعشاقها المحانين من أمراء الأقاليم ؟ ! أبى ! يا سيد الأولمب ! ألا تدرك برحمتك أوديسيوس ، وترده إلى وطنه ليدود هذه الكلاب التى ولغت فى حوضه ، وكادت تخوض فى عرضه ؟ تداركْه يا أبى ؛ تداركْه بعطفة واحدة منك ، و إنك على إنقاذه لقوى مكين » .

واستجاب لها سيد الأولمب ، وقضى أن يعود أوديسيوس إلى إيثاكا ؛ لكنه ذكّرها برب البحار نبتيون ، وذكرها بما بينه و بين البطل من تِرات وثارات ، « سببها هذه الفعلة الجنونية التى فعلها أوديسيوس بواحد من السيكلوبس[1] ، أبناء نبتيون إذ اقتلع عينه الواحدة التى كان ينعم بسبيلها بزينة الحياة ... إطمئنى يا بُنية وقرى عيناً ... إننا نحن الأعلون ، وسيرى نبتيون أنه لن يغلب الآلهة مجتمعة أبداً ... »

(١) سيأتى ذكر ذلك فى الكتاب العاشر من الأوذيسية .

وشاعت الغبطة فى أعطاف مينرفا ، وتضرعت إلى مولاها أن يُنفذ ولده هرمز إلى جزيرة أوجيجيا ، فيأمر عروس الماء كالسو أن تعد مركباً عظيما لأوديسيوس ورفاقه ، ليعودوا عليه إلى أوطانهم؛ ثم ذكرت أنها ستمضى من فورها إلى إيثاكا حيث العشاق المآفين يحاصرون قصر بنلوب ، وحيث ابن أوديسيوس المنكود ، تلماك ، يشهد خراب مملكة أبيه ولا يستطيع أن يحرك ساكناً ، لصغر سنه ... « إنى سألهب إحساسه ، وأفتح عينيه على ما ينبغى ... سأجعله يخرج من هذه العزلة المعيبة ليبحث عن والده ، فإنه لم يعد طفلا بعد ... » .

وانطلقت مينرفا فربطت نعليها السحريتين ، على قدميها الجميلتين ، وحملت رمحها العظيم الذى تقطر المنايا من سنانه ، ووضعت تاجها المرصع على رأسها الكبير ، وأطلقت ساقيها للريح ، حيث كانت بعد لحظة على مقربة من قصر أوديسيوس ، فهبطت من السماء إلى الأرض ؛ وفى لمحة انقلبت فاتخذت شكل الآدميين ، وتخايلت فى جسمان الأمير منتس[1] وطيلسانه ، ثم تقدمت فدخلت ردهة القصر الواسعة ، حيث اجتمع العشاق المجانين من أجل وليمة ، وتلفتت يمنة ويسرة ، ورأت الفتى السادر الساهم الحزين تلماك ، وقد تعقدت فوق جبينه هموم ... وهموم ، وتغضنت ملء أساريره آلام ... وآلام .

وما هو إلا أن لمحها تلماك حتى أخذه من هيبتها شىء عظيم ... فهب للقائها مسرعاً ، ثم مد إليها يده مصافحاً وهو لا يعرف من هى ، وقال :

(١) يروى أن منتس كان بحاراً غنياً وكان يحمل هوميروس فى رحلاته الواسعة من غير أجر ، ولذلك كافأه هوميروس فخلد اسمه بذكره فى الأوذيسة .

« مرحباً مرحباً بالغريب المكرم ! هلم فشارك فى ذلك القِرى ، ولنتحدث بعدها فيما أقدمك إلينا . مرحباً مرحباً وأهلا وسهلا ! ... » ودلف نحو الصالة المزخرفة ، وتبعته مينرفا ، وفى يمناها رمحها الجبار الذى يقدح من سنانه الشرر ؛ حتى إذا بلغا العمود الأكبر الذى أُسندت إليه مئات الرماح ، والذى كان أوديسيوس يسند إليه رماحه وعدة حربه ، تناول تلماك الرمح وأسنده بعد جهد ، حيث برز بكل عظمته وكل جلاله بين رماح العشاق الفاسقين . وتقدم نحو أريكةٍ وثيرةٍ منعزلة ، وسأل مينرفا فاستوت عليها ، وكانا ثمة بمأمن من أن يستمع إليهما أحد .. وأقبلت جارية فينانة رائعة تحمل طَسْتاً وإبريقاً من الذهب ، فصبت الماء على يدى الضيف ويدىْ تلماك ؛ ثم مضت فأحضرت مائدة نُسِّقت عليها الورود والرياحين ، ونشط النادل[1] يحمل أطباق الطعام والفاكهة والحلوى ، فيأتى بها ملأى ويمضى بها فارغة .. والندمان[2] فيما بين ذلك يجذب الزق[3] إليه ويسقى .. ثم يسقى .. وشرع العشاق المحرمون بدورهم يلتهمون ما لذ وطاب من أُكُل وشراب ... حتى إذا انتهوا شرع فيميوس نايه وانطلق يغنى .

وانتهز تلماك فرصة انصراف القوم إلى لهوهم وشرابهم فسأل الضيف قائلا :

« يا أعز الأصدقاء ! أرأيت إلى أولئك العُشّاق ، لو أن رب البيت

(١) النادل خادم المائدة .
(٢) الندمان ساقى الشراب .
(٣) الزق قربة الخمر .

هنا ، أكانوا يلهون لهوهم هذا أو يفسقون فُسُوقهم هذا ؟ كلا ! لقد كانوا إذن أسرع إلى الهرب ، منهم إلى ذلك الطرب ؛ ولـكن ... أواه ! ... أين هو ! أين أوديسيوس العظيم الذى انقطعت عنا أخباره ويئست من أوبته دياره . ولـكن حدثنى بربك من أنت ؟ ومن أى الأقاليم قدمت ؟ ومَنْ رجال البحر الذين ألقوا مراسيهمْ عند إيثاكا ؟ أغريب أنت أيها السيد ؟ أم كنت فيما خلا من الزمان من أصدقاء أبى وأحبائه ؟ »

وقالت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين :

« ليهدأ بالك يا بنى ، فإنى مجيبك على كل ما سألت . إنك ترى الآن منتس أمير (جزيرة الطافيان) البحَّارين ، وسليل انخيالوس الـكبير . ولقد أبحرنا من جزيرتنا ميممين شطر جزيرة النحاس من أجل ذلك المعدن الثمين ، وسفائننا ملقية مراسيها بالقرب من غابات (نيوس) . ولقد كنا ولا نزال من أحب ضيفان أبيك وأودهم إلى فؤاده ، فلما سمعنا بما حل به من شدة ، وبيته من لأواء ، إستوحينا آلهتنا فخبَّرتنا أنه لا بد عائد إلى وطنه سالماً غانماً ، وأنه لا بد منتقم من هؤلاء الفجار الأشرار .. ولـكن خبرني بأربابك ، أفى الحق إنك لأنت ابن أوديسيوس العظيم ؟ إن ملامحك تشبه ملامحه ، وإنك لقريب الشبه منه جداً ، وإن هذا البريق الذى يشع من عينيك هو نفسه الذى كان يشع من عينى أوديسيوس ، يا للآلهة ! كم سَمَرْتُ إلى أبيك قبل أن يشد رحاله إلى طروادة ! فهل يُقَدَّر لى أن أسْمُرَ إليه مرة أخرى ؟ إننى من

وقتها إلى اليوم لم أره ، وهو كذلك لم يرنى ... ألا ما أشوقنى إليه ! ما أشوقنى إليه ! ... »

وشاع بارق من الأمل فى نفس تليماك فقال : « ويحك أيها الصديق ! إننى أنا ابن أوديسيوس ما فى ذلك ريب ، والعالم كله شهيد على ذلك » .

ثم اختلطت الزرقة بالخضرة فى عينى ربة الحكمة وقالت : « على رسلك يا تليماخوس ! إذن فما هذه الولائم وتلك السُّمُط ؟ وهذا الزحام من أين أقبل ؟ إنى لأقلِّب ناظرى فى القوم فلا أرى شريفاً ذا حسب يستأهل أن يُحتفى به أو يقام له وزن ! »

ويبتئس تليماك ويجيب : « أيها العزيز ... لقد هاجرت الفضيلة من هنا فى إثر المهاجر العظيم ، وكأنها آلت ألا تعود إلا معه ! وكان هو ، تداركته السماء ! يلقيها هؤلاء بنظرة واحدة تكفى لتزول منها الجبال ... وا أبتاه ! لقد أطمع العاديات فينا بطول نأيه . فيا للنوى ! إننا لا ندرى اليوم أين مقره ولا أيان مستودعه . ولو قد خر تحت أسوار إليوم لاجتمع الإغريق من كل حدب هنا ... هنا ... فى حاضرة إيثاكا ليذرفوا دموعهم من أجله ، وليقيموا له نصباً عالياً رفيع الذرى شاهق الأرواق ، وليكتبوا اسمه الكريم فى صحائف صدورهم بمداد أبدى من التبجيل ... ولكن ! .. وا أســفاه ! ... لقد انتصر انتصار الأبطال ، ثم مضى على وجهه وراء البحار فى لجاج الثبج ، وغدونا لا تحلم العين بنظرة مفردة منه ، ولا الأذن بلفظة عذبة من لسانه المبين ! ... تباركت يا آلهة الأولمب ! ماذا عندك من الأقضية المخبوءة لى ؟ الذئاب ! إى يا آلهة

هذه الذئاب ! وحوش البرية التى اجتمعت من كل فج ... من الجزائر المتناثرة فى البحر ، ومن المدائن المترامية فى البر ... من ساموس ودلشيوم وزاكنثوس ومن كل إقليم وكل مصر ... كلهم يرابطون حول هذا القصر ولا يستحيون ... الفُسَّاق ! الأوشاب العرابيد ! يطلبون يد الزوجة الوفية ... الأم المكاومة ... ينلوب ! ينلوب الباكية المحزونة المصدعة ! كنز أوديسيوس الذى لا يفنى ! يطلبون يدها ولا يرحمون وفاءها وبكاءها ولأواءها ... فلا تستطيع أن تردهم لعجزها ، ولا تستطيع أن تجيبهم وهى لا تدرى من أمر زوجها ... وهم طوال هذه السنين يريغون نعماء أبى ، فكهين فى أشربات وآكال ، حتى أقفر الزرع وجف الضرع ، وما أحسبهم مبقين على شىء ... حتى على ! »

***

واشال الحنان فى فم مينرفا ، إذ هى تجيب الفتى المحزون :

« ويح لك أيها الفتى ! رحمتا لك يا بنى الصغير ! أواه ! لو أن أباك هنا اليوم ليذود أولئك المناكيد ! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلاعب رمحيه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له اسهاماً مسومة سقاها أبى بعد إذ رفض أن يسمها إيلوس بن مرمريس[1] ... وهو لو صوبها إلى أولئك المماليك لأبادهم . . يا رحمتا له ! إن أحداً غير — الآلهة — لا يعلم إن كان لا يزال حياً يرزق أو هو قد ابتلعه اليم أو عاجلته المنون ... تلياك ! يا ابن أعز الناس علىّ ! إصغ إلىّ ، وَعِ الذى

(١) أورد هنا هوميروس أسطورة لم نر أن نوردها تخففاً .

أقول : إنك لست طفلا بعد ! فلم لا تشمر عن ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك ! لم ترضى أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟ لم لا تكلمهم بنفسك فى أمر أمك ؟ ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن شاءوا ؟ أليس أبوها أليق لهذا الشأن من كل رجل سواه ما دام أوديسيوس لم يؤب ؟ لِمَ يربضون هنا كسباع الفلاة يوهون ثروتك ويأكلون مالك ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك ؟ إستمع لما أقول يا تلياك ! نبئ القوم فليجتمعوا لك ، ولتسمعهم كلمتك ، ولتصارح أمك إن هى أرادت منهم بعلا فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد . ثم انهض أنت يا ابن أوديسيوس ! فابحث عن أوديسيوس . أعدّ ما استطعت من سفين وزاد ، وميرة وعتاد ، ولتبحر على بركة الآلهة ، فلتذهب أولا إلى (پيلوس) حيث الحكيم الباسل نسطور ، ثم إلى إسبارطة حيث صاحب هذه الداهية منلوس[1] ... أقلع بملكك إلى هذين فسائلهما أين مضى أبوك فقد تقع منهما له على خبر ... ولتكن لك أسوة فى الفتى الجرىء المقدام أورست الذى قتل قاتلى أبيه[2] ، وفيهم أمه ... بوركت يا أورست ! بوركت يا أورست ! هلم يا تلياك فقد تعود بأبيك حياً فيرد الشرف والمجد إلى هذا البيت ؛ وقد تعود به ميتاً فترفع ذكره ، وتقيم قبره ، وتخلد فى العالمين أثره ! والآن ، فلأنهض أنا إلى رجالى وسفنى . فلقد بعدت طويلا عنهم ... وكلى يقين يا بنى أن تقدر نصيحتى وعلى الآلهة فلتتوكل ! » .

(١) زوج هيلين أخت بنلوب والتي كانت سبب حرب طروادة .
(٢) أجاممنون .

وحين انتهت مينرفا من هذا الحديث ، حدجها تلماك وقال : « أيها الصديق حباً ، ويا أبر الأوفياء سمعاً ! لقد أيقظت فيّ ضميراً أنت أحييته . فألف شكران لك ... أبداً لن أنسى كلمتك : أنا ابن أوديسيوس ! فلأبحث عن أوديسيوس » وحاول الفتى أن يقدم لمحدثه هدية سنية تكون تذكار هذا اللقاء ، ولكن مينرفا شكرته وأبت أن تأخذ شيئاً « فإذا نجحت في مسعاك يا بني فسوف أعود ، وسوف أقبل أية هدية منك ! »

ثم انطلقت ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين . ولشد ما ذهل الفتي ووقف مسبوهاً مشدوهاً حين رأى هذا الأمير (منتس) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نسراً قشعماً يضرب الهواء بجناحيه ، ثم يعلو و يعلو ... فيكون في السماء و يغيب عن ناظريه !

ولم يحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات الملحة على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه ، وجدد الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلهاً يساعده ، هو هذا الضيف الذى أرسل جناحيه وغاب في السماء .

. .

وانطلق تلماك حيث جلس الفساق يستمعون إلى أغاني فيميوس ، وحيث وجد أمه في الشرفة العليا تستمع هي الأخرى إلى تلك الأغاريد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكي ... وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء غناء لا يثير شجوها وشجنها ... وتثور النخوة في قلب الفتى فيصيح بأمه : « علام العويل يا أماه ؟ وما وقوفك هذا الموقف تسترقين الغناء ؟ وما اعتراضك على المغني ؟ دعيه فليتغنَّ مايشاء ،

فلقد غدونا سخرية القضاء وهُزُوَ المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس وذهبت معه كرامة هذا البيت ، و إنى لصاحبها بعده ... فادخلى ، وليدحل معك قيانك ، ولتقمن جميعاً بشؤون المنزل ولْتَخلِنّ إلى مغزلك ومنسجك ، ودعى كل ما عدا ذلك للرجال ... لى ... لى أنا وحدى : سيد هذا القصر ! »

وأثرت مقالة الابن فى نفس أمه ، فانثنت مع قيانها إلى مخدعها بالطابق العلوى ، حتى إذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء لها حزنها أن تذرف . أما تلماك فقد انطلق وسط القوم ونادى بأعلى صوته : « أيها الفساق ! يا عشاق أمى ! خذوا فى لهوكم ، وتمتعوا قليلا أو كثيراً ، فإذا كان الغد فاجتمعوا فى الساحة الكبرى ، فإن لى كلاماً معكم ... سأطلب إليكم أن تشدوا رحالكم من هنا ! أتسمعون ! لقد طالما أتلفتم لنا زاداً وعتاداً ... ألا فلتلتمسوا الزاد والعتاد من عند أنفسكم ؛ ولتقيموا أفراحكم وولائمكم فى غير هذا المكان ؛ فإن أبيتم فإنى مستعين بالآلهة عليكم ، ولتقتص منكم السماء بما جرحتم ... » .

وما كاد يفرغ من قالته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجأتهم بهذا الكلام الخشن الذى لم يعتادوه . ونهض أنتينوس من مجلسه وقال : « تلماخوس ! لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن ... يا لشؤم اليوم الذى تتوجك السماء ملكا فيه على إيثاكا ... عرش آبائك وأجدادك ! » .

ويجيب تلماك : « ليس أحب إلىّ من الملك حين تخلعه علىّ السماء ...

غير أن أمره إليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس ... أما أنا ... فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر ... ولا غرو ... فإن هذا من حقى ! » .

وأجابه يوريماخوس : « إن من حقك أن تقول ما تشاء يا أخانا تليماخوس .. أما مُلك إيثاكا فالسماء وحدها تؤتيه من تشاء . ولكن قل لنا بربك من هذا الضيف الذى كان معك الساعة ؛ هل من قِبل أبيك أقبل ؟ أم إن له عليكم لَدَينا ؟ إن أحداً منا لم يلقه ولم يره ، ولكننا لحناه من بعد ، عليه سيماء النجابة والجلال . من أين أقبل يا تليماخوس وفيم قدم ؟ ... » .

وأصلح تليماك من شأنه وقال : « أيها السيد يوريماخوس! إن يقينى أن أبى قد انتهى ... ولن تغرينى هذه الكلمات المعسولة التى يتشدق بها المنجمون ... أما هذا الضيف ... ف ... هو من أصدقاء أبى طبعاً ، وقد أقبل لمجرد الضيافة ، وهو الأمير منتس أمير البحارين وسيد تافوس ، وابن سيد هذا الزمان ، الملك الشجاع أنخيالوس . »

قالها تليماخوس وهو أعرف الناس بضيفه ؛ ثم انثنى كل إلى مخيمه ، وانثنى تليماك إلى مخدعه بالطابق العلوى . حيث كانت مربيته يوريكليا تنتظره ، وتوقد له الشموع والسرج . يا لها من أنثى طيبة تخلص لمولاها وتحنو عليه ... لسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها ! ... ولسرعان ما هيأت له فراشه الوثير ...

وقضى تليماك ليلة نابغية ممتلئة بالهواجس والأفكار .

تيماك يبادل العشاق

موّهت أورورا[1] ، ابنة الفجر الوردية مشرق الأفق ، فهب ابن أوديسيوس من مرقده ، وأصلح من شأنه ، وتقلد سيفه[2] ، ثم انفتل مختالاً ، كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه ، وجعل يقلب عينيه فى هذه الخيام المضروبة التى تملأ حديقة القصر ، والتى يثوى فيها أولئك الفجار الأشرار عشاق بنلوب ؛ وتلبث قليلا وفى القلب لظى ، وفى النفس كاوم ؛ ثم صاح بالملأ فهبوا مسرعين ، وأخـذوا يتنسلون إلى الردهة الـكبرى ، حتى إذا انتظم عقدهم والتأم شملهم تقدم هو متهدجاً نحو عرش أبيه ، وفى يمينه رمح ظامىء إلى تلك الدماء النجسة التى تتدفق فى أبراد تلك الذئاب ، وعن جانبيه كلباه الضاريان ، وفى عينى كل منهما جمرتان . وكانت مينرفا نفسها تضفى على الشاب سيماء النبل ، وترقرق فوق ناصيته أمواهاً من العظمة والمجد ، لتقذف منــه الرعب فى قلوب أعدائه ، حتى لبهرهم أن يروا فى تيماك ذاك الضرغامة المختال .

وما كاد الفتى يستوى على عرش آبائه الصيد ، وأجداده الصناديد ، حتى نهض شيخ يحمل فوق كاهله السنين الثقال ، وتشتعل فى رأسه شيبة التجاريب وجلائل الفعال . وكان هو إيجيبتوس بعينه ... إيجيبتوس

---

(١) ربة الفجر فى الميثولوجية اليونانية وإحدى تابعات أپوللو وهادية عربته — الشمس — عند ما تبزغ من أبواب المشرق .

(٢) في الأصل (صفيحته) وهى السيف العريض القصير Faulchion

المسكين الذى بعث بولده أنتيفوس فى أسطول عظيم وجند لجب ، ليشارك فى حرب إليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ، وكر وفر ، وجال وصال ، وصمد وانتصر ... ولكنه ... وا أسفاه !.. لم يعد إلى أوطانه فى العائدين ؛ بل صحب أوديسيوس فى رحلته المشئومة وراء البحار حيث أكله السيكلوب الوحش فيمن أكل . وقف إيجبتوس بين أبناء له ثلاثة ، أحدهم من عشاق بنلوب ، ثم قال :

«أيها الرفاق ! يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها أول مرة منذ أن بارح أوديسيوس بفلذات أكبادنا نُدعى فنجتمع مثل هـذا الاجتماع . فمن ذا الذى دعا إليه ، وماذا يبتغى ؛ أنفحة من نفحات الشباب ، أم زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر مَن جيشنا الهالك يبشر بعودٍ ؟ لينهض باركته السماء فليحدثنا عما دعانا إليه ».

وتناول تليماك صولجانه من قواسه ، وتقدم حتى كان فى وسط القوم ، وجهر فقال .

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هـذه الدعوة ! أنا تليماخوس بن أوديسيوس ، صاحب هـذه الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل ... لقد دعوتكم لأشكو إليكم بثى وحزنى ... لا لأزف إليكم بشريات الجيش المفقود الذى لا يعلم مصائره إلا زيوس ! لقد فقدت والدى ، ووالد الإيثاكيين جميعاً ، ثم أنا اليوم حبيس هذه الدار ، أسير هؤلاء العشاق[1]

---

(١) يلاحظ القارىء أن الاجتماع كان عاما ولم يكن قاصراً على العشاق فقط ، بل ضم جمهوراً من أهل إيثاكا كذلك .

الذين يطمعون فى الزواج من أمى ، غير متقين فى عرضى إلّاً ، ولا راعين لأبى ذمة ، يُذبّحون النَّعم [١] ، ويريغون [٢] الزاد ، ويعاقرون ابنة العنب ، ولا يبالون أن يهلك الزرع والضرع ، ما داموا يبيتون وبطونهم ملآى ، ويبيت غيرهم على الطَّوى . . . ! لقد استباحوا هنا كل شيء ، ما دام لا أوديسيوس هنا فيردعهم ، ولا حول لى فأغل أيديهم ، ولا ضمائر فيصيخوا إلى قولى ، ويرحموا ضعفى ، ويذهبوا من فورهم إلى جدى فيخطبوا إليه ابنته إن أرادت أحدهم بعلا ، فهو بها أولى وبشأنها أحق ... إنكم ضعفاء أيها الإيثاكيون الأوفياء ... ولو استطعتم لرددتم عنى غائلتهم ... فلقد طفح الكيل ، وحزب الشر ، وعم الأذى ... والآن ، أوجه إليهم قولى . . . ، ولن أستحى أن أصارحكم مرة أخرى أيها العشاق ... اخجلوا إذن ! ولتصبغ الفضيلة وجناتكم بحمرة الحياء ! أذكروا ما عسى أن يُعيِّركم به جيرانكم ! واخشوا قارعة تحل عليكم من أربابكم ... واتقوا يوم تلقونهم تودون لو تلقفتكم الصواعق ... يا قوم ! أستحلفكم بسيد الأولمب ، بربة العدالة ثيميس ، إلا ما تركتمونى أقضى البقية الباقية من أيامى فى شقوتى وحدى ! هل أجرم أبى مرة مع أحد منكم فأنتم اليوم تأخذوننى بجريرته ؟ فيم إذن مقامكم هنا ؟ وفيم إذن تستنزفون آخر قطرة من خمرى دون مقابل ؟ ! إذهبوا ! إذهبوا ، ودعوا تلماخوس البائس تحز فى نفسه أشجانه ، وتبرى اصطباره بلواه ! ! » .

---

(١) الماشية .

(٢) يدهمون .

ودق الأرض بصولجانه ، وانفجر يبكى ، وكأنما انهمرت دموعه فى نفوس القوم ، فوجموا وجوماً شديداً ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة . حتى نهض أنتنيوس آخر الأمر فقال :

« لله بيانك ياتليماخوس ! لقد كنت مصقعاً حقاً ! ولكنك لم تصب كبد الحقيقة حين قصرت علينا اللوم ، وحين لا ملوم إلا أمك ! لقد خدعتنا جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تتم أربعاً ، إذ رسائلها تترى علينا ، تحيى فى نفوسنا الآمال ، وتذكى فينا الأمانى ! لقد كانت وعودها تترادف كالبروق الخُلَّب ، وتتراءى كالسراب المضل ! لقد تخذت لها منسجاً وطفقت تعمل عليه وهى تغرر بنا ، وتقول : « أيها الإغريق : لقد قضى أوديسيوس ما فى ذلك ريب ، وكلكم تطمعون أن تفوزوا بزوجته ، ولكن أبى ليرتيس رجل شيخ ، وهو يدب بخطى وئيدة إلى حافة القبر ، أفليس أخلق بى وبكم أن تنتظروا حتى أنسج له هذا الثوب ، لتكون منه أكفانه ، وحتى لا أكون مضغة فى فم الإغريقيات إن تركته برغم ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاته » . ولقد أجبنا سؤلها وتلبثنا طويلاً ، نرجو لو تفرغ من نسج هذا الكفن ، بيد أنها كانت تنقض بالليل ما تنسجه بالنهار ، وهكذا دواليك ، ظلت تخادعنا تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى وصيفاتها ، إذ حدثتنا به ، واستطعنا أن نضبطها وهى تنقض غزلها أنكاثا فى ضوء المشاعل ، فى جنح الليل ، فأجبرناها على إتمامه بالرغم منها ... هذه هى الحقيقة ياقوم ! والآن ! فلترسل أمك أيها الفتى إلى أبيها ، وليختر لها من بيننا بعلا ،

أو فلتختر هى لها بعلا ... أما إذا عكفت على ختلها بنا ، فلتتق أن شيئاً منه لم يعد يجوز علينا ، مهما ظنت أنها أحذق من تيرو ، أو أكيس من ألكمينا ، أو أبرع من ميسينيه(١) ... حسبها ما خدعتنا ! وإنّا نقاسمك ياتليماك أننا لن نبرح عاكفين على ما شكوت ، من ذبح لنعمك ، وإراغة لزادك ، ومعاقرة لخمرك ، حتى تختار لنفسها ؛ أو ... فلتَعْفُ هذه الدار ، ولينصب معينُ خيرها . »

وشاعت الكبرياء فى كل جارحة من جوارح تليماخوس فقال :

« أنتينوس ! ماذا أصابك ؟ ! كيف تسألنى أن أقهر أمى التى غذتنى ونشّأتنى على غير ما ترضاه ؟ كيف أطردها من قصر بعلها الذى لا يعلم غير الله إن كان حياً أو ميتاً ؟ لبئس ما أجزيها به ، ولشد ما أغضب أبى وأثير غضب الآلهة علىّ إن فعلته ! ! إنها ستدعو إيرينيس كى تنتقم لها منى ، وستنصب على لعنات الناس جميعاً ! ؟ ويحك أيها الرجل ! لن أقولها أبداً ... بل اذهبوا أنتم فسلوها ما شئتم ؛ فإما أجابت طلبتكم ، وإلا فانصرفوا غير مأجورين ... اذهبوا .. فأولموا ولائمكم فى غير هذا القصر ، وأريقوا من زادكم ، وأنفقوا مما تحبون !! أما إن رأيتم أنه أحلى لكم أن تأكلوا مال غيركم ، فإني سأهتف أبداً بالآلهة أن تقتص لى منكم ، فهى محيطة بكم ! .. »

* * *

وما كاد يفرغ تليماك من مقالته حتى أرسل سيد الأولمب نسرين

---

(١) من ربات الفنون .

عظيمين طفقا يضربان الهواء بخوافيهما ، ثم جعلا يُدَوِّمان فوق الملأ ، ويقدحان الشرر من أعينهما ... نذيرَيْ ردى ، وصيحة منون . ثم انطلقا نحو المدينة وغابا فى ظلام البعد .

وشده القوم ، وريعت أفئدة العشاق ، وأخـذوا يتخافتون ... ثم نهض فيهم القديس هاليتير بن نسطور المعروف بورعه وصدق نبوءته ، فقال :

« أيها الناس ! يا أبناء إيثاكا ! اسمعوا وعوا ! ليحذر العشاق المناكيد ما يخبيء لهم الغيب من شر أوشك أن ينقذف على رؤوسهم ! إن أوديسيوس حى يرزق ، وإنه عائد إلى وطنه ، بل إنه ليُغِذُّ السير إلى هنا ! وإنه ليحمل الموت الأحمر إلى خصومه ، والخير الأخضر إلى مواطنيه ! أنا هاليتير ، قدّيسكم الذى لا يكذب قد أنبأته قبل أن يبحر إلى طروادة بذلك النبأ وأنه عائد إلى وطنه بعد أن ينتصر على أعدائه ، ويذيقهم ضعف ما صنعوا ، ولن يجديهم أن يتوبوا أو يندموا ... وليأتينكم نبؤه بعد حين ! » .

وسخر القوم منه واستهزأوا به ، وقام يوريماك يرجمه بهذه الكلمات :

« انقلب إلى دارك أيها العجوز الخرف ! هلم إلى أحفادك الكسالى فتنبأ لهم بمـا ينبغى أن يأخذوا حذرهم منه ! لقد قصف المنون عود أوديسيوس الفينان . فليته قصف عودك كذلك ! طير ؟ ! ها ! إن الطير طالما يستنسر فى سماء إيثاكا ؟ إن أكبر الظن أنك تطمع فى منحة من ابن مولاك تلمياك ... ولكن اصغ إلى ؟ لتكن لك منحة منا إن تنبأت له عمـا يكاد يذهب بك وبه من بطشتنا إن لم يختر لنفسه !

أسمعت ؟ لقد نصحنا له أن يرسل أمه إلى بيت أبيها ليختار لها الكفء الذى ترضى ، فلم ينتصح . وأنا أوسلها كلمة صريحة فى غير مين ، أننا لن نبرح عاكفين على ما نحن فيه من هذا الخير ، حتى تخضع پنلوب، فنمضى مأجورين ... وثق ، أيها الشيخ المهيب الخرف أن نبوءاتك لن تفزعنا ، بل هى تضاعف سخطنا عليك ، و بغضاءنا لك ... ألا ما أطيب الإقامة هنا ؟ ! لتزدد پنلوب عناداً ، فإنا لا نزداد إلا جلاداً .. » .

ونهض تلماك فقال :

« على رسلك يا يوريماخوس ! وعلى رسلكم أيها العشاق جميعاً ... لقد أرسلتها كلمة حق فلم تستمعوا لها ! أبداً لن أضرع إليكم مرة أخرى ... الآلهة بينى و بينكم ، والإغريق أجمع أعلم بأمرى وأمركم ؛ غير أن لى طلبة إليكم بوهى لو أنلتمونى إياها ... فهل تسمحون لى بمركب وعشرين بحاراً فأقلع من فورى هـذا إلى پيلوس ثم إلى أسپرطة ، عسى أن أسمع خبراً عن أبى ، أو أتلقف نبوءة من سيد الأولمب الذى بيده ملكوت كل شىء ... إنى إذا أيقنت أن أبى لا يزال حياً فقد أوفق إلى العثور عليه ولو بعد حين ، أما إذا استيقنت من هلاكه فإنى عائد إلى إيثاكا ، فمقيم له نصباً يتفق وهذا المجد الباذخ والذكر التليد ، ثم يكون لى مطلق الحرية فى منح أحدكم يد أمى فتكون زوجه الخلصة إلى الأبد ، بعد أن أتم لأبى كل المراسيم الجنائزية ، لتقر روحه العظيمة ، وتسكن إلى ربها فى ظلال هيدز[1] » .

---

(١) إسم الدار الآخرة فى الميثولوجيا .

وكان فى المجتمعين رجل تبدو عليه مخايل النبل ، وتتقد فى رأسه حمرات المشيب ، تهالك على نفسه حين وقف ينافح عن تلياك ، فإذا هو الشيخ منطور ، الذى كان أوديسيوس قد استخلفه على أهله قبل إبحاره إلى طروادة ، لصداقة قوية كانت تجمع بينهما .. قال منطور :

« إسمعوا إلى يا أهل إيثاكا ! ما لكم اليوم قد نسيتم آلاء مليككم أوديسيوس عليكم ، وهو الذى كان يرعاكم كأب ، ويغدق عليكم من فيضه العميم ؟ ما لكم قد تقاعستم دون هؤلاء العشاق الذين يذهبون بخير مولاكم ويأكلون مال ابنه بغير الحق ، وهم قُلٌّ وأنتم كُثْر ، آمنين مطمئنين ، لا يرهبون أوبة مفاجئة من البطل الشريد ... ؟ » .

وهاجت كلمة الرجل كوامن العشاق فهب أحدهم وهو ليوكريتوس ، يقول :

« رويدك يا منطور ! أيها الثرثارة العجول ! كيف تجرؤ أيها الرجل فتثير الشّعب على العشاق وهم سادتك ؟ هل أعجبتك كثرتهم يا منطور ؟ إذن فأبشر بعجزهم دون ما ابتغيت ، وثق أن ملك إيثاكا نفسه لن يستطيع معهم شيئاً إذا حاول إخراجهم من بيته هذا ، إذا قدر له يوماً أن يعود ؛ إنه إذا فعل فسيذوق وبال أمره ، ولن تنال منا حماقاتك ولا نبوءات هاليتير ، و بنلوب نفسها لن تسر بأوبة أوديسيوس ؟ ؛ ولكن اسمع أيها الشيخ ، إنه لن يضيرنا أن يذهب تلياخوس فيذرع البحر باحثاً عن والده ، وله أن يتخير من السفن ما يشاء ... » .

وتفرق القوم ، وأسرع العشاق إلى خيامهم ، وانقلب تلياك إلى

سِيف البحر ، حيث وقف فوق صخرة ناتئة يناجى مينرڤا :

« أيتها الربة المباركة ! يا إلهة الحكمة مينرڤا ! يا من كنت أمس ضيفة مكرمة تحت سقف هذا البيت ؛ أصلى لك ، أنا تليماخوس التعس ، وأبتهل أن تباركيني وتسددى خطواتى ، وأن تكونى رائدى الأمين فى عباب هذا البحر ، وأن تشدى أزرى وتكونى معى إلباً على هؤلاء الفساق العرابيد ، وأن تشرقى فى ظلماتى البعيدة ، وأن تحلى أمناً وسلاماً على ... يا مينرڤا ، يا مينرڤا ، إستجيبي يا ربة العدالة ... » .

واستجابت مينرڤا ، وأقبلت فى صورة الأمين منطور حتى كانت قبالة تليماك ، ثم شرعت تكلمه كلماتٍ هن أروح من أنفاس الفجر ، وأندى من نسمات الورد ، وأعذب من قطرات الندى :

« السلام عليك يا تليماخوس ! السلام عليك حين تثبت أنك ابن أوديسيوس الوفىّ وفرع دوحته الوارف ، وحين تبدو فيك بدَوات من حَوْله وطوْله وقوة بأسه ، وحين تُقلع على بركة السماء وفى عناية الآلهة ورعاية سيد الأولمب ؛ ؛ فى رحلة لن تكون عبثاً ... أنت ابن أبيك يا تليماك ... أنى بك من بنلوب .. وآية ذلك هذه الروح القلقة التى تشيع فيك من أجله ، وهذا الجبروت الذى هو نفحة منه ، وذاك الصوت الجبار الذى يتلجلج فى فمك كأنه فيض من لسانه ، وذلك الذكاء الوقاد الذى هو قبس من ذهنه العظيم . بشراك يا تليماك ! لا يحزنك خبال أعدائك، فقد أوشك القضاء أن ينقض على رؤوسهم فيَحْطِمهم ... أنا ... أنا هذا الشيخ المهدّم ، صديق أبيك وأمينه منطور ، سأكون معك ، وسأخدمك ،

وأسهر عليك ، وأفديك ، . . لكن لتمض الآن فلتعد للرحلة ما هو حسبها من زاد وعتاد ، ونخبةٍ أولى بأس من رجالك الأقوياء ، وسأنتقي أنا نفسي أشدهم مراساً وأصدقهم عزيمة ... إمض على بركة الآلهة ... إمض .. لا وقت لدينا فنضيّعه . هلم .. » .

وسكتت مينرفا ... ولكن حرارة كلماتها أشرقت بالآمال فى نفس تلماك ، وذهب وقلبه يخفق بألف أمنية ... إلى القصر . حيث رأى العشاق يُذبّحون و يعدون نار الشواء ، وحيث قفز أنتينوس للقائه ساخراً مستهزئاً :

« تلماك ! ناشدتك الآلهة إلا ما شاركتنا غداءنا واطرحت بغضاءك هنيهة ! هلم ! تحَسَّ من هذه الخمر قرقفاً أيها الصديق . لا يشغلك أمر هذه الرحلة . . فقد أمرنا أن يعد لك الآخيون سفينة عظيمة وقدراً من الزاد كبيراً ، وعصبة من الرجال أولى قوة ... وستبحر قريباً فتذرع البحار وراء أبيك . هلم ... هلم . »

ولكن تلماك عبس عبوسة قاتمة ثم قال :

« أنتينوس ! إليك عنى فما أستطيع مشاركة خصومى السفلة غداءهم ، ولا لى قلب فأشرب النخْبَ من يدك ! لا بورك لكم هذا الذّبحُ الذى لا يحل لكم ، والذى استبحتموه من غير حق ، إذ أنا طفل أحبو ... أجل ! لأستعجلن لكم الخراب ولأسعين فى حتفكم ، ولأذهبن إلى بيلوس فأنتصر إذ عزنى النصر فى إيثاكا ! أيها الذئاب ! حتى سفائنى وعتادى تنكرونها على ! » .

وكان اللئيم قد أمسك بيمين تلماك كالمصافح المستهزىء ، ولكن تلماك جذبها ساخطاً ، وترك الكلاب تغمزه وتلمزه ، وتستهزئ بهذا العون الذى يرجوه من بيلوس ، وتلك الجحافل التى يأمل أن يجردها عليهم من أسبرطه ... « ومن يدرى ؟ فقد يهتدى إلى إيفير المثمرة ، فيجد فى أعشابها بقلة يدس لنا منها فى كؤوسنا فتريحه منا . . » ... « ... بل من يدرى ؟ فلقد يبتلعه اليم كما ابتلع أوديسيوس من قبل ، وتكون هنالك الطامة ! إنا إذن نقتسم هذا المتاع وتلك الضياع ، ثم نهر أحدنا الذى تختاره بنلوب بعلاً لها ، بهذا القصر المنيف ! . » .

تركهم تلماك ، ومضى قُدُماً إلى غرفة أبيه بالطابق العلوى ، حيث كنوزه التى لا تقدر ، من عدة للحرب وذهب مدّخر ، وخمرة معتقة . ورَوْح أذْفر، وخز وديباج، ودُرٍّ وجوهر، ومغاور(١) أعدت لليوم المنتظر . يوم يعود أوديسيوس فيظفر ويقهر ، ويطهر بيته من ذلك الدهر ..

ووجد عندها حارستها يوريكليا فصاح بها :

« ربيبة ! يوريكليا ! هيا ! صبى من خمرك فى زقاقى ! من مدامتك التى ادخرتها لأبى . . لا ... لا .. ليس من صفوتها يا ربيبة ، احتفظى بصفوتها له ، املئى اثنى عشر دناً ، وهيئى عشرين جوالقاً من دقيق ، هيا .. أعديها كلها لتحمل إلى سفينتى بعد أن تنام الملكة . لا يعلمن أحد بأمر رحلتى إلى بيلوس وأسبرطة ... حتى ولا أمى ! سأرحل ثمة ... سأتسمع أخبار ... »

وصمت تلماك هنيهة ... واستعبرت ربيبته يوريكليا ، وأرسلت هذه

(١) المغفر والمعمرة زرد يلبسة المحارب تحت القلنسوة .

الـكلمات على أجنحة من الحنان ، وفى أنسام من الرحمة :

رويدك يا بنى ! أى سفر وأى نوى !؟ لقد انتهى أوديسيوس وانتهى معه كل شيء ! وهو اليوم رفات سحيق فى رمس عميق فى بلد لا نعرفه ! أتسافر يا تلماك ليأتمر هؤلاء الذئاب ، وقد يسلطون عليك من يغتالك ، ثم يستصفون كل مالك بعد ذلك ؟ حاشاك يا بنى ! لتبق معنا نحن الذين أحببناك واصطفيناك ! فيم تذرع عباب هذا البحر ولا رجاء لك فى مطمح . ولا ثقة لك فى شيء ؟ » .

وأجاب تلماك فى رفق :

« رويدك أنت يا ربيبة ! إنى لم أعتزم شيئاً من تلقاء نفسى ... إنها السماء هى التى توحى إلى ! ولـكنى أستحلفك بكل أربابك ألا تقصى شيئاً مما اعتزمته على أمى إلا بعد أحد عشر يوماً أو اثنى عشر يوماً من رحيلى ... فإنها لوعلمت بسمرى لأظلمت فى عينيها مباهج الحياة وذهبت نفسها على حسرات » .

وأقسمت يوريكليا بكل أربابها ، وانثنت تهيئ دنان الخمر وأحمال الدقيق .

أما مينرفا ! أما ربة العـدالة والحـكمة الخالدة ، ذات العينين الزبرجديتين ، فقد يممت شطر البحر وقصدت إلى المرفأ ، حيث لقيت نويمون بن فرونيوس سيد الملاحين ، وسألته إحدى جواريه المنشئات ، فأعد لها واحدة من خيارها . وما كادت ذُكاء تَلِجُ فى خِدْر الأفق ، وما كاد الشفق يبكى فيصبغ بدموعه جبين السماء ، حتى كان الملاحون قد

هيأوا القلوع ونشروا الشراع ، وخبروا مجاذيفهم وأحضروا عُددهم ، وتزودوا من السلاح ؛ وكانت مينرفا نفسها تستحثهم ، فسرعان أن تهادت السفينة ، ورقصت نشوى فوق هامات الثبج

وذهبت مينرفا ، في صورة منطور وفى طيلسانه فأشرفت على عصبة العشاق ؛ وتمتمت بكلمات فانتشر الظلام فوق خيامهم ، ولعب النعاس ملء جفونهم ، وكانت الكئوس لا تزال تقهقه فى أيديهم ، فسقطت عن غير عمد لتسقى الأرض من تحتهم شرابا !

وطفقوا ، تحت طائف الكرى ، ينسلون إلى خيامهم ...

وأدلفت مينرفا نحو القصر لتلقى تلماك :

« تلماك ! هلم ! البدار ! أنت هنا وكل رفاقك فى الفلك المشحون ينتظرونك ! هلم ! يجب ألا نضيع وقتنا سُدى »

ونهض تلماك ! وسارت مينرفا ، وسار هو فى أثرها حتى كانا عند سيف البحر ، وحتى أشرفا على السفينة .

« مرحباً يا رفاق ! هلموا فاحملوا هذه الدنان وتلك الأحمال إلى السفينة ! لا أحد يعلم أمر رحلتنا حتى ولا أمى ! إلا ربيبتى! »

وامتثل الملاحون أمر سيدهم ، ثم تقدمت مينرفا فركبت السفينة ومن ورائها ابن أوديسيوس وجلست هى عند الدفة ، ونشط البحارة فهيأوا المركب ، وحدجت المغرب ربة المدالة بعينيها الزبرجديتين فهبت النسمات رخاءً ، ورقصت تحتها الأمواج من طرب ، وانتصب تلماك واقفاً يحث رجاله ؛ واضطرب الماء تحت السفينة واصطخب ، وصب القوم

دنانا من الخمر تقدمة للآلهة وقرباناً لمينرفا وتحية لا تبيد !
واحلو لك الليل وتدجّى غيهبه ؛ ثم انجاب ظلامه عن فجر مبين !

فى بيـــــلوس . . .

تلماك يسائل نسطور عن أبيه

برزت ذُكاء من لجة المشرق فصبغت آرادها[1] الذهبية جبين الأفق النحاسى ، وسكبت الأضواء الجميلة لتهدِىَ إلى السبيل السوى ، وألقت السفينة مراسيها تلقاء بيلوس ، مدينة نليوس[2] ؛ حيث وجدوا القوم على الشاطئ يقربون القرابين باسم بوسيدون ، ذى الشعر اللازوردى ، وقد جلسوا فى صفوف تسعة ، وفى كل صف خمسمائة شيخ عتيد . وذبحت كل فئة قرابينها : تسعة عجول سمان ذوات خوار ، وأكلوا الحوايا[3] ، وضحوا بالسواعد والأفخاذ ؛ ثم أقبل تلماك و بين يديه مينرفا تتهادى وتقول :

« تلماخوس ! تشجع يابنى ، ولا تجعل للاستحياء سبيلا إلى نفسك ، وتقدم إلى أمير هذه البلدة الصنديد ، نسطور ، فقد تكون لديه أخبار عن أبيك ، وقد يجلو لك الشكوك التى تخامرك ، وثق أنه لن يخفى عليك من أمره خافية ، فقد تقدمت به السن ، وهو اليوم أحكم الناس . »

(١) أشعة الشمس .
(٢) نليوس هو ابن بوسيدون (نبتون) إله البحار وألد أعداء أوديسيوس
(٣) الأمعاء وما إليها .

ويقول تلماك :

« أواه يا منطور ! ما أحسبني أقوى على لقاء الرجل ، وأنا من تعرف من قلة الشـــأن ورقة الحال أنا الفتى الحدَث . أنّى لى بلقاء الشيخ ذى التجاريب ؟ »

وتجيبه ذات العينين الزبرجديتين .

« لا عليك يا بنى ! إن هى إلا كلمات تقولها وعلى الله قصد السبيل ! العالم كله يعرف أنك نشأت فى ظروف قاهرة ما كان لك بها يدان ! »

ودلفت مينرفا ، ودلف فى إثرها تلماك ، حتى كانا فى وسط القوم ، وحيث جلس نسطور العظيم بين أبنائه ، وحيث اشتغل أهله بالشواء ، وهب الجميع للقائهما . وتقــدم ابن نسطور الأكبر ، بيرستراتوس ، فصافحهما هاشاً ، وتلقاهما باشاً ، وأجاسهما فوق الفراء المبثوث إلى جنب أبيه ، وأخيه الأصغر تراسيميديس ، وقدم لــكل مضغة من حَوِيّة ، ثم كأساً دهبية من خمر معتقة ، تذوّقهـا قبل أن يحيى بهـا ، ثم قال مخاطباً مينرفا :

« مرحباً بك أيها الضيف المــكرم ! لقد شرّفت في عيد نبتيون ، وبودّنا لو أفرغت باسمه ما فى هذه الــكأس من خمر صلاةً له وزكاة ! ونرجو لو أشركت فى التقدمة زميلك ، فما أحسبه إلا محبـاً للآلهة ، خابتاً لها »

وتبسمت مينرفا ، وتناولت الــكأس في وقار ، وأرسلت هذه الصلاة باسم رب البحار :

« نبتيون العظيم تقدس اسمك ، وأحاط باليابسة ملكوتك .. يامنقذ الضالين ومغيث المتضرعين ، أدرك بلطفك التائبين إليك ، ونجهم من دأمائك ببركة أسمائك ، مولاى وتقبل من نسطور ومن ذريته ، وتقبل من جميع أهل بيلوس أضحياتهم ، ثم تفضل يامولاى فسدد خطى تلماخوس وخطاى إلى ما أقلعنا فوق هذا المركب الشاحب من أجله ... آمين آمين ! . »

وتناول تلماخوس الكأس بدوره ، ثم أفرغ ما فيها ، وتمتم بصلاة قصيرة ؛ وما كاد يفرغ حتى تفرق المدعوون من أهل بيلوس طاعمين شاكرين ، إلا مينرفا وصاحبها ، وإلا نسطور وولديه ثم قال نسطور :

« أما وقد فرغنا من غدائنا فماذا أيها الوافدون؟ من أنتم؟ ومن أين حملكم هذا البحر؟ أتجار أنتم ؟ أم قرصان تملأون الشطآن ذعراً وفزعاً ؟ »

واستجمع تلماك شجاعته ، ونفخت فيه مينرفا من روحها ، وتكلم فقال :

« على هينتك يا ابن نليوس العظيم ، يا فخر هيلاس ؛ إنى أنا ابن صديقك وصفيك أوديسيوس ، سعيت إليك من أقصى الأرض أسائلك عن أبى ! أبى ! صفيك وخليلك الذى صال معك تحت أسوار إليوم وجال ، ثم لا أحد يعرف من أنبائه اليوم شيئاً ! لقد انتهت إلينا أخبار الأبطال اليونانيين جميعاً وعرفنا مصارعهم ، إلا إياه . أين رقد ؟ وأنى

ثوى ؟ وأيان قرت رفاته إن كان قد شالت نعامته ، أو مضى على وجهه فى الأرض إن كان لا يزال حياً ... إن الآلهة نفسها لا تشاء أن تدلنا من أخباره على أثر . ولشد ما أخشى أن يكون قد ثوى هناك ... فى أعماق مملكة نپتيون ، مع الجميلة أمفتريت[1] . لذلك سعيت إليك يا نحر هيلاس كيما تحدثنى عن أبى ، وكيما تذكر لى بعض ما تعرف عما ألم به إن كنت قد شهدته ، أو تقص على ما عسى أن تكون قد سمعته من بعض حاشيتك التى تجوب هذه البحار . قل . تحدث يانسطور ، ولا تخف عنى شيئاً ... قل ... إنى أستحلفك بكل ما كان يفتديكم به فى ساحة إليوم أن نقص على أنبـاءه . لقد كان يحبك ويجلك ويوقرك ، فاجز ابنه بعض ذلك »

وكأنما رأى نسطور حلماً لذيذاً فقال :

« ويحك أيها الصديق الشاب ! ما أروع ما هجت ذكريات الماضى المفعم بالأشجان ! ذكريات السادة الذادة والمغاوير الصناديد ، الذين سقطوا تحت أسوار إليوم العتيدة فأرووا ثرى الميدان بدمائهم ، وسطروا آية المجد بمُهَجِهِم ! إيه أخيلوس ياسليل الآلهة ؛ وبتروكلوس يامعجز الأنداد والأقران ؛ وأجاكس ! أجاكس الذى كان أُمَّةً وحده ! لقد رقدوا جميعاً تحت قلاع بريام الجبـار الشيخ ! ورقد معهم ولدى ! آه ياولدى ! أواه ياقطعة قلبى وفلذة كبدى وثمرة حياتى وسُؤْدَدى ! يا أشجع الشجعان يا أنتيلوخوس ! أية قصة وأية مأساة ؟ ! يا رعاك الله أيها الشاب

---

(١) ملكة البحار وزوجة نپتيون .

الحزون ! أنى لى أن أقص عليك أحداث سنين تسع كانت هموماً متصلة وأحزاناً فاجعة وآلاماً تَتَسَعَّرُ فى جميع القلوب ! ؟ أى لسان ذرِب يقص فلا يمل ، وأى مقْول رطب يحكى وما يعيى ؟ ألاَ لو أنك أقمت تسمع الأعوام الطوال فما أحسب القصة تنتهى ! القصة التى لم تُجْدِ فيها شجاعة الألوف لولا خدعة أوديسيوس وحيلته ، وطول أناته وهمته !

ولكن حدثنى بربك أيها الشاب : أإنك حقاً لولد أوديسيوس ؟ أجل ! إنك بملامحك وقسماتك غصن دوحته ، و إنك بكلماتك العِذاب عسلوج أرومته ! أوْه ، أوديسيوس ! يا رفيق الشباب وحبيب القلب ! اشد ما تعتلج فى النفس تلك الخاتمة الهائلة التى قضاها على الأرجيف(١) سيد الأولمب ، غِبَّ انتصارهم ، وقبيل أوبتهم ! لقد حنقت مينرفا على وَلَدَىْ أتريوس إذ تنازعا فقال قائل منهما نضحى لربة العدالة عند سيف البحر تلقاء إليوم ، ولكن الآخر أبى ، وأبحر على أن يقدم لها القرابين فى آرجوس ! ياللتعسين ! أجاممنون البائس ومنلوس المسكين ! إنهما لم يصليا لمينرفا لحاق بهما غضبها ، وعبثاً حاولا بعد ذلك أن يترضياها ! اختلف الأخوان ونام الجند حتى مطلع الفجر ، ثم أقلع نصف الأسطول فى موج ثائر مصطخب من غضب الآلهة ، بقيادة أجاممنون ، وما هى إلا سويعات حتى هدأ اليم ونام الموج ؛ و بلغنا تندوس فذبحنا الأضحيات باسم الآلهة ، وسبحنا لرب البحار نبتيون، فتطامن العباب ؛ ولكنا ما كنا

(١) جنود آرجوس إحدى مقاطعات اليونان

ندرى ما تنسجه يد جوف [1] حولنا ، بل لم يكن يخامرنا أقل شك فى وصولنا إلى الوطن سالمين . ذلك أن أوجه النظر اختلفت ثمة ، ونشب بين القادة نزاع فى الرأى : هل يقلعون من تندوس ، أو يتلبثون بها حتى تنجلى العاصفة التى شرعت تهب فى عنفوان وشدة ؟ وهنا ، آثر ملاحو أبيك أن يعودوا أدراجهم بسفائنهم إلى طروادة ، وذلك مجاملة للقائد العام . بيد أنى لم أر هذا الرأى ، بل فررت من العاصفة بسفائنى إلى جزيرة اسبوس، ولحق بنا ديوميد ،ثم وصل منلوس فى إثره؛ وأرسينا ثمة ؛ وانتظرنا إذناً من السماء ، أو قل بارقة من الآلهة ، نقلع بعدها . وكانت العاصفة تشتد وترقص فوقنا ومن تحت أساطيلنا ، فلم نر بُداً من المجازفة وإلا تكسرت جوارينا على الصخور وفوق الأواذى ، ... يا للهول ! لقد بلغت قلوبنا الحناجر قبل أن نصل إلى جيريستوس ! حمداً لك يانيبتون وثناء عليك ؛ وقل أن نذبح باسمك ألف قربان من كل عجل جسد وكبش حنيذ ! ولقد فاز ديوميد فوصل بجنوده سالماً إلى آرجوس ، وكذلك فاز الجبابرة الميرميدون ، جنود أخيل ، بقيادة شبله العظيم نيو بتوليموس ، فوصلوا إلى أوطانهم غانمين ، ووصل من بعدهم فيلوكتيتيس .. كذلك وصل أجاممنون وليته لم يصل ! لا ريب أنك سمعت بما حاق به ! لقد قتله المجرم إيجستوس [2] ، ولكنه دفع روحه ثمناً لفعلته ؛ إن العيش لم يطب لابن أجاممنون حتى ثأر لأبيه ، فانقض كالصاعقة على قاتله وغاله بيده !

(١) زيوس أو جوبيتر كما يسميه الرومان وهو كبير الآلهة

(٢) يجد القارئ شرح ذلك فى كتابنا التالى (إسكيلوس والمسرح اليونانى) إن شاء الله .

يا للفخار أيها الصديق الشاب حين تنتقم لأبيك فتسجل اسمك فى سجل الخالدين ! » .

وشاع العُجْب فى نفس تلماك ، فقال :

« ويك نسطور ! إنه سيكون انتقاماً عادلا بحق السماء ، وستتغنى الأجيال القادمة بقصته ، وسيرويه الخلف عن السلف . كم ذا وددت لو مكنت لى الآلهة فى أعناق هذه العصبة الفاجرة من العشاق الآثمين الذين يدلون علىّ بعَددهم وعُددهم ، والذين يقذفون فى وجهى بالإهانة تلى الإهانة ... وا أسفاه ! ليت شِعرى لم لا تؤيد الآلهة حتى على باطلهم ؟ لقد نفد اصطبارى وكلت حيلتى ... فماذا أعمل ؟ »

وقال نسطور : « أيها الصديق ، لقد أذكرت منى غافلا . ويحك تلماخوس ! لقد تناقل الناس ما كان من حماقة هذه الطغمة التى تستبيح عرض أوديسيوس ، وتستنزف ثروته ... ولكن ، من يدرى ؟ هل أمنوا أن يعود يوماً فيستأصل شأفتهم ، ويديل منهم ، وتكون له الكرة عليهم ؟ لقد كان أبوك العظيم حبيب مينرفا وصفيها ، وهى لا بد آخذة بناصرك كما أخذت بناصره من قبل ، وهى لا بد مدركتك وشيكا ، وحائلة بين أعدائك وأعداء أبيك ، وبين هذه الزيجة المحرمة »

ويجيب تلماك :

« ألا من يدرى ؟ إنه لا أمل لى فى ذلك قط ! آه أيتها الأحاسيس الغريبة التى تجيش فى قلبى ! الآلهة فقط هى القادرة على تحقيقك بمعجزة ! »

وهنا ، حدجته مينرفا بنظرة هائلة من عينيها الزبرجديتين ، وقالت له :

« تليماخوس ! أية كلمة هائلة زل بها لسانك ؟ ! ما أيسر على الآلهة أن تقول للمستحيل كن فيكون ، أنا نفسي كم تجشمت أهوالا في أسفاري ثم عدت بعناية أربابي سالماً إلى أرض الوطن ؟ بل كم من أناس ظنوا أنهم نجوا من الموت في يم غشيهم بموج كالظُّلَل ، فلما وصلوا إلى البر حاقت بهم مناياهم كما حاقت به منيته أجاممنون ، حين خر صريعاً بيد إيجستوس الأثيم ، و بيد زوجه الملكة[1] الغادرة الفاجرة الزنيم! حقاً ، إن الآلهة لا تملك أن تحول بين المرء و بين المنون ما دام قد جاء أجله ، مهما يكن حبيبها وأعز عبادها عليها . »

وعبس تليماك عبوسة خفيفة ، وقال :

« مهما يكن من الأمر فلندع هذا الآن يامنطور! إنني لا أمل لي مطلقاً في عودة أبي ، ولكنها أقضية من السماء ومقادير أن أذرع وراءه البحار ، وأن أعود فأسأل فخر اليونان نسطور ، اللبيب الأريب الذي حكم كما هو مأثور أجيالاً ثلاثة ، والذي يتألق في عينيه سناء الآلهة ... أعود فأسائله كيف قتل أجاممنون ؟ وكيف تهيأ لايجستوس أن يقتله ، وهو من هو أعلى منه نسباً وأعز حسباً وأشرف قدراً ، وأين كان منلوس الملك شقيق أجاممنون ؟ ألم يكن قد عاد بعد إلى أرض الوطن أم كان لا يزال يطوي الآفاق ، فشجع ذلك إيجستوس ونفخ في قلبه ؟ » .

وقال نسطور : « رويدك أيها الصديق الشاب فإني قاصٌّ عليك نبأ

---

(١) كليتمنسترا

ما لم يأتك به علم ... تالله لو لم يُقتل إيجستوس قبل عودة منلوس ، ما أقيم على رفاته جدث ، وما بكت عليه عين ، ولألقى بدنه النجس لكلاب البرية وطير الفلاة تنوشه وتمزقه وتغتذى به ، جزاء فعلته الشنعاء وجرمه الذميم وخطيئته التى لا تغتفر . إصغ إلى . لقد أناب منلوس عنه حارساً أميناً يسهر على أمور المملكة ... ذاك هو أتريدس الحميم ، الذى تغفله إيجستوس ، واتصل بمولاته سراً وهو لا يدرى ، واستطاع أن يدبر معها هذه المؤامرة الشنيعة التى انتهت بنفى الحارس الأمين ثم قتله فى جزيرة موحشة غالبته فيها السباع الضارية والأوابد[1] الكاسرة ، حتى إذا خلا لهما الجو أسلست له المملكة القياد فحكم وساد ، وطغى واستبد ، وتسلط على البلاد أعواماً سبعة طوالاً .. كل هذا والسماء ساهرة لا تغفل ، فقد عاد أورست بن الملك الغائب ، وابن الملكة الفاجرة ، فأنقذ عرض أبيه وقتل الوحش اللئيم الذى دنَّس شرف المملكة ، ولطخ بالوحل هذا المجد الأثيل ، ثم قتل أمه .. أجل ، قتل أمه وجمع حوله الأرجيف البؤساء يحتفلون بهذا النصر ويصلون للآلهة التى أنقذتهم من ذاك الشر ... وبينما هم فى أفراحهم وانشراحهم إذا بالملك العظيم يصل بأساطيله بعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر ... فلقد أبحرنا (أنا ومنلوس) من طروادة معاً ، وما كدنا نبلغ صنيوم[2] ، أول مرافىء أثينا ، حتى وقع ما لم يكن

---

(١) الوحوش .
(٢) sunium .

لنا بحسبان . ذلك أن رب الشمس أبوللو عال بسهامه التى لا تطيش ربان الأسطول العظيم ، فرونتيس ، فاضطر الملك أن يلقى مراسيه حتى يصلى على صديقه ويقيم الشعائر على جثمانه ؛ ثم أقلع ، وما كاد ، حتى اضطرب البحر ، وفغرت اللجج أفواهها ، وتدافع الموج حول الأسطول كالجبال ، وعتم الجو ، وعامت السماء ، وانقضت الصواعق فانشعب الأسطول وتمرقت سفائنه ، وانشطرت وحداته ، فبعضها شرّق ، وبعضها غرّب ، وبعضها يمم شطر سيدون عند كريت ، وبعضها اتجه برغمه نحو شطئان مصر ، وبعضها غاص إلى الأعماق ، وخمس فقط ... وصلت بعد طول الجهد إلى هنا »

« بنى .. أيها الصديق الشاب . أخلق بك أن تذهب من فورك إلى منلوس فتسائله عن أبيك ، فلقد لقى الأهوال فى البحر ، ولا ريب أنه سمع كثيراً مما جرى فيه من مختلف الأمم فى رحلته المشئومة ... هلم . . إنطلق اليه ... وإن لم تسعفك سفينتك فإنى ممدك بكل ما تحتاج من مركب البر أو البحر ، وهاهم أولاء رجالى معك أينما توجهت ، بل هاهم أولاء أبنائى ، ليصحبك أحدهم ، أو كلهم ، إلى منلوس ، فإن عنده الخبر اليقين »

وكانت الشمس قد توارت بالحجاب ، والليل قد نشّر ظلامه فوق الطبيعة المنهوكة الخامدة فنهضت ابنة زيوس العظيم ، مينرفا الخالدة ، وهى لا تزال فى صورة منطور أمير البحر وطيلسانه ، فقالت : « مرحى يا فخر هيلاس ! لقد قلت حقاً وتكلمت صدقاً ؛ هلم ، البدار البدار ، قطعوا

ألسن القرابين[١] وأريقوا الخمر باسم الآلهة ، وباسم نبتيون قبل كل شيء ... »

وانتشر الوِلْدانُ بين المدعوين يصبون الماء على أيديهم بعد إذ أدوا التحية الخمرية المقدسة لأربابهم ، ثم تعرقوا شيعاً ، ونهض تلياك وصاحبه لينصرفا ، لولا أن صاح بهما نسطور :

« حاشا يارفاق ! أنتما ضيْفي[٢] ، فكيف تبيتان في سفينتكما تحت طل الليل وهذا بيتي فيه كِنٌّ لكما وفراش وثير ، وفيه ، والحمد للآلهة ، خير كثير ، وهؤلاء أبنائي سمّاركما ، وهم ثمة طوعٌ لكما »

وشكرت مينرفا للملك عطفه ثم قالت : « بوركت أيها الملك ، ليبق تلياك هنا ، ولأمض أنا إلى البحر لأسهر على صوالح مركبي ، ولأطمئن بحارتي ، فكلهم أتراب تلياك ، وكلهم متطوعون لخدمته وفاء وحباً ، وليس يجمل إلا أن أبيت أنا معهم تلك الليلة ، على أن نقلع صبيحة الغد إلى كوكون ، ولتأذن فتمنحه عربة وزوجاً من صافنات جيادك ليلحق بنا ثمة ، يصحبه أحد أبنائك ، ما دمت قد عرفت فيه ابنا لأعز أحبائك وأوفى أصدقائك »

ثم حـــدثت المعجزة ... فإنه ما كادت مينرفا تتم كلامها ، حتى انتفضت انتفاضة هائلة ، وتحولت من صورة منطور أمير البحر إلى نسر عظيم مهوب اللفتات ، ما عتم أن ضرب الهواء بخافيتيه ، حتى حلق في

---

(١) كان من التقاليد الشائعة أيام هومير أن تقطع ألسن القرابين وتحرق باسم الآلهة لينصرف الجمع   (٢) بصيغة المفرد

السماء ، وغاب فى لا نهايتها ، بين دهش القوم ، وشديد حيرتهم

وتناول نسطور العظيم يد تلماك ، وظل يقلب فيه بصره ، ثم قال :

« أيها الصديق : لشد ما عظمت منزلتك ، وسمت مكانتك . حتى لتكون فى رعاية الآلهة وعناية السماء ! هـذه دون ريب ابنة سيد الأولمب — الكريمة مينرفا — التى ما وقرت أحداً من أبناء هيلاس كما وقرت أباك

« ولكن أنتِ ! أنت يا مليكة العدالة ! ضرعت إليك أن تتلطفى بنا جميعاً ! امنحينى بركاتك .. أنا وأبنائى وشعبى ... اكتبى أسماءهم فى الخالدين ، وسنصلى لك ونذبح باسمك خَيْر بقرة ؛ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ؛ مُسَلمة لا شية فيها ؛ منضورة بالورد ، محلاة القرنين بالذهب » .

وقبلت مينرفا صلاته ، ولبت دعاءه ، ونهض وفى إثره أبناؤه وأحفاده ففتحت أبواب القصر وتقدمت ندمانة الشراب فقدمت إليه كأساً من خمرها نسب من عهد أولمب ، فأفرغها فى الأرض تحية لمينرفا ، واقتدى به ملؤه فأفرغوا كؤوسهم ، ثم مضوا إلى غرفاتهم ، ومضى الملك مع تلماك إلى مخدع وثير ، وفراش من حرير ، وأمر ابنه بزستراتوس فقام معه ، ثم ذهب حيث وجد الملكة فى انتظاره

ونشرت أورورا[١] غلائلها الذهبية فى مشرق الأفق ، فاستوى نسطور على عرشه المرمرى المتألق عند بوابة القصر ، حيث كان أبوه

---

(١) ربة الفجر وحادية عربة أبولو حين يركب الشمس عند الشروق .

ليوس يجلس كآلهة للنظر فى صوالح العماد ، وأقبل بنوه الستة ومعهم تليماك الذى جلس إلى جنب أبيهم ، وتحدث إليهم نسطور فقال :

« هلموا يا بَنِيّ ، لنذبح القربان المقدس باسم مينرفا الكريمة التى باركت حفلنا أمس ؛ لينطلق أحدكم إلى الحقل فليحضر ثوراً[١] سميناً ، وليذهب آخر فليدْعُ رجال تليماخوس — إلا اثنين — من السفينة ؛ وليمض ثالث فلمأت بالصناع الفنان (ليرسيوس) ليجلل قرنى القربان بالذهب ، وليبق الآخرون هنا ، ثم لتحضر كل حاشيتنا من النساء ليكسبن الوليمة بهجة ورواء »

وأطاع أبناؤه الأوفياء ، وأحضر القربان ، وأقبل الملاحون الأمناء ، ثم قدم الفنان ليغطى قرنى البهيمة بالذهب ... ثم ... وافت مينرفا ... مينرفا نفسها لتشهد الطقوس التى تقام باسمها . . ، وبدأ الفنان عمله ، فأخذ يرقق صفائح الذهب ويثبتها بمهارة فى القرنين الصغيرين . وتقدم أريتوس بن نسطور وفى إحدى يديه باقة كبيرة من الزهر وفى الأخرى سلة من أفخر أنواع الكعك ، وتقدم ابنه الثانى تراسيميد وفى يده شاطور كبير ليذبح الثور ووقف قبالته برسيوس يتلقى الدم فى وعاء كبير . ونهض نسطور الأب فسبح وصلى أمام نار كبيرة مضرمة ، وتمتم باسم مينرفا ، وقذف فى اللظى بكعكتين كبيرتين ، وبناصية القربان ، وبقدر قليل من الماء المقدس . وإذ انتهى الجميع من صلاتهم شمر تراسيميد عن ساعده وجزر القربان ، وانكب الجميع يجهزونه ، وكانت يوريديس

---

(٢) كان على نسطور أن يذبح بقرة مسلمة .

الجميلة المفتان تُعنى أشد عناية بالفخذين ، فسترتهما بثوب غال من الديباج ، وكان نسطور نفسه ينثر الخمر المقدسة والعطور والأرواح . ، . وهكذا أخذ الجميع فى شغلهم ، وشرعوا يلقون فى الجمر بالحوايا ، وشرعت بوليكاست تنثر البهار والتوابل . . وتهادى تليماخوس بعد هذا فاستوى إلى جنب الملك ، وانتصب الولدان والندامى يصبون الخمر ، وبدأ الكل يأكلون هنيئاً ويشربون مريئاً .

وما كادوا يفرغون حتى أمر نسطور فهيئت الصافنات الجياد لرحيل تليماخوس ، وأحضر القواص عربة كبيرة مثقلة بكل ما تحتاج الرحلة من زاد وعتاد .

وأخذ تليماك مكانه من العربة الأولى ، واستوى إلى جانبه پيزستراتوس أشجع أبناء نسطور ، ثم سلم تليماك وودع ، وشكر وأثنى ، وجذب أعنّةَ الخيل فانطلقت تنهب الرحب ، وتبتعد عن بيلوس وتطوى الزمان .

وبلغوا ، مع مغرب الشمس ، فِيريه ، حيث تلقاهم رب البيت بالبشر والترحاب ، وباتوا عنده ، حتى أيقظتهم أورورا المشرقة . فواصلوا رحلتهم إلى أسبرطة .

العشاق يتآمرون

وصل الركب إلى أسبرطة بعد أن غوّر فى وهادها وأنجد ، وانطلق تليماك وصاحبه من فورهما إلى باب منلوس الملك حيث وجدا ، لحسن

الطالع ، وجوها مسفرة ، وجماهير مستبشرة ، وموسيقى تصدح ؛ ومنشدين يرددون أناشيدهم ويرسلون أغنياتهم ، ووليمة ملكية حافلة اجتمع لها الملك وأبناؤه وخلصاؤه وندامائه ، يأكلون ويشربون ويسمرون ويتطربون ... ماذا ؟ لقد اجتمع القوم من كل حدب ، وأقبلوا من كل صوب ، يحتفلون بابنى الملك : بابنه الذى زوجه أبوه من أجمل عادات أسبرطة وأكثرهن وسامة وقسامة وفتنة ، ابنة ألكتور العظيم ؛ ثم بابنته المفتان اللعوب الطروب التى رزقها على كبر من هيلين ، والتى نافست بجمالها ودلها هرميون ابنة ڤينوس .

وما كادا يجاوزان الوصيد حتى لحهما إتيون ، كبير أمناء الملك ، فانطلق إلى مولاه وحدثه عنهما ... « إن لهما لمهابة وإن عليهما لرواء ، فهل يأذن لهما مولاى ، أم يأمر فنردهما من حيث أقبلا ؟ »

وأومأ الملك برأسه الكبير الذى يزيد فى وقاره وحسن سمته شعره الذهبى ، وأمر إتيون أن يذهب اليهما ، فيسير بين أيديهما إليه ... « ... إذ كيف يُرد عن طعامى الغرباء ، وقد طعمنا طويلاً زاد الغرباء ؟ »

ودعا إليه إتيون طائفة من الخدم وذهب إلى الوافدين الكريمين فحيَّا وسلم ، وحل اللجم وأناخ البُهم ، ومضى بهما إلى داخل القصر من طريق يشرف على مكان الحفل وترى منه الجدران التى ازدانت بأحسن زينة ، وقبة العرش التى تلألأت فى الأنوار الوضاءة والسُّرُج الوهاجة ... ثم لقيتهما فتيات من عذارى القصر فقدنهما إلى الحمامات المرمرية الباذخة فاغتسلا وتضمخا ولبسا ثياباً ملكية ، ثم ذهبا للقاء رب هذه الدار .

وهش الملك لهما و بش ، وأجلسهما إلى جانبه على مقعدين وثيرين ، وهما فى دهش من ذاك المنظر العجب . وأقبلت فتاة فصبت على أيديهما الماء ، وذهبت فأحضرت مائدة رائعة منسقة ، عليها قدر غير قليل من أفخر الأشربات وأشهى الآكال ، ووقف خادم آخر يقدم طبقاً بعد طبق ، وكأساً من ذهب بعد كأس من ذهب ، والملك فيما بين ذلك يبالغ فى إيناسه لهما والحفاوة بهما ، ويُنظرهما حتى يفرغا من طعامهما فيخبراه عن أمرهما ، وكان يتلطف فيقدم لهما قطعاً من شوائه بيده .

وسارّ تلياك صاحبه فقال .

« بيزستراتوس ياصـديقى ! ما أجمل وما أفخم وما أروع ؟ ! هذا الحـفل الداهر يتألق فى الذهب والفضة والعاج والـكهرمان ودروع النحاس ! أبداً ما ترى العين مثل ذلك ، ولا تسمع الأذن إلا عن قصر سيد الأولمب فى شعاف جبل إيدا ! أية ثروة وأى كنز ؟ !

وسمعه منلوس الملك فقال :

« بنى ! لا تقرن قصرأحد منا — نحن بنى الموتى — إلى قصر سيد الأولمب ! وأنت على حق حين ترى أن لا أحد يملك ما أملك أنا من أذخار وكنوز ، فقد سحت فى أقصى الأرض سنين عدداً ، وجمعت الدرر الغوالى من كل فج .. من كريت وقبرس وفينيقية ومصر ، ومن أثيو بيا وإيرمبى ... ومن صيدا ولو بيه ورؤوس الشاء والوعل هذه . الوعل الوحشى السائم ... والشاء التى تمدنا بخيرها بغير حساب ... لقد طوفت فى الآفاق وتركت فى كل منها ذكرى . ولا غرو ، فقد نبأكم آباؤكم

أنباء منلوس الملك الذى دك المعاقل وهدم القصور . . ما أنس لا أنس هذا القصر العتيد الذي جعلت عاليه سافله بما فيه من أدحار وقنى ، وددت لو كان فى قصرى شىء منها ، وود الإغريق لو حصلوا فى بلادهم جميعاً على بعضها ! هناك ! هناك تحت أسوار طروادة يا صاح ! يا ويح نفسى ! يارحمتا للأصدقاء الأحباء الأعزاء الذين ناموا ثمة ! لشد ما أسلى النفس عنهم بالتأسى ؟ لشدّ ما يندلع الأسى فى قلبى عليهم جميعاً ، ولا سيما صفيى وخليلى وأعز أودائى علىّ . . أوديسيوس ! أوديسيوس الكريم ! ليت شعرى ياصديقى فيم شطت بك النوى وطال عليك الأمد ؟ أحى ترزق ؟ أم ثويت فى بطحاء بلقع ؟ ياويح لك ، ولأبيك الشيخ ، وزوجك الملتاعة ، وابنك المحزون اليتيم تلياخوس ، الذى غادرته فى المهد ما بلغ الفطام ، إلى حومة الوغى وحلبة الحمام . » .

ولم يملك الفتى دموعه حين سمع هذا الهتاف باسم والده فنشج نشيجاً مؤلماً ، ثم استخرط فى البكاء ، وطفق يذرى شئونه فى طرف ثوبه بين دهشة منلوس وحيرته ، وذهول الحاضرين . وانعقد لسان الملك فلم يسأل الشاب عن حاله ، حتى أقبلت هيلين فجأة ، فتلفت القوم ينظرون إلى هذا الرشأ الذى يتثنى مياساً فى ظلال من الفتنة ، كأنه ديانا ربة القوس الذهبية ...

واستوت على عرشها المنضد ، الذى أصلحته يدا أدرستا وعناية أكليب ، ثم أحضرت الطُّرَف والهدايا واللُّهى . فهذه سلة من الفضة المزخرفة بالتصاوير هدية من ألكندرا زوج بوليب أمير طيبة ، عروس

المدائن المصرية ؛ وتلك عشر بِدَر من النضار الخالص ، وطستان من الذهب ، ودنان من الإبريز ... يقدمها كلها ملك أسبرطة إلى زوجه البارعة الرائعة الهيفاء ... ونظرت هيلين إلى الضيفين الغريبين ، وسألت زوجها :

« ملكى ! نشدتك الآلهة أن تخبرنى من هذان ؟ إن أحدهما شديد الشبه بطفل أوديسيوس .. الصغير تليماخوس ... الذى تركه أبوه صبياً فى المهد من جراء حرب إليوم المشئومة . »

وقال الملك : « وأنا مثلك ياهيلين ، لقد دار بخلدى ما دار بخلدك من أمر هذا الفتى ! ألا ما أشبه الساقين والساعدين وتفتير العينين واسترسال اللّمتين(١) بما كان لأوديسيوس ؟ ! لقد ذكرت ما قاسى صاحبى من أجلى وفى سبيلى تحت أسوار إليوم ، فسرعان ما رأيت الشاب يبكى ويبكى ويبالغ فى البكاء ، ثم يغلبه حزنه فيخفى وجهه ، وفيه روحه ، فى ثيابه من الهم »

وانتهز ابن نسطور الفرصة فقال :

« حقاً أيها الملك إنه هو ! ولكنه خجول حيىّ ، ولقد أوشك حياؤه أن يمنعه من لقائك ، وقد هاج تباريحه ما ذكرت عن أبيه . أما أنا ، فإنى ابن نسطور صديقك الآخر ، وقد أمرنى أبى أن أصحب تليماخوس إلى هنا عسى أن يسمع خبراً عن أبيه الذى ذهب يذرع الأرض ، ولا يعلم أحد أين قد ذهب ... وهاك ابنه المكلوم يجتر أشجانه ، وتطحن

(١) اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .

فؤاده أحزانه . »

وشدُه البطل — ذو الشعر الكهرمانى — فقال :

« ياللآلهة ! أهكذا أفاجأ بلقاء ولدى ! أنت ؟ أنت ابن أوديسيوس الذى شقى طويلاً بسببى ، وبذل نفســه من أجلى ، ولا يزال يناضل الويلات من جرائى ؟ كرامة وحباً يا ابن خير الأصدقاء ! لو عرفت أنك تسعى للقائى لشدت لك مدينة فى آرجوس، تتيه على المدائن وتزهى على القرى ! ورفعت لك عماد قصر منيف طالما كنت إخاله يؤوينا جميعاً فنسعد سعادة لم يحلم بها قوم من قبل ولا من بعد ... ونلتذ ، أنا وأبوك وأنت ، وجميع أهلى وأهله ، ذكريات الماضى المترع .. آه يا أوديسيوس ! لقد طاشت الأحلام وذابت الأمانى ، وقست عليك السماء ... فحرمتك كل شىء ، حتى الأوبة إلى أرض الوطن ! »

وأثارت كلمات الملك شجون القوم ، فبكى تليماخوس ، وأذرفت الملكة ، وانبجس الدمع من عينى بيزستراتوس حين ذكرت طروادة فأذكرته قتل أخيه تحت أسوارها ، ثم قال : « حسبك أيها الملك ! لقد تذاكرنا ، أنا وصاحبى ، جلائل أعمالك فعرفنا فيك المليك الأجل ، والمقدام البطل ، ولكن ماذا تجدى دموعنا ؟ لقد غالت يد الردى أخى وابن أمى وأبى فى سبيلك كذلك ! ألا تذكر ؟ أنتيلوخوس ! البطل المغوار والفارس الكرار الذى لم تكتحل عيناى برؤيته ! أوه يا ابن أورورا الغادر ، شلت يداك بما فتكت بأخى ! ... »

وتعطف الملك فطيَّب ابن نسطور بكلمات عاليات ، وأمر الندمان

فصب الماء على أيديهم جميعاً ثم أخذوا فى آكالهم ، وصبت هيلين قطرات من طيب مُذْهِب للأحزان فى كأس تليماك ، وكأس صاحبه ، لا يعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل . وهى قطرات عجيبة أهدتها الملكة ، زوجة (ذون) الأميرة المصرية پوليدامنا ، وكم فى مصر من سحر مبين !

وتكلمت هيلين ، فذكرت ما كان من أوديسيوس يوم التقى الجمعان عند إليوم ، وكيف استطاع أن يتسلل مستخفياً فى ثياب شحاذ إلى داخل المدينة العتيـدة ، وكيف قابلها فى حجرة پاريس ليطلعها على خطة اليونانيين ، وما كان من رجائه إياها ألا تفضحه عند أعدائه حتى يعود سالماً إلى معسكره ومخيمه ، وأنها برَّت فلم تنبىء أحداً بوجوده .. ثم رأت أن تتنصل من فضيحة فرارها مع پاريس فادعت أنها كانت مسوقة إلى ذلك برغمها لأن فينوس كانت قد سحرتها عن نفسها (لما وعدت به پاريس من أنها ستهبه أجمل غادات هيلاس إذا هو قضى لها بالتفاحة[1]) .

« واخجلتاه ! لقد أزرى بى أن أفر راغمة فأهجر فراشى الطهور وطفلتى اليافعة إلى بلاد قاصية لا ناقة لى فيها ولا جمل .. »

وأعذرَها الملك ثم ذكر أوديسيوس فقال :

« أبداً ما رأيت أثبت جأشاً ولا أربط قلباً من أوديسيوس ؛ وإن أنس لا أنس يوم الروع الأكبر ، يوم فكر أوديسيوس وفكر ، ثم دبر هذه الحيلة العجيبة ، حيلة الحصان المُولة الذى قهر لنا طروادة فى يوم

---

(١) قضى پاريس بالتفاحة لڤينوس وحرم منها منيرڤا وحيرا وذلك سبب عدائهما للطرواديين . (كتابنا قصة طروادة)

أو بعض يوم ، وقد عيينا بها السنين الطوال . لقد اختبأ داخله فرسان هيلاس[1] الصناديد ، وكنت أنا — سقى الله الشباب — واحداً منهم ، فما أنسى قط حين أقبلْتِ في عصبة ذوي أيد من مداويد الطرواديين (إذ هتف بهم هاتف إن الحصان يحمل لهم شراً ويطوى لقريتهم ثبوراً) فجعلت أنتِ تنادين بأسماء الفرسان اليونانيين واحداً بعد واحد لِترَىْ هل احتبأ منا بداخله أحد كما تنبأ بذلك المتنبئون . تالله لقد كدت أرد عليك نداءك حينما هتفتِ باسمي ؛ وتالله لقد أوشك زميلى ديوميد يرد عليك هو الآخر ، لولا أن فطن أوديسيوس فحذرنا وحبس ألسنتنا الشقشاقة التى كادت توردنا موارد الهلاك ، لو أن أحداً منا خُدِع فنبس ببنتْ شفة — وَاحَرَبَا ! لقد صمتنا جميعاً ولكنك عاودْتِ ، فما كدت تهتفين باسم أنتيكلوس ، حتى أوشك المجنون أن يلبى ، لولا أن كتم أوديسيوس أنفاسه بكلتا يديه ، حتى لكاد يزهق روحه ! ولم يُعنْفه حتى أيقنا أنك عدت أدراجك ، وعاد معك القوم المنكرون » .

ثم كان الهزيع الأخير من الليل ، فتلطف تلياخوس واستأذن الملك فى الانصراف ليأخذ كلٌّ نصيبه من النوم ، فتأذن ، وأشارت هيلين إلى وصيفاتها فأهرعن إلى مخادع الأضياف ، فأصلحن فرشها ، وأعددن الملاحف والوسائد والحشايا ، ثم نهض أمين الملك ، ونهض فى إثره بيزاستراتوس وتلياخوس ، حتى كان كل فى مخدعه ، وحتى اطمأن كل فى سريره ، وناما فى حرير وسمور وفى قاقم وفى سنجاب

(١) اسم يونان القديمة وتطلق إيلاس

وتهـاويل غير ذاك من الر قم ومن سندس ومن زرياب[1]

ونهض الملك والملكة كذلك فدخلا القصر ، واستسلما لأطيب الرقاد .

* * *

وذرَّ قرْن أورورا ، ربة الفجر ، فى المشرق الوردى ، وهب الملك وأصلح شأنه ، ورف بازيُّه الأشهبُ فوقف على غاربه ، ثم مضى إلى مجلسه حيث لقى تليماك فى انتظاره ، فحيَّا وجلس وبدأ حديثه فقال :

« أى بنى ! تليماخوس ؟ أيها البطل وسليل البطل ! فيم شددت رحلك إلى هنا ؟ إلى رحاب ليسديمون[2] فى فلوات البر وسروات البحر ؟ ألِلأمر عام ، أم لشأن يخصك ويتعلق بشخصك؟ »

وأجاب تليماك : « مولاى الملك ! منلوس العظيم ! لقد جئت أتحسس خبراً عن أبى ، وأقبلت أُحَدِّثُ عن أعدائه الذين آوَوْا إلى بيته فما يريمون ، يستنزفون غلته ، ويهلكون حرثه ، ثم هم مع ذاك ينافس بعضهم بعضاً فى كبر وزهو وخيلاء ... من أجل زوجه ! يا للعار ! إنهم استباحوا كل شىء ... كل نَعَمه وكل شائه ، ولم يعَفُّوا آخر الأمر عن عرضه . إنى أستجيرك يا مولاى وأضرع إليك أن تخبرنى عما تعلم من أمر أبى ؟ هل قضى تحت أسوار إليوم؟ أم غالته يد المنون فى ركن آخر من أركان الأرض ؟ لقد كان خليلك وصفيك وآثر أصدقائك ، وأعز أوِدّائك عليك ، فبكل آلاء ذلك عندك أستحلفك أن تصدقنى ...

(١) الشعر لابن الرومى لم نجد أحسن منه فى ترجمة أبيات هومر .

(٢) من أسماء اسبرطه

ماذا تعرف من أخباره ، وماذا عسيت سمعت من أنبائه ؟ »

وتنفس الملك تنفسة عميقة وقال :

« يا أرباب الأولمب ! أبلغت حقارة نفوسهم أن يفضحوا أوديسيوس في عرضه ؟ ! ألا باءوا بما صنعوا ! ألا ما أشبههم بهذه الوعلة التي أجاءها المخاض فولدت في عرين الأسد ، فلما عاد الأسد إلى عرينه لم يبق عليها ولا على أغفارها[1] ! حنانيك يا آلهة ! زيوس ! مينرفا ! أپوللو[2] ! أين هو فيبطش بالجبارين كما بطش بفيلو ميليد العَتِي من قبل ؟ تالله لقد اقتربت ساعتهم وأزفت آرفتهم ... فطب نفساً يا بني ؛ إني منبيك بما علمته عن أبيك من (پروتيوس) راعي الأعماق ، وكاهن الأغوار .

ضلت بنا الفلك بما نسينا من التضحية باسم الآلهة ، فبلغنا شطئان مصر ، ورسونا عند جزيرة فاروس ، بحيث كان في مقدورنا أن نروى من كوثر هذه البلاد التي تجرى من تحتها الأنهار ، ثم لبثنا ثمة عشرين يوماً لا تجرى بنا ريح ، ولا يرفه عنا نسيم ، حتى نفد الصبر ، وفرغ الزاد ، وظننا أنه المعاد ، لولا أن رثت لنا إحدى عرائس البحر فبرزت إلينا ، وكانت لنا غوثاً أي غوث ، كنت أجلس وحدى في منعرج بأحد أطراف الجزيرة ، وكان بقية صحبي وأكثر الملاحين يرتادون الماء بشصوصهم[3] عسى أن يحصلوا على سمك طرى يكون غذاء لنا ، إذ برزت عروس الماء (إيدوتيا) الجميلة ، ابنة كاهن الأعماق پروتيوس ، وتهادت

---

(١) جمع غفر وهو ولد الوعل .

(٢) كان أپولو من خصوم اليونانيين في حرب طروادة ولذا يدهشنا هذا الدعاء .

(٣) الشص حديدة عقفاء يصاد بها السمك (السنارة) .

حتى كانت تلقانى ، ثم جلست بجانبى ، وحدثتنى فقالت : « أيها النازح الغريب ! أأكبر الظن أنك مذهوب بك ، أو أن بك مساً ، أو ان طائفاً من الجنون قد ألم بك ، أو أنك قد آثرت الشقاء السرمدى حيث لصقت بأرض هذه الجزيرة فما تنوى مصياً ، ولا تلتمس مخرجاً ، ولو هلك كل أصحابك ! »

ولم أبال أنى تدهشت ، فسألتها قائلاً : حسبك يا ربة ! إنى ما لصقت بأرض هذه الجزيرة بأمرى ، ولا أقمت فيها بمرضاتى ، بل كان ذلك قدراً على مقدوراً ؛ ولـكن خبّرى بحقك ، إذ الآلهة تعلم كل شيء — مَن مِنْ أرباب السماء يحبسنى هنا ؟ ... وهل مقدور لى أن أرتد إلى وطنى فوق غوارب هذا اليم المضطرب ؟ ... »

وقالت عروس الماء : « أيها النازح الغريب ! سأنبئك وأصدقك ! إنك الآن مقيم بشطئان مصر التى تقع تحت إشراف أبى ، پروتيوس ، سيد الأعماق ، ورب المياه المصرية ، والمتصل برعايا نبتيون فى أغوار هذا البحر ، فإذا استطعت أن تتغفله فتقبض عليه وتشد وثاقه ، فإنه يقفك على أبعاد هذا اليم ، والطريق السوى الذى ينتهي بك سالماً غانماً إلى بلادك ؛ بل ربما — إذا طلبت إليه ذلك — وقفك على كل ما حصل فى بيتك من خير أو شر خلال سفرتك الطويلة ، لأنى أعرف أنك صفى السماء وحبيب الآلهة » .

غير أنى لم أدر كيف تستطيع أيدى بنى الموتى أن تقبض على هذا الإله البحرى الـكريم ؛ ولم أُخف عليها ذلك ، بل حدثتها به ، وذكرت لها

أنه ربما ولى دبره إذا شعر منى بهذه المحاولة فلا أستطيع لقاءه بعدها أبداً .
بيد أنها طمأنتنى ، وذكرت أن أباها يخرج من الأعماق فى الظهيرة إلى جَوْنٍ قريب حيث يستلقى برهة وسط قطعان كثيفة من عجول البحر ، من ذرارى هاليسودنا الجميلة ، تأتى هى الأخرى فى أثره لتنام ثمة ... « فإذا كانت هذه الساعة فإنى سأقودك بنفسى إلى هناك ، وليكن معك من رجالك ثلاثة هم أشجعهم وأكثرهم قوة ، وسأدلكم على منعرج آمن تنتظرون به حتى يكون قد غلبه الكرى ، ثم تنقضون عليه فتكبلونه وتشدون وثاقه ، وإياكم أن يرهبكم بشىء أبداً ؛ إنه سيكون تارة سيلارابيا ، وتارة سيكون ناراً ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صفر ، وأخرى يكون أفعواناً هائلاً ينفث السم .. ولكن خذوه أخذاً شديداً ولا تقتلوه فتهلكوا .. فإنه إن آنس فيكم قوة عاد فانتفض إلى صورته الأولى التى رأيتموه عليها ، ثم ترونه بعد ذلك وقد أسلس قياده ، وهدأ ونطامن ... فإذا فعل ذلك سألكم عن حاجتكم ، ففكوا وثاقه وأطلقوا سراحه وسلوه ما شئتم ، فإنه مجيبكم عما تسألون . »

* * *

ثم غابت عروس البحر فى طيات الثبج ، وتركتنى فى حيرة مما ذكرت ، ثم إنى عدت إلى قمرتى فى السفينة ، وعاد كل إلى قمرته ، وبعد أن تعشينا ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، نمنا نوماً لا آمناً ولا قريراً ... وبزغت أورورا عوه المشرق بأصباغ الورد ، فنهضت أصلى للآلهة فوق السِّيف الممتد ، وأبتهل إلى السماء أن توفقنا لما فيه خيرنا ، ثم انثنيت

فتخيرت من رجالى ثلاثة هم أصلحهم لهذا الأمر ، وهم موضع ثقتى ومعقد رجائى . وبرزت من الماء عروس الماء ، وأحضرت لنا أربعة من جلود عجول البحر لنلبسها ، ونستخفى بها ، ولتتم الخدعة على أبيها . وأعدت لنا مهاداً فى رمل الشاطئ . ثم دلفنا نحوها ، ونام كل فى مهده ، وألقت فوقنا ما معها من الجلود المنتنة التى أَرْوَحَتْ حتى كدنا نختنق برائحتها ، لولا أن نثرت العروس فوقنا طيباً عبقاً ملأ حياشيمنا وأنقذنا من صلول[١] تلك الجلود .

وتلبثنا نرقب اليمّ حتى برزت عجول البحر فنامت فى الجون ، ثم كانت الظهيرة فبرز پروتيوس وطفق يعد قطعانه . مبتدئاً ، لغفلته ، بنا ، وكأن أثارة من الشك لم تخامره فى حالنا ، فانطرح ونام . وانتهزنا الفرصة ، فانطلقنا نعدو إليه ، وقبضنا عليه ، وشددنا وثاقه بحيث لا يستطيع إفلاتاً ... يا عجباً ! لقد انتفض انتفاضة هائلة ، فإذا هو أسد غضنفر ذو لبدة ، ثم انتفض فإذا هو أفعوان أرقم يتحوى ويتحوى ، ثم انتفض فصار نمراً رائعاً ذا أنياب ، ثم صار خنزيراً برياً ، فسيلا رابياً ذا عباب ، فأيكة باسقة ذات غصون وأفنان ! ولما لم يجد بداً من أن يبدو لنا على حقيقته ، انتفض فكان على صورته الأولى ، ثم قال : « عَمْرَكَ الله يا ابن أتريوس أى إله جبار حبسك فى مياهنا وسلطك علىّ ، تمسك بى وتشد وثاقى ؟ ماذا تريد ؟ » فقلت له : « حسبك يا رب هذا البحر ، إنك كنت بى عليما ! لقد طال مقامنا بهذه الجزيرة ، ولست أدرى أى

(١) أروح اللحم صار نتناً وصلوله رائحته المنتنة .

إله عادل حبسنا فيها ، ولأى شىء ؟ ! » . وقال پروتيوس : « ويك يا منلوس ! لم لم تُصلِّ لسيد الأولمب ثم تُضحِّ للآلهة يوم غادرت طروادة ؟ لقد غضب الجميع فكتبوا أن تضل فى تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر ، فتقيم ثمة حتى يثوب إليك رشدك وتصلى للآلهة خاشعاً خابتاً متصدعاً ، ثم تذبح القرابين وتجزر الأضحيات فتعود إلى أوطانك ! » وعرانى مما ذكر ما عرانى ، فقلت له : « الحمد لك أيها الإله القدوس ... سأفعل ، سأفعل كل ما تأمرنى به ، ولكن قل لى بحق ربوبيتك ، هل وصل كل رجالنا إلى أوطانهم سالمين كما تركتهم أنا وصاحبى نسطور عند طروادة أم أن منهم من غرق أو قتل أو مات حتف أنفه »

وكأنما ضاق بى ، ولكنه قال : « ويك يا ابن أتريوس ما هذه الأسئلة ! أتبتغى أن تقف على كل أسرارى ؟ إذن فاعلم أن أكثر رجالك قد عادوا سالمين إلى أوطانهم ، وأن قليلا منهم من مات ، ومن هؤلاء قائدان فقط قد قضيا ، ولا يزال واحد يذرع رحب هذا البحر ، ضالا على غير هدى ! ... لقد هلك أجاكس بما تحدى الآلهة ، وبما ادعى أنه ناج برغم السماء من البحر اللجى الذى كان يناوح سفينته ، فبرز نيتيون غاضباً وشطر السفينة نصفين بضربة قاضية ، من رمحه السمهرى ذى الثلاث شعب ، ثم رطم حطامها بعد ذلك فوق صخرة موحشة ... مسكين أجاكس لقد غص بالأجاج ، وشرق بقطرات فمات ! ...

أما أحولث[1] فقد نجا ! لقد دهمته موجة هائلة فوق شاطئ (ماليا) .. أرض ذيستيس وإيجستوس ... ومن ثمة ركب البحر إلى وطنه آمناً . ألا كم كان أحولث رائماً حين وطيء أرض الوطن فراح يقبل رمالها ويناجي كثبانها ! ألا ليته ما نجا ! لقد لمحه أحد الأوغاد من جواسيس إيجستوس فانطلق يخبر سيده الذى أعد كميناً من عشرين رجلا من أفسق رجاله فاغتالوه كما يذبح العجل ؟ الأوشاب الفجرة ! لقد باءوا بما صنعوا ، وأبيدوا على بكرة أبيهم ... »

ولم يكد يصعقنى هذا الخبر حتى خذلتنى رجلاى ، وانطرحت أتقلب فى الرمال من الغم ، وذَرَفْتُ الدمع من الحرقة على أخي . ولكنه خاطبنى قائلا : « انهض يا ابن أتريوس . إنك تبكى ولات حين بكاء . هلم عد إلى وطنك لترى بعينيك قبره ولتشهد ابنه العظيم أورست ينتقم له ، ويستأصل شأفة قاتليه . »

وكأنما سرى عنى بما قال بعد ، فنهضت وسألته بعد أن شكرته على ما أنبأنى : « ... إذن من هذا البطل الثالث الذى ما يفتأ يذرع البحر ضالا فى رحابه ؟ »

فقال : « ذاك ابن ليرتيس ، وسيد إيثاكا (أوديسيوس) ! لقد شهدته بعينى حبيساً فى جزيرة عروس الماء كاليبسو .. لقد حل عليها ضيفاً برغمه ، فلقد تحطمت سفائنه ، وهويته عروس الماء ، وهو لا يزال عندها لا يجد مركباً يحمله إلى وطنه .. أما أنت .. أيها الملك منلوس ،

---

(١) أجاممنون

«طوبى لك ! إنك ستحيا سعيداً ، ثم تنتقل إلى دار الخلد ونعيم لا يفنى ... جنات الإليزيوم ... حيث لا برد ولا زمهرير ، ولا يوم عبوس قمطرير ، بل تسقى ، ومن معك من الأناسى من ماء معين ، لا لغو فيه ولا تأثيم ... مقام كريم وجنة نعيم ، وغادتك الحُسّان هيلين ، يا ذرية زيوس العظيم ! »

ثم غاص فى اليم ، وعدت ورجالى إلى الفلك ، وفى القلب لوعة ، وبالنفس أسى . وتبلَّغ كلٌ بلقيمات ثم أسلمنا عيوننا للكرى ، وكأنما نام أسطولنا فى ظلام الشاطئ .

* * *

وانبلجت أورورا فنضرت بالورد جبين المشرق ، وهبت أنفاس الصباح المنداة فأهرعنا جميعاً ، وجزرنا الأضاحى باسم الآلهة ، وصلينا لها جاثين ، وأقمت لأخى رمساً فوق ثرى مصر الخالدة ، ثم هبت الريح رخاء فنشرنا الشراع وأصلحنا القلوع ، وأقلعنا من فورنا إلى أرض الوطن ، فبلغنا هيلاس سالمين .

وبعد ! فلتقم معنا ههنا أياماً تمرح وتفرح ، ونسعد نحن بك يا ابن أعز الأصدقاء ، ثم لنعد لك الهدايا والملاهى التى تليق بك ، ولتعد إلى وطنك على عربة فاخرة تجرها ثلاثة من الصافنات الجياد ؛ ولنزودك بكأس ذهبية تصب منها قرابين الخمر للآلهة فتذكرنا أبداً »

وشكر تليماك واعتذر ، وأبدى من الحنين إلى وطنه ، وما عليه من واجبات ، وما ينبغى من عودة ابن ملك بيلوس ، ما برر عنده أن

يستأذن فى الأوبة ... فأعذره ملك أسبرطة ، وأهدى إليه كأس فيديوس الفضية ، ذات الشفة الذهبية ، الكأس الخالدة التى صنعها الإله فلكان بيديه ليمنح بها ملك سيدونيا .

وهيأ النُدل مقصفاً فاخراً به جَزُور وخمر ، وأقبلت أرواجهن يحملن الخبز ، فأكل الملك ومن معه ورَوَوْا .

* * *

هذا ما كان من أمر تليماك ومنلوس .

أما ما كان من أمر العشاق آنئذ ، فقد كانوا يعبثون ويمرحون فى بيت ملك إيثاكا ، يلاعبون الأسنة ، ويقذفون القرص ، ويتصارعون ويمزحون . كانوا جميعاً يأخذون فى هذا اللهو لتزجية الوقت ، إلا أنتينوس ويوريماك ، فقد جلسا بمعزل يتحادثان . إذ أقبل الفتى نومون ابن فرنيوس وقد تغضن جبينه ، وانتشرت على أساريره سحابة كئيبة فقال :

« أرأيتَ إذ أعطيت سفينتى للفتى تليماك فإنى أريد أن أبحر إلى إيليس لأرعى أفراساً لى اثنتى عشرة لا تزال ترضع أفلاءها[1] ؛ متى يرجع من پليوس يا أنتينوس ؟ »

ورُوِّع الرجلان لهذا الخبر ، فلم يكن أحد يعلم أن تليماك قد غادر إيثاكا ، بل كانوا يظنونه يجتر آلامه وأحزانه فى أحد الأدغال النامية فى مزارعه . قال أنتينوس :

« أحقاً أنه أبحر يانومون ؟ وهل صحبه أحد من ذويه ؟ وعلى سفينتك ؟

(١) الفلو ولد الفرس لم يبلغ عاما .

سفينتك أنت ؟ وهل أبحر عليها بدون إذن منك ، أم أنت الذى أذنت له بها أول ما طلبها منك ؟ »

وأجابه نومون : « بل أبحر عليها بإذني . وماذا عساك كنت صانعاً لو سألك أمير فى مثل بأسائه أن يبحر على سفينتك ؟ أكنت ترفض وتتأبى ؟ لقد أبحرت معه ثلة من أشجع البحارين ، كلهم فينان العود ، غريض الشباب ، وقد رأيت معه أمير البحر منطور . ألا كم كان يبدو منطور بهيا وقوراً رائعا ! تالله لقد خلته — بل أكبر ظنى أنه — أحد الآلهة ! وكيف لا يكون إلهاً وقد رأيته بعينىّ هاتين صباح أمس وهو قد أبحر إلى بيلوس قبيل ذلك ، فأنّى عاد ؟ »

وفرغ نومون ، وعاد أدراجه إلى دار أبيه ، واستولى الذهول على الرجلين ، وكان العشاق قد فرغوا مما أخذوا فيه من لهو ولعب ، وجلسوا يستريحون من التعب ، فيمم شطرهم أنتينوس ، وهو يتميز من الغيظ ، وينقدح الشرر من مقلتيه ، فقال :

« يا أرباب السماء ! أفيقوا أيها الرفاق ! عمل باهر ! باهر جداً ! لقد أبحر الفتى تلماك فى عصبة من شباب الملاحين ليؤلب عليكم العالمين ، ويرسل علينا حسبانا ! الويل له ! أعدوا لى مركباً وعشرين فارساً من أبسل صناديدكم لألجأ بين أواذىّ ساموس وتُنُوء إيثاكا ، التاعس الذى ذهب يستروح أخبار أبيه ليسعى إلى حتفه بظلمه » .

وتحمّس الملأ وعلا هتافهم ، وهرولوا إلى الرحبة الداخلية فى بيت أوديسيوس يتآمرون ، وكان على مقربة منهم الأمين ميدون ، الذى

انطلق بدوره ينقل ما عقدوا خناصرهم عليه من إفك إلى الملكة الباكية المفئودة .. بنلوب — وما كاد يقص عليها ما اعترموه من قتل تليماك حتى تصعضعت وتخاذلت ومادت من تحتها الأرض ، وتحبّست أنفاسها هنيهة ، ثم سألت ميدون فيم أبحر ولدها . « ألكي ينقرض اسمه من صفحة الوجود ؟ » وأجابها الرجل : إنه ذهب يتسمّع الأنباء عن أبيه . ثم ذهب لطيّته ، وجلسَت الملكة المرَزّأة لدى الوصيد تبكي وتنتحب ، ومن حولها الغيد الرعابيب والعجوز الشمطاء من خادمات القصر ، يُعولن ويكفكفن

قالت الملكة : « ويح لي أيها العذارى ! أبداً ما أحسبُ واحدة من النساء قد لقيت بعض الذى لقيت مما كتبته عليّ السماء ! لقد فقدت زوجي ، أسد هيلاس ، الكريم أوديسيوس ، الأمير الحُلاحل ، رجل الفضائل والمروءات ؛ ثم لم يبق إلا أن يرحل عني ولدي ... دون أن أعلم أمر رحيله من إحداكن ، فكنت أحول بينه وبين ما اعتزم ولو أدّيت ثمنا لذلك روحي ! ولكن .. هيا .. لتمض دليون — خادمتي الوفية ذات التجاريب — إلى ليرتيس — ولتحدثه عما تآمر الذئاب . وَيْ ! لم يبق إلا أن يقتلوا ولدي وسليل أوديسيوس ! » .

ونهضت يوريكليا مرضع تليماك ، تنثر دموعها وتقول :

« واأسفاه عليّ أيتها الملكة ! سأعترف بما كان ولك أن تَقْتُليني .. أو تبقي عليّ ! لقد زودت الأمير بكل ما أمر من زاد وخمر ، وأخذ على موثقاً ألا أبوح بسره حتى تمضي إثنا عشر يوماً بتمامها ... حتى أنت

يامولاتى! لقد أمرنى ألا أعلمك بشىء ، فاهدئى يامولاتى ولا تضاعفى أحزان القصر بحزن جديد ، وامضى إلى مخدعك فاستريحى ثمة ، ولنصلِّ جميعاً لربة العدالة مينرفا — پاللا الطيبة — أن تصون مولاى الأمير وترعاه ، وتكلأه من كل خطر وليعد إلى عرش آبائه ليحكم ويعدل ويدبّر شؤون البلاد .

ورقأ الدمع فى عيون الحاشية ، ونهضت پنلوپ فصعدت إلى الطابق العلوى ، وأمرت بسلة من الكعك فنفحت بها العذارى قرباناً لمينرفا وتقدمة ، ثم أرسلت هذه الصلاة :

« إسمعى يا ابنة سيد الاولمپ ! يا مينرفا العادلة ! باسم ما ذبح لك أوديسيوس فى هذا القصر وما ضحى نضرع إليك ونتوسل بك ونصلى لك ، أن تصونى ابنه الأمير وأن ترسلى عبوسة من شواظ غضبك على أعدائه .. أولئك الأضياف الظالمين ... آمين » .

وانهمرت الدموع من عينى الملكة فاستجابت مينرفا صلاتها . ثم علا ضجيج القوم وارتفع صخبهم ، وكان فيهم شاب نزق التاثت فى أذنيه صلاة پنلوب فحسبها أشرفت تناغى وتغازل ، فراح يعرض بها فى كلمات قوارص ، قطعها عليه أنتينوس بتحذيره القوم ، ونصيحته لهم أن يستعينوا على حزم أمرهم بالكتمان .

وتخير أنتينوس عشرين من خيرة رجاله ، ويمم بهم شطر البحر ، ثم ركبوا فى سفينة أعدت لما اعتزموه من تلصص وقرصنةٍ وفتكٍ إعداداً كافياً فنقلت إليها الأسلحة ، وحملت إليها أحمال الزاد والدخيرة ...

وأقلعت ، لا باسم الآلهة مجراها . . ولا سلكت سبيل الرشاد .

* * *

واضطجعت بنلوب فى فراش حَشْوه فكر وهم ، وجاشت فى قلبها الوساوس ، وطفقت الأوهام تفتك برأسها القلِق الحيران بسبب ولدها ، وما دبر له الكلاب وما كادوا . مسكين أيها الأسد ! لولا قوتك وجبروتك ما أكثر صائدوك حولك الأحابيل .

وأخذتها سنة من النوم ، فأقبلت مينرفا الكريمة فى رؤيا عجيبة تواسيها وتذهب عنها طائف الحَزَن ، فتزيّت بزى الأميرة المفتان ، إفتيما ، ابنة البطل الكبير إيكاريوس ، ثم وقفت عند رأسها ، وشرعت ترسل هذه الأحلام :

أهكذا تنامين ملء عينيك الجميلتين يابنلوب العزيزة ؟ ليفرخْ روعك ، وليصف بالك ، فالسماء ترعى ولدك ، وهو عائد إليك عما قريب ! إنه لم يقترف شيئاً مما يغضب الآلهة ، ولذا فهى تكلؤه وترعاه وتحفظه ، فقرى عيناً واسلمى وانعمى ! » .

وتقول بنلوب إذ هى تحلم :

« من ؟ إفتيما ؟ عجباً ! فيم قدمت يا أختاه وقد ندر ما كنت تلمين بهذا القصر ؟ ألتواسينى وتسليني ؟ لقد تكاثرت الأحزان على قلبى ، وتكسرت النصال على النصال ... لقد فقدت زوجي ... أسد هيلاس وفخر آرجوس ، وعزى الأبدى ! ثم ها أناذى انتفض فرقاً على ولدى ... ولدى الطرى الفينان ، الذى لا قدرة له ولا احتمال ... فى هذا البحر

اللجى ... لقد أقلعت به سفينة كأنها تسبح فى بحر من دمى وأحزانى ! وها قد تعقبه الأشرار فى سفينة أخرى يريدون غيلته قبل أن يرتد إلى وطنه ! » .

وتجيبها مينرفا : « لا عليك ياملكة ، ولا عليه هو الآخر ! إن معه راعياً يحفظه ويوقيه ... راعياً يتمنى الجميع أن يكونوا فى رعايته أبداً ... مينرفا ! إنها أيضاً تبشرك وترفه عنك ، وأنا هنا رسولها إليك ، أقبلت بأمرها أواسيك ! »

وهلعت بنلوب ثم قالت : « وَىْ ! أما إنك إذن لرَبة وقد كلمتك الأرباب ... ألا قصى علىّ إذن ما كان من أمر رجُلى ؛ ألا يزال حياً يرزق ؟ أم تخطفته يد المنون ؟ »

وتضاحك الشبح العابس فقال : « لا ! ليس الآن ؟ ان أذكر لك إذا كان رجلك لا يزال حياً أو إنه قد قضى ، مالنا ولذلك ؟ »

ثم رفت فى ظلام الغرفة ، وصعدت فى سماء الأحلام .

ونهضت الأم وقد سرى عنها بهذا الحلم ، وانجاب كابوس الهم الذى كان يجثم على قلبها .

* * *

وأقلع العشاق بفلكهم فى اليم المضطرب ، كل تحدثه نفسه بمقتل تليماخوس ، حتى كانوا عند برزخ أستريس ، بين ساموس وإيثاكا ... فأرسوا ثمة يتربصون .

أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليبسو

هبت أورورا من فراش زوجها الدافئ الحبيب (تيتون) فنشرت في المشرقين غلالة سنية من فيض ضوئها ، بينما كان مجلس الآلهة منعقداً في ذروة أولمب ، وقد استوى زيوس على عرشـــه ، ومينرفا ... ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، قائمة بين يديه ، تحصى آلام أوديسيوس ، وتبث أشجانه وتصور للآلهة صنوف العذاب التي يتجرع غصصها وحده في هذه الجزيرة النائية السحيقة ، فتقول :

« أبتاه ! ياسيد أرباب أولمب ! جوفٍ ! إصغ إلى ! وأنتم يا آلهة الخلود ! أعيروني انتباهة واحـدة منكم ، فإنها حسبي ! إلى أين تصير الأمور إذن ؟ ها كم قد أصبح أمر الناس فوضى ... والطغاة يعيشون في الأرض مفسـدين ، وكأنما أغمضتم أعينكم عن خيارهم ، ولم يضركم ألا تكفوا أشرارهم ، فنسيتم الرجل الصالح أوديسيوس الذي طالما منحكم محبته ، والذي بذل لشعبه مهجته ... يثوى اليوم في تلك الجزيرة الموحشة يجتر همومه ، ويبعثر في صفحة السراب آماله ، ... كلاً على كاليبسو عروس الماء .. لا يملك سفينة فيقلع إلى الوطن ، ولا يجد قلباً إلى جانبه فيبثه حزنه ويشتكي إليه لأواءه ... وكأنما لم يكن بحسبه بعض ذلك ، بل تسلط عليه الأقدار القاسية عصبة من الأعداء الألداء يتربصون بابنه الشر ، ويبتوون غيلته ، إذ هو عائد من أقصى الأرض . من أسبرطة وبيلوس بعد رحلة منهكة باكية ، قام بها يتنسم خبراً عن أبيه ، يشفي في قلبه غلة ، ويبرئ في نفسه كلوماً »

ويجيبها رب السحاب الثقال :

« أية كلمة هائلة انفرجت عنها شفتاك يا ابنتى ؟ ألست تتشوفين إلى عودة أوديسيوس سالماً آمناً فيبطش بكل أعدائه ؟ إطمئنى إذن ، ولتحرسى ولده تليماخوس حتى يصل سالماً آمنا هو الآخر إلى أرض الوطن ، وليَبُؤ أعداؤه بالفشل »

ثم توجه بالخطاب إلى ولده هرمز ، رسول الآلهة ، فقال :

« هرمز ! هلم يا بنى إلى عروس الماء الشقراء كاليبسو برسالاتى ؟ مرها أن ترسل أوديسيوس على رمث[1] وحده ، لا أنيس له من إنس ولا آلهة ، فليلق الأهوال الطوال حتى يصل إلى شيريه أرض الفيشيين ، ملوك البحار وأصهار الآلهة ، فليزودوه بسفينة وزاد وذخيرة من أحمال من ذهب وديباج ، وبكل ما تشتهى نفسه مما يفوق نصيبه الذى حصل عليه من أسلاب إليوم ، لو عاد به غير منقوص إلى أرض الوطن ، ثم ليبحر سالماً إلى إيثاكا ... بذا قضت المقادير أن يؤوب ... وأن يستعيد سلطانه وصولجانه ، وملكه وإيوانه ؛ ويلقى بعد طول النأى خلانه » .

وأصلح رسول الآلهة الأمين ، هرمز ، نعليه الذهبيتين ، نخفتا به كالريح فوق السحاب وفى يمناه عصاه السحرية العجيبة التى إن شاء داعب بها الجفون فأغفت ، وإن شاء ردها إلى الصحو واليقظة ، وما فتئ يرف بين السماء والماء ، ويدوّم فى ذاك الفضاء كالغرنوق[2] الذى يتواثب على أعراف الموج يصيد ما يقتات به ، حتى كان فوق تلك الجزيرة

(١) خشب يضم إلى بعضه ويركب فى البحر Raft

(٢) نورن طنبور وبوزن فردوس طائر مائى (الغطاس) .

المنعزلة عن جميع العالم . ثم ما برح يُرنّقُ هنا ويرنق هناك حتى اهتدى إلى ذلك الكهف السحيق الذى تأوى إليه عروس الماء الشقراء ذات الشعر الكهرماني وقد جلست ثمة تغرد وتغنى وتعمل دائبة فى منسج أمامها ، ويداها تتلقفان الوشيعة[1] الذهبية كما يخطف البرق ! والنار تتأجج فى الموقد بقربها وتتوهج ، وجمر الأرز والصندل يعبق ويتأرج ، ويملأ نَشْرُه أركان الجزيرة وفجاجها .. وقد بسقت أشجار الحور والسنديان عند مدخل الكهف فغشّته بظلال رائعة ، وظلمة رهيبة ؛ وصنعت جوارح الطير أوكاراً لها فى الدوح الذاهب فى السماء ، ووَكَنَت[2] الحدأة بيضها ، وقر الغداف[3] جنب صغاره ، وطفقت البومة ترسل فى الآفاق صفيرها ، وتناثرت فوق الشاطئ أفاحيص الطير من كل نوع ؛ وامتدت الكروم عن يمين الكهف وعن شماله مثقلة بالعناقيد ذوات السُّكر ؛ وتدفقت جداول أربعة عن عيون كوثرية تسقى السندس الجميل المنضر بأفواف الورد والبنفسج ... منظر عجب ، وأى منظر عجب يبعث البهجة والانشراح حتى فى قلوب سكان السماء !

ووقف هرمز يمتع ناظريه بسحر هذه الجنة ثم دلف إلى الكهف ، ولم يكن يسيراً على عروس الماء أن تعرف من هو ، وأى إله خالد طرق بابها ، ولو أنها هى أيضاً فرد من أسرة الخالدين ... ذلك لأن سكان السماء يكونون مثلنا أحياناً ، لا يعرف أحدهم جميع الآخرين ، لبعد الشقة ، ونأى الدار ، وانقطاع المزار ... ، ... وأرسل عينيه فى كل شق من

(١) المكوك .

(٢) رقدت عليه .

(٣) الغداف بضم الغين غراب القيظ .

شقوق الـكهف ، بيد أنه لم يقف لأوديسيوس على أثر ... فانثنى ، ويمم نحو الشاطئ واستوى على صخر عظيم نائى ، وشرع ينثر من عينيه الدموع الغوالى ، يطفئ بها فى القلب سعيراً سرمدياً يلازمه أبد الدهر ... وكأنما عرفت كاليسو من هذه الآية أنه هرمز ، فراحت تسائله ، إذ هى مستوية على عرشها الممرد العظيم :

« هرمز ! يا صاحب العصا السحرية ، يا من طالما أحببته وبجلته ، حدثنى فيم أقبلت ، وقد ندر ما قدمت إلى هنا . هلم فقل . سل حاجتك فسأقضيها إن تمكن فى وسعى ... ولـكن هلم أولا ولتؤد لك مراسم القِرى وواجبات الضيافة ... هلم ! »

ومدت عروس الماء سماطاً حافلا بأشهى ألوان الطعام وصنوف الشراب ، وأقبل هرمز فاغتذى وروى من هذه المائدة القدسية ، ثم توجه بالـكلام فقال : « أتسألين أيتها الربة فيم أقدمت ! ألا فاعلمى أننى ما أقدمت عن أمرى ، لـكنه أبى ، سيد الأولمب وكبير الآلهة ، هو الذى أرسلنى . إذ أية حاجة لإله فى هذه القطعة المنعزلة من الأرض ، يحيط بها الملح من كل مكان حيث لا عباد ولا خلق يؤتون الزكاة ، ويقيمون الصلاة ، ولا أثر لعبادة زيوس العظيم ! إنه جل جلاله ، يقول إنك تحتجزين هنا أتعس مخلوقاته ، البطل الـكبير الذى نزح عن بلاده إلى إليوم فقضي ثمة تسع سنين ثم أبحر عنها بعد سقوطها فى العاشرة مع محاربى هيلاس الذين تمزقوا فى البحر شذر مذر ، فمنهم من غرق ومنهم من قتل ، ومنهم من وصل إلى بلاده ... إلا إياه ... فقد هلك كل رجاله ، وقذفه

البحر فوق جزيرتك المائية ... جوف يأمرك أن ترديه ، وفى كتاب المقادير أنه لا يهلك هنا ... بل يعود إلى بلاده ويلقى فيها آله » .

وزُلزلت كاليسو زلزالا وقالت تجيبه : « ها ... الظلم والحسد ... دائماً ... هذا دأبكم يا آلهة ... كم تأكل قلوبكم الغيْرة كلما ضمت ربة إلى ذراعيها أحد بنى الموتى ! وهل نسيتم يوم ترتم عند ما علقت ديانا ذات الأصابع الوردية هذا الفتى الجميل أوريون ، وكيف دبت الغيرة فى قلب أپوللو فـكر هذا المـكر السيئ ، ودبر قتل الفتى بيدى حبيبته ديانا ! ؟[1] هل نسيتم أيضا كيف أرسل أبوكم جوف إحدى صواعقه على أياسيون المسكين لأن سيرس ربة الربيع قد هويته وأخذته بين ذراعيها حين شغفها حبا ؟ ! كذلك أنتم معى اليوم ، وكذلك أنتم غيورون دائما ، فما أقساكم إذ تنفسون علىّ حبيبى ؟ ! لقد أنقذته بمسعى من هذا اليم الذى التقم سفينته بمن فيها حين شطرها أبوكم بسهمه فى عبثة من عبثاته ! حبيبى الذى أهواه من أعماق وأفتديه بروحى ، والذى أمهد له حياة الخلود ... ولـكن ... وا أسفاه ! كيف أطرده من عندى ؟ ويحى ! إن تـكن هذه مشيئة زيوس فلأحدثنّ أوديسيوس ليرى لنفسه ، إذ ليس عندى مركب يأمن فيه غائلة هـذا البحر المضطرب ، وإلى ناصحة له ، .. »

---

(١) تراجم الأوديسة التى بأيدينا مبهمة فى الـكلام عن هذه الأسطورة لذلك اضطررنا أن نتصرف قليلا اعتماداً على شرح الأستاذ جرير — وخلاصتها أن أپوللو علم بما بين أخته ديانا وأوريون من عشق فاستدرج ديانا وأخذ يباريها فى الرماية — وكان أوريون يستحم فى البحر فجعلها تصوب سهمها إلى رأسه وهى لا تدرى فقتلته .

وكلمها هرمز فأنذرها من عضبة سيد الأولمب وحضها أن تعمل على إبحار البطل .

* * *

ورفّ هرمز الرسول فى لازورد السماء ، وانطلقت عروس الماء تبحث فى الجزيرة عن أوديسيوس ، حتى لقيته فوق صخرة ساهماً واجماً ، تفرى قَلْبَه الهواجس ، ويعبث به محال الأمانى ، وقد انهمرت فوق خديه عَبرات حِرار ، واللحظات تذبل فتسقط من حياته فى ظلام اليأس كأوراق الخريف ، وقد ملّ هذا المقام الطويل البائس فى جوار عروس الماء التى كانت تخلع عليه حبها البارد ، وتقسره على أن يقضى لياليه بجانبها على فراش واحد فى ذلك الكهف السحيق . . وكلما فكر فى وطنه ، ونظر إلى الموج المتواثب فى أفق اليم ، وعرف أن لا قدرة له عليه ... بكى وأنّ ، وتوجّع وتصدّع ، وأرسل فى لا نهاية الماء والسماء آهات وآهات ... » .

واقتربت منه عروس الماء فى رفق وَحَدَب ، وقالت له :

« أيها التعس لا تنتحب هكذا ، ولا تصهر حياتك الغالية فى تنور من الآلام ، هلم ... هيا إلى عمل مجيد .. أمامك الدوح العظيم والأيك الذاهب فاقطع منه ما شئت واصنع لنفسك رَمَثاً يحملك فوق هذا العباب المتلاطم . وسأزَوّدك بكل ما يكفيك من طعام وشراب ؛ وسأمدك بأثواب جديدة تقيك الحر والبرد ، وسأسخر لك الريح تُهَدْهِدُك إلى بلدك البعيد ... هذا قضاء من آلهة السماء التى تقدر فتعدل ، وتقضي فلا يرد لها قضاء ... »

وتفزّع أوديسيوس لهذه المفاجأة ثم قال : « أوه يا عروس ! بل فى الأمر سر تحاولين إخفاءه عنى .. أى رَمَث يحملنى فى ذلك البحر اللجى وأى ريح تُسَخِّرين من أجلى ؟ وإن السفينة العظيمة لتمخر عبابه وهى لا تدرى أتسلم أم يكون أهلها من المغرقين ؟ لا ... لن أفعل حتى تعطينى موثقك ، وحتى تقسمى القسم العظيم ، أنك لا تبطنين لى شراً ولا أذى ! » .

وتبسمت الربة الهيفاء ، وراحت تربت على خديه وهى تقول :

« ويحك ! كيف تسىء بي الظن يا أوديسيوس ؟ أية حجة تملأ بها يديك على ما قلت ؟ ولكن اصغ إلى ... أقسم لك بقسم الآلهة فى الأرض والسماء والدار الآخرة ... بالقسم العظيم الذى يقشعر لذكره كل شىء ... إنى لم أضمر لك فيما عرضت عليك شراً ولا أذى ... إن الذى تبكى من أجله ، أبكى أنا أضعافَ ما تبكي من مثله ، فلقد كنت ضرورة من ضرورات حياتى هنا ، ولقد عَلِقَ بك قلبى ، وهامت بحبك نفسى ، وليس قلبى من صخر فيحتمل البعد عنك بَلْه الإضرار بك » .

وانطلقا سويا إلى الكهف ، وجلس أوديسيوس فوق المتكأ الذى كان يجلس عليه هرمز منذ هنيهة ، ثم أقبل جوارى الماء يحملن شيئاً كثيراً من اللحم والشراب فأكلا ورَوِيا ؛ ثم شرعت كاليبسو تحدثه وتقول :

أهكذا يا ابن ليرتيس العليم ، أيها الحكيم الصناع ، لا تفتأ تحن إلى وطنك وتعتزم الرحيل إليه ؛ أنا عذيرك يا أوديسيوس ... فوداعاً !

ولـكن هل فـكرت أيها الرجل فى الأهوال الجسام التى تخرط قتادها قبل أن تصل إلى بلادك ؟ أليس خيراً لك أن تظل إلى جانبى ، وتقاسمنى كبرى ، فتصبح من الخالدين .. وتنسى هذا الجمال الفانى الذى لا ينفك يصبيك و يسبيك ، والذى أحسب جمالى وفتنتى لا يقلان عنه سحراً إن لم يز يدا عليه فتوناً ؟ ! »

فيجيبها أوديسيوس الحـكيم . أيتها الر بة المخوفة ! هوِّنى من حفيظتك! فأنا أعلم أن پنلو بى العزيزة لا تزن من جمالك وفتونك مثقالا ، لأنها هالـكة ، ولأنك من الخالدين . بيد أن الذى يصبينى هو وطنى ... وطنى الحبيب الذى أحن إليه وأهيم به ، وفى سبيل العودة إليه لن يخيفنى هذا اللج المتلاطم ، فلقد بلوت الأعاصير فى البر والبحر ؛ فى خبار المعمعة ؛ وفى الفلك تحت كلـكل الزو بعة ... إلىّ ، إلىّ يا خطوب ، وأقدمى بكل حولك يا رزايا ... »

* * *

وتوارت الشمس بالحجاب ، وأرخى الليل سدوله فوق الجزيرة ، ونامت الر بة فى سر يرها الوثير ، و بين ذراعيها حبيبها تشمه وتضمه ، وتحسه وتلثمه ... حتى إذا نضّرت بالورد أورورا جبين المشرق ، هب الإلفان وتدثرا ؛ هذا بثو به الخشن ، وتلك بشفوفها الرقيقة الثلجية الناصعة ، التى كأنما نسجت من نسمات الصباح العطرى ، وراحت تخطر فينانة ر يانة ، وقد اتشحت حول وسطها النحيل بقرطق[1] جميل ، وألقت على رأسها بخمار صفيق رقيق ؛ وقدمت إليه فأساً ذات حدين أحدهما كالساطور ، ركبت

---

(١) القرطق بضم القاف وفتح الطاء ثوب يشتمل به .

فيها يد من حشب الزيتون المتين ، ثم إرميلا حاداً مرهفاً . وسارت بين يديه حتى كانا عند غابة عظيمة مُخْرِف ، لاحبة شاحبة ، بسقت فيها أشجار الحور والسنديان والشربين[1] ، وتركته ثمة ، وعادت أدراجها إلى كهفها ...

ولم يهدأ للبطل المسكين بال ، بل شرع من فوره يقطع كل أيكة عظيمة حتى اجتث عشرين من أكبر دوح الغابة . . ثم أقبلت كاليبسو وقد حملت إليه آلات ساعدته على تشذيب الشجر ، واستطاع بعد لأى أن يضم بعض الجذوع إلى بعض ثم كلبها بكلابات كبار ، وأقام في وسط الرمث له ولما يحمل مكاناً أميناً ، كأحسن ما يصنع السماكون .. ودعم ذلك جميعاً بألواح ودُسر ، وصنع قلعاً وجعل في القلع شراعاً ، ثم سوى السكان مكانه ، وجعل في الباطن صبارة[2] كبيرة تقي الرمث الانقلاب ، ولم ينس أن يجدل جوانبه بفروع وأغصان تزيد في قوته وتضاعف من مُنّتِه . وأتم صنع مركبه في أربعة أيام ، وأنزله إلى البحر في الخامس ؛ ثم أدخلته عروس الماء حمامها فغسلته وضمخته بالطيوب والعطور ، وخلعت عليه من ديباج ثمين ، وزودته بزقين من خمر وماء ، وأمدته بشيء كثير من طعام وأثواب .

وودع عروس الماء المحزونة ؛ وجلس عند السكان ، ثم دفع الرمث في البحر ، وابتعد رويداً رويداً .

---

(١) Fir ولم نجد لهذه اللفظة أثراً في اللسان والقاموس .

(٢) أو صبرة قطعة حجر كبيرة يتزن بها المركب في البحر وتسمى في مصر (صابورة) .

وكان قلبه يفيض بالبشر ، وصدره يمتلىء بالانشراح ... وظل يجرى به الفلك الصغير سبعة عشر يوماً ، وعيناه فى كل ليلى ما تريمان عن الثريا فى علياء السماء ، وما تفتران تنظران إلى نجوم الدب الأكبر التى تقف للجبار[١] بالمرصاد ، كما علمته عروس الماء قبل أن يبرح ، أن يجعل هذا النجم إلى شماله أبداً

ثم بدت جبال فيشيا الشم كأنها دروع مسرودة فوق صدر الأرض الشاحبة .. ولكن ! وا أسفا ! . لقد كان الجبار نبتيون ثانياً عنانه من سوليما[٢] ، فلمح أوديسيوس فوق زمشه يتواثب على هام الموج ، و يقترب من الشاطىء ، فينجو إلى الأبد من بطشه . وثارت فى نفس نبتيون — إله البحار ، وأعدى أعداء أوديسيوس — ثورة من الغضب ، وظل يعلك هذه الكلمات فى نفسه من فوق بطاح إثيوبيا[٣] :

« وى ! أو قد تبدلت مقادير الآلهة إذن ، وتحركت فيهم عواطف الحنان من أجل هــــذا الرجل أوديسيوس ، فقضوا فيه ما قضوا لأنهم يسكنون السماء ، ولم يبالوا بى لأنى أسكن الأرض فى إنيوبيا ؟ إنه يرى شاطىء فيشيا قيد وثبات منه وهو إذا قفز إليه أصبح بنجوة من هموم تترصده فى كل موجة من موجات هذا اليم ... ولكن ... لا ... لألهبنه بألف سوط عذاب قبل أن يصل إلى البر .. » .

---

(١) الجوزاء Orion
(٢) إحدى مقاطعات آسيا الصغرى وكانت تدعى بيسيديا
(٣) هكذا فى الأصل

ثم إنه لاعب السحاب بصولجانه ذى الشعب الثلاث فانعقدت منه ظلمات فى أرجاء السماء ، وطفق يهز أعماق البحر فهاج وماج ، وتلاطم بالأمواج ، وصاح صيحة برياح المشرقين وريح المغربين فاجتمعت إليه من كل مكان سحيق ... ثم هبت ريح الشمال الثلجية اللافحة فانطفأ لألاء النهار ، وأظلم الليل فجأة ، وطغى العباب وشابت نواصيه بالثبج ، وتناوح الموج الغضوب حول الرمث ، وهلع فؤاد أوديسيوس وأصبح قلبه فارغاً ، وطاشت أحلامه وذابت أمانيه العِذاب ، وراح يحدث نفسه هكذا : « يا لتعاستى! أى مقدار قاس يترصدني ؟ لقد أنذرتنى ربة الماء معبّة هذه الرحلة الهوجاء فى البحر فما صدقتها ، وتنبأت عن الشدائد التى تعتور طريقى إلى الوطن ، فها هى ذى تتحقق ! أية أعاصير هُوج وأى موج ينتفض من الأعماق قد سلطه حوف على هذا البحر! بعد لحظة أغوص فى ظلمة هذه القبور التى يَشّقق عنها الموج ! ألا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً تحت أسوار إليوم ، يوم أوشكت أن أقضى ثلاثاً فى سبيل إنقاذ الأتريدس[1] أو يوم أوشكت أن أصرع برماح الطرواديين إذ أدفع جموعهم عن جثة أخيل ! ! أجل ! لو أننى مت ثمة لأقيمت من أجلى الطقوس الجنائزية ، وأديت لى الشعائر الدينية ، وذرف فوق قبرى كل يونانى أغلى دموعه وأعز عبراته . وتفاديت هذه الموتة المجهولة التى تكاد تلتقمنى ! » .

ثم كانت الطامة .. فإن موجة كالطود فجأته ... فبعثرت الرمث ... وأفلت مقبض السكان من يدى أوديسيوس ، فانتثر فى اللجة ، ثم غاص

(١) هو بيت أجاممنون

فى أعماقها ، وعبثاً حاول أن يطفو ... لأن الرياح تكالبت عليه من كل مكان ، وكلما نجا من موجة فغرت له فاها أخري ... ثم حدثت المعجزة ... فقد وسعه بعد لأى و بعد عناء شديد أن يدفع نفسه دومة اليأس إلى السطح ، وأن يملأ رئتيه المنهوكتين بتنفسة من الهواء كانت تمتزج بالماء الأجاج المتصبب من جبينه ، حتى لأوشك أن يغص بها ... لولا أن لطفت به الصدفة ، فرأى الرمث قريباً منه ، وقد انتزعت العاصفة قلاعه وشراعه ، فسبح إليه وأمسك به ، ثم استوى عليه ، وتركه للموج تلعب به واحدة وتعبث به أخرى ، وتجتمع عليه الرياح عن شماله و يمينه ، ومن خلفه وقدامه ، حتى قيّضَ له القدر عروس الماء (إينو) إبنة قدموس ، التى كانت تعيش فى البر وتعرف فيه بهذا الاسم ، والتى تخذت اسم (ليوكوتيا) بعد أن نزلت إلى البحر وعلقها أحد الآلهة فوهبها الخلود .. لقد تفجرت فى قلبها شآبيب الرحمة من أجل أوديسيوس لما رأته فى هذا الروع الذى ليس كمثله روع ، فسحرت نفسها ، ووثبت على الرمث فى صورة غطاس الماء ، ثم قالت له : « ويحك أيها البائس ! فيم أثرت غضبة نيتيون عليك حتى ليتبعك سَرَبا فى شعاب البحر ، ويصب عليك كل تلك الرزايا ...؟ على أنى أنصح لك أن تدع هذا الرمث ، تتدافعه الرياح حيث تشاء ، ثم تخلع ملابسك ، وتقفز فى الماء ، وتسبح بقوة وجلد حتى تصل إلى شطئان فيشيا ، حيث تسلم بنفسك ، وتكون بمأمن من بطش هذا الجبار . خذ ، هاك زناراً [1] من حرير من حياكة السماء ، لُفَّه تحت صدرك ، فإنه يجعلك بمأمن حتى من مجرد التفكير فى الموت ، فإذا وصلت سالما إلى الشاطىء

---

(١) الزنار ما يلبسه القسس حول أوساطهم

فارمه بكل ما أوتيت من قوة بعيداً فى البحر ، وأدر وجهك بمجرد أن تفعل ، بشرط ألا تنظر إليه وهو يسقط فى الماء » .

وسلمت إليه الزنّار الموعود ، ثم غاصت فى الماء ، و بقى أوديسيوس مكانه فى حيرة شديدة وحزن عميق ؛ ثم أفاق من غشيته ، وجعل يهرف هكذا : « أوه ! ترى ؟ أذاك شرك آخر تدبره الآلهة لى ؟ ولكن لا .. لن أبرح مقيما فوق الرمث ، فالبر بعيد ، ولأظل مكانى ما دامت الجذوع مُكلبة هكذا ، فإذا حطمتها يد الحدثان فلأفعلن كما أشار الإلّه الذى كان يكلمنى منذ لحظة ... » . وما كاد يفرغ حتى أرسل عليه نبتيون موجة جارفة حطمت رمثه ، وتركته عالقاً بأحد الألواح ... وأسرع أوديسيوس فخلع الرداء الجميل الديباجى الذى خلعته عليه كاليبسو ، ولف الزنار الموعود حول صدره ، وقذف بنفسه فى الماء ... وراح يسبح !

وكان نبتيون الجبار يرى بعينيه ، ويشفى حَرَدَه ، ويقول فى نفسه : « ذُقْ يا أوديسيوس وبال أمرك فى هذا الطوفان ، قبل أن تصل حبالك بحبال الشعب الذى هو حبيب الآلهة ، وسترى ثمة هل تنتهى آلامك ! »

وحثّ مطيه حتى وصل (إيجه) حيث يشرف قصره المنيف .

* * *

وكانت مينرفا تشهد الكفاح الهائل بين أوديسيوس و بين اليم ، فاطلعت من عليائها ، وداعبت الرياح حتى استنامت ونت ، ثم أطلقت بوريس ، ريح الصبا الشمالى الكريم فجرى[1] رخاءً ، يدفع أمامه البطل

---

(١) الضمير عائد على بوريس وهو مذكر

العظيم الذى ظل يناضل الموت و يصرعه يومين أطول من دهر ، وليلتين أحلك من غيابة جب ، حتى إذا غابت أورورا فى اليوم الثالث ، استطاع أن يرى الشاطىء على مرمى البصر ، فوق موجة عالية .

ما أحلى الأمل الذى يحيا بعد يأس ؛ لقد كان أوديسيوس ينظر إلى التلال والجبال القريبة ، والغابة النائمة فى أحيادها ، كما ينظر الأطفال الأبرار إلى أب لهم أنهكته العلة .. ثم تماثل للشفاء بعد تسليم وقنوط !

وتحسس الأرض بقدميه ... ولكن . وا أسفا ! الأعماق الهائلة ! والصخور والأواذى ! والموج الذى يرتطم بأقدام الجبال فيرغى و يزبد ... !

لم يكن بهذه الجهة مرفأ ، ولم تكن تجوس خلالها سفن ... ولقد ظل أودبسيوس يكافح ويكافح ... حتى غُمَّ على قلبه ، وكاد يتغشاه طائف من الخور ، بعد أمل وطيد !

وجاشت الوساوس فى قلبه ، وطفق يحدث نفسه حديث الهُلك فى هذه اللجة الرجراج ...

وكان أخوف ما يخشاه أن يدفعه الموج على نتوء الصخر فيحطمه ، أو أن تلمحه أمفتريت ، زوج نبتيون ، عدوه اللدود ، إلَه البحر ، فتسلط عليه من وحش الماء ما يلقفه ، أو يقذف به إلى أعمق الأعماق ... كرة أخرى .

و بينا هو فى بحرين من ماء ومن هواجس ، إذا موجة هائلة يضطرب بها اليم فتدفعه فى قوة وعنف إلى الشاطىء ذى النتوء والنؤى فتكاد تدق عنقه ، وتذرو عظامه ، لولا أن قبض بذراعيه الجبارتين على حافة

صخرة بارزة .... فظل معلقا ثمة حتى أقبـل جبل آخر من موج البحر فاحتمله إلى الأعماق كأنه أحـد سراطين الماء ... وجاهد المسكين ثانية وثالثة حتى تدافع الموج من حلقه فقذفه فى مسيل من مسايل الماء المنتشرة على الشاطىء ، وعندها ، ظن أوديسيوس أنه بنجوة لولا تيار النهر الذى كاد يسلمه بدوره المحيط ، مما جعله يضرع لرب النهر ويبتهل ... ويدعو من أعماق قلبه ويصلى ، حتى استجاب الرب الرحيم لصلاته ، فـكسر حدة التيار ، وفلّ من غرب الماء ، واستطاع البائس المنهوك أن يصل إلى إحدى العدوتين واهياً متهالـكا محطما .. فانطرح على الثرى يقبله ... ويلهث ويقول :

« ويح نفسى ماذا تبتغين يا آلام ! لقد أقبل الليل وأناءَىٍّ مصدع ، ولا قِبَلَ لهذه البقية من حشاشتى بطل العشاة وصقيع الفجر ... فلو أننى استطعت أن أتسلق هـذا الحدور فألوذ بأجمة من هذه الغابة ! ولـكن ! وَىْ ! أى وحش ضار يفتذى بلحمى ثمة ؟ » .

بَيْد أنه توقّل فى الجبل حتى أوشك أن يضرب فى الغابة ؛ ثم كان بين زيتونتين إحداهما مثمرة ، والأخرى عقيم ؛ كل منهما لفّاء شجراء حتى لا تنفذ الريح بينهما ، ولا تتسرق أشعة الشمس خلالها ، ولا المناء بواصل إلى من استذرى بهما .

هنا ... وجد أوديسيوس مأمنه ؟ . . وراح يمهد الأرض ، ويلملم ما استطاع من قش ويحتطب ، حتى صنع لنفسه منامة تـكفى اثنين غيره ، من الضاربين المشردين فى الأرض ، ودعم حفافيها بفروع الشجر ...

ثم أسلم عينيه لنوم هادىء عميق ، سكبته مينرفا فى كلتا مقلتيه .

فلله ما كان أروعه غارًّا فى هذا السفط من القش ، كشعلة من زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يعتز بها ريفى شاب فى قرار مكين[1] .

***

نام أوديسيوس منهوك القوى .

وذهبت مينرفا تدبر له أمراً فى شيريا ، بلد السلالة ذوى المجد من أبناء فياشيا — ملوك البحر الذين فروا من وجه جيرانهم الجبابرة السيكلويس — فى العصر الخالى ، ونزلوا بهذا البلد ، فشادوا حصونه ، وأقاموا أسواره وتوزعوا أرضه الخصبه ، وأسكنوا الدور والقصور ، وأنشأوا المعابد للآلهة عرفاناً وشكراناً .

وقضى ملكهم وزعيمهم نوزيتوس ... ثم استوى على العرش من بعده ألكينوس ، حبيب الآلهة ، وصفى السماء .

***

كانت الأميرة الحسناء ، نوزيكا ، ابنة ألكينوس الملك ؛ تغط كالملاك فى نوم عميق بين وصيفتين رائعتين من وصيفاتها ، فوق سرير وثير فى مخدعها الملكى الفاخر .

وكان رتاج الباب محكما كأنه وتاج باب الجنة ، ولكن ذلك لم يقف بسبيل ربة الحكمة مينرفا ، التى خطرت إلى الداخل كنسمة نادية من نسمات الصباح ، ووقفت لدى رأس ابنة الملك تزخرف لها هذا الحلم الفضى

(١) كانت النار فى ارمن القديم أغلى ما يعتز به الناس .

الجميل ، وكأنما تبدوا لها في المنام في صورة صديقتها وأعز أترابها ابنة ديماس الكريم :

« نوزيكا ! يا ويح لك أيتها النؤوم المكسال ! أهكذا تهملين ملابسك وأنت موشكة أن تزفى إلى عروسك ، وعليها يتوقف مظهرك ومنظرك ورواؤك ، ورواء حاشيتك ووصيفاتك ؛ كما يتوقف عليها زهو أبويك بين الناس . انهضى مع الفَلَق[1] فاذهبي بمطارفك إلى المغتسل عند ضفة النهر فاغسليها وأعديها ليوم زفافك ، يوم تودعين مرَح هذا الشباب الخالى . . هلمي ! إنى سأعاونك ، أنت يا ساحرة ألباب شباب الفياشيين ! سلى أباك أن يرسل لك عربة و بغالاً تحمل ثيابك ومطارفك إلى عُدْوة النهر حيث لا شاهد ولا رقيب » .

وانفتلت مينرڤا ذات العينين الزبرجديتين ، ورقت أسباب السماء حتى كانت فوق ذروة أولمب ... حيث السكون والهدوء والصمت ، وحيث مستقر الآلهة ، وحيث لا تعصف ريح ولا يتلبد سحاب ولا تدمع عين مطر . . وحيث السماء لازوردية صافية إلى الأبد .

* * *

وخطرت أورورا فوق عرش المشرق ، وأرسلت من لدنها أميناً من رسل النور يداعب جَفْنى نوزيكا ، فهبت وحلمها الجميل لمّا يفتأ يساور رأسها الصغير ، وهرعت من فورها تبحث عن أبويها تقص عليهما أنباء ما رأت . وقد ألفَت أمها لدى المدفأ مكبة على غزل من صوف أرجوانى

---

(١) الفلق أول ضياء الصبح .

موشى بصبغ بحرى ، ومن حولها وصيفات يساعدنها . ثم لقيت أباها يكاد يذهب ليترأس مجلس شيوخ المملكة ، فاستوقفته وكلمته فى العربة ، واحتجت بملابس إخوتها الخمسة الذين يستحيون أن يراقصوا العذارى فى الحفلات بملابس لا تليق بأبناء الملوك . . وعقد الخجل لسانها فلم تذكر مطارف زواجها وشفوف زفافها ... ولم يبخل أبوها عما طلبت ، بل أمر لها بعربة كبيرة عتيدة ودواب ، وزودتها أمها بأشربات وآكال وطيوب ومروخ[1] .

واستوت مع وصيفاتها فى العربة ، وساطت البغال فانطلقت تطوى الرحب إلى النهر حيث وقفت عند منعرج يترقرق فيه بلور الماء ، متدفقاً من نبع قريب . وسرحت الدواب لترعى العشب الحلو النامى على حفافى الماء ، ثم أخذن فى غسل المطارف ونشرها فوق حصباء الشاطىء الذى طمه المد ونضحه الجزر ، واغتسلن بعد ذلك وتصمخن ، وجلسن على شفا النهر يتبلغّن بلقمات ، ثم نهضن فتلاعبن بالأكر ، وتغنّت ابنة الملك أعذب الأغانى ، وتثنت كما تتثنى ديانا فى شعاف الجبال وفى يدها القوس والترس ، تصيد الخنازير فى أريمانت — ومن حولها ربرب من عذارى الآلهة ، وابنة لاتونا[2] تتيه عليهن وتدل ... كذا كانت تميس ابنة الملك فيكسف لألاؤها جمال الأخريات .

وهنا ... شاءت مينرفا أن يهب أوديسيوس من نومه ، ليشهد

---

(١) ما يمسح الجسم من دهن أو طيب أو غيرها .

(٢) هى ديانا .

الغادة الهيفاء التي كُتب في الأزل أن تقوده إلى المدينة ؛ فبينا كانت نوزيكا تضرب الكرة لتلقفها إحدى وصيفاتها ، إذا هي تعلو وتعلو ، ثم تدوّم كما يدوّم الطائر ، وتهوى في العباب المصطخب ...

وصرخ العذارى صرخة مدوية ، فانتفض أوديسيوس وهب مذعوراً مشدوهاً ليرى هذا المنظر العجب !

« ويحى ! أىّ بنى الموتى قُطَّان هنا ؟ ليت شعرى أشُوسٌ عرابيد أم كرام أجاويد ! أوّه ! إنهن عرائس ماء تفزّعن فرجعت الغيران أصداء صراخهن ، وتراقص الحباب فوق العباب من جَرْسهن ، وتثنى الكلأ نشوة في الوادى ! لأدلفْ نحوهن فأرى إليهن ... » .

وخطر من دَغِيلَتِه[1] خَطَرَانَ الأسد هاجته العاصفة ، فاتقدت في عينيه جمرتان من غضب ، أوظمىء فاشتدت غلته إلى الدماء ... وذأل[2] نحو العذارى ، فما إن رأينه حتى تفزعن وَوَلّين مذعورات في الشاطىء ذى النؤى ... إلا نوزيكا ! فقد نفخت فيها مينرفا من روحها ، ونزعت من فرائصها رجفة الخوف ، فوقفت شماء الأنف تنتظر القادم ...

وارتبك أوديسيوس ولم يدر ماذا يصنع ؟ أيجثو تحت قدميها يتوسل ويتضرع ، أم يقف عن كثب يستعطف ويسأل الفتاة دثاراً ، ويرجوها أن تهديه إلى المدينة ! وآثر الثانية فتلطف ، ثم قال :

« عَمْرَكِ الله أيتها الملكة ! أرَبَّة من الخالدات ، أم حسناء من

---

(١) الدغيلة والدغل الشجر الملتف .

(٢) ذأل وذأل مشى في خفة ونشاط .

بنى البشر؟ أضرع إليك أن تجيبى ! فإنك إن كنتِ ربة ، فما إخالك إلا ديانا ، ابنة سيد الأولب ! ولم لا ؟ ولك قسامتها ووسامتها وقدها المشوق ، وحسنها السوىّ ، وجمالها الروىّ ! أما إن كنت إنسيةً ، فما أسعد آلاك بك ، وأشد ما يزهون بجمالك ! كلما خطرت فى ملعب ، أو تَدَحْت (١) فى مرتع .. ثم ما أسعد الزوج الذى سيحظى بكل ذلك الجمال ، لا يضارعه فى العالم جمال!! ألا ما أروع ما تبدين كالنخلة اليانعة فى ديلوس عند مذبح أبوللو ، أيتها الأميرة ! ألا كم أتمنى أن ألثم قدميك ، لولا ما ينتابنى من روع ، ويؤودنى من فزع — أنا — ذلك المُعَنَّى المحزون المشجون — أنا — ذلك العيى الموهون الذى أفلت من يد المنون أمس ، بعد إذ كشر له عن نابه فى ذلك البحر اللجى ، بعد سفرة عشرين يوماً من أوجيجيا ، وسط أنواء وأهوال ، وموج كالجبال ، حتى شاءت العناية أن تطرحنى بشطئانكم الحبيبة ! ولست أدرى ما خبأت لى المقادير بعد ! ولكن ، هل ترثى مليكتى من أجلى ، وهى أول من لقيت فى هذه الأرض بعد طول عنائى ، فترشدنى إلى مدينتها ، وتسبغ على — أسبغت عليها الآلهة كل ما تتمنى من هناءة وبلهنية وقران قوى العرى لا تتطاول إليه أعين الأعداء — دثاراً يسترسوءتى ؟ » .

وأجابته نوزيكا : « حباً أيها الغريب النازح وكرامة ! إن سيماك تدل على نبل ، وسَمْتَك ينبىء عن رفعة ! اصطبر على ما ابتلاك به كبير الآلهة الذى بيده العزة ، يشقى من يشاء ، ويهب لمن يشاء . وإنى سأدلك إلى المدينة ،

(١) مشية الحسناء .

مدينة الفياشيين ملوك البحر ، التى أنا ابنة ملكها العظيم ألكينوس ، رب نعمائها ومصدر رخائها » وأومأت إلى وصيفاتها تقول : « مكانكن يا عذارى ! فيم فراركن هكذا من إنسيّ كريم ؟ لقد أبت الآلهة أن تطأ قدم عدو أرض أحمائها ، بلادنا المقدسة ، التى انعزلت فى لجج هذا الخضم عن كل العالم . إنه غريب يا عذارى ، جوّاب آفاق ، قذفه البحر إلى شاطئنا ، فمرحباً به ضيفاً من لدن زيوس ، وأهلا بوفادته ومهلاً . هلم إذن يا صويحبات فقدمن له طعاماً وشراباً ، ثم هيئن له حماماً فى منعرج ظليل عند حفافى النهر » .

وأسرع البنات فقدن أوديسيوس إلى منعرج ذى ظلال وأفياء ، وأعددن له ثوباً وكساء ، وهيأن طيوباً يتضمخ بها إذا فرغ من حمّامه ، وسألهن أن يذهبن بعيداً حتى لا يتعري أمامهن ، إذ « ... اشد ما يخجلنى أن أبدو عاريا أمام الخُرّد الخَفِرات ! » ... وتهادين إلى مولاتهن يحدثنها عما قال : بينما هو قد انقذف فى الماء يغسل كاهله وحقويه مما جمد عليهما من ملح اللجة ، وصعد فتضمّخ بالطيب الثمين ، ثم أسبغ على بدنه العنيد ذلك الكساء الذى منحته إياه نوزيكا ، ومن أعجب العجب أن مينرفا نفسها كانت تعاونه فى تجميل خلْقه ، وتزيل من شعره الكث الأشعث تلبداته التى كانت تبدو كأنها أزهار الخزامى ... ثم هى بعد كل ذلك تضفى عليه أمواها من البهاء تظلل بها صداره ، كأنما هى فلكان الصناع يعمل حلية من فضة وذهب ، وجلس على الشاطىء فى رونق وروعة ، حتى إذا لحته الأميرة العذراء أذهلها جماله ، وقالت لوصيفاتها . « تالله

يا صويحبات لقد شككت فى حال هذا الرجل أول الأمر ، ولقد حسبته آفاقيًّا من رعاع الناس ، لولا أنى أثق أن الآلهة لا تسوق إلى بلادها الحبيبة هذا الصنف من البشر ... أما هو الآن ، فلشد ما يشبه أرباب السماء ! أواه ! لوددت أن يكون لى زوج فى بهائه وحسن سَمْته ، على أن نبقى آخر الدهر هنا ... هلم يا وصيفات ... قدمن له طعاماً وخمراً » .

ومددن أمامه سماطاً كبيراً ، وزودنه بأحسن الأشربات والآكال ؛ وأخذ أوديسيوس فى إكلته حيياً متأدباً ، يرد عنه تلك المسغبة الطويلة التى أنهكته وأوهت قوته .

ووُضعت أحمال المطارف والثياب فوق العربة ، وشدت البغال ، واستوت الأميرة فى مكانها ، ثم هتفت بأوديسيوس فقالت له : « هلم أيها النازح الغريب ! إلى المدينة إذن ! إنى سأرشدك إلى قصر أبى ، حيث تلقاه فى جمع من أشراف الفياشيين وسننطلق وسط هذه الحقول ، وإن لى معك من أجل هذا لكلمة . . لقد بنيت مدينتنا فوق صخرة راسية ، وأحاط بها سور عظيم ، ثم وصل بينها وبين فُرْضتها جسر ضيق تقر على جانبه سفائننا ، رابضة متراصة ؛ ثم ينهض عندها معبد نبتيون العظيم ، وبجواره سوق المدينة المبنى من الحجر الصلد ، حيث تباع حبال السفن وشراعها ، وحيث تصنع مجاذيفها وأكثر عتادها — لأن الفياشيين لا يعنون بشيء عنايتهم بهذه المنشئات فى البحر كالأعلام — والذى أخشاه أن يرانا الناس ثمة فيستهزئوا بنا ، وقد يسلقوننى بألسنة حداد ،

قائلين فى سفاهة وتندر : ترى ؟ من يكون هذا الغريب النجيب الهرقلى الذى يقص أثر الأميرة ابنة الملك ؟ أى صدفة جمعت شملهما يا ترى ؛ سرعان ما نراها تزف إليه عروساً كاعباً . قد يكون ضيفاً غير محمود من أرض نائية ؛ أو ربما صادت بصلاتها وتسبيحها واحداً من الآلهة أبق من السماء ليقر فى حضنها إلى الأبد ... الحمد لله الذى من عليها بزوج سعيد من بلاد غريبة يشبع أمانيها الجامحة بعد أن رفضت الأيدى الكثيرة التى تقدمت إليها من أبناء الفياشيين ... هكذا سيقول الناس إن رأونا أيها الرجل ، ولهم الحق ، فأنا نفسى لا أعفى من اللائمة فتاة عذراء تستبيح أن تمشى مكشوفة مع رجل غريب قبيل عرسها ... ولكن أصغ إلى : إنك واصل حتما إلى أبى إذا اتبعت نصيحتى ... بعد قليل سيصل ركبنا إلى حرج أشجار الحور المقدس النامى فى تخوم الطريق باسم ربة العدالة والحكمة ميثرفا ... وإن عنده لنبعاً يترقرق وسط كلأ وأعشاب ... وإن عنده لحديقة أبى ، الجنة الضحوك المئناف ! قف ثمة حتى إذا دخلنا نحن المدينة وحصلنا فى بيت أبى ، فتقدم أنت وادخل المدينة واسأل أيا من الناس ، ولو طفلاً يافعاً ، عن قصر ألكينوس الملك ، أبى الحبيب ، فإنه معروف مشهور لا يضارعه منزل آخر فى سعته وأبهته ؛ فإذا دخلته فلا تتوان لحظة ، بل سر قدُماً حتى تلقى أمى جالسة لدى الموقد المتأجج بجانب عمود مرمرى ، مكبة على غزلها الصوفى الموشى بأصباغ البحر ، ومن حولها وصيفاتها يعاونّها فى إنجازه — وقريباً منها ترى أبى مستوياً على عرشه يطعم ويشرب كأحد آلهة الأولمب ... لا تكلمه ...

بل جاوره إلى أمي الرؤوم، ثم سل حاجتك تقضها لك ، و تعدك إلى وطنك مهما كان سحيقاً نائياً .. أثرٌ فى صميمها عامل الخير والمحبة ، تردك إلى آلك وذويك و بلادك .. وسلام عليك » .

ثم إنها ألهبت ظهور البغال فانطلقت تعدو مولية عن النهر الذى صار يبتعد قليلا قليلا ... وكانت نوزيكا آخذة بزمامها لتكبح من جماحها ، حتى لا تفوت أوديسيوس من ورائها .

وكانت الشمس تصبغ بالورس جبين المغرب حينما وصل الركب إلى حرج مينرفا المقدس ، الذى نهض حوره الباسق فى السماء نضراً ملتفاً كأنما يناجى ابنة جوف ، المدّرعة بإيجيس .

وهنا ... وقف أوديسيوس يصلى لمينرفا :

« يا ابنة جوف القوى المتعال اسمعى لى ! أصيخى الآن يا ربة ! لقد تصاممت عنى إذ كانت اللجج تلقفنى فراعينى الآن ! اجعلى لى مرفقاً من أمرى ، وهبى لى محبة ورحمة فى قلوب أبناء الفياشيين أنسى بها آلامى ... آمين آمين ! » .

وابت ربة الحكمة واستجابت لدعائه . بيد أنها ، احتراماً لعمها (نپتيون) الذى لا يفتأ يقتفى أثر أوديسيوس عدوه الأكبر ، لم تشأ أن تبدو له .

وفرغ أوديسيوس من صلاته ، ووصلت عربة الأميرة إلى القصر فلقيها إخوتها الأمراء الخمسة النُّجُب ، فحلوا الدواب وحملوا المطارف

والثياب ، وصعدت هي إلى مخدعها حيث كانت خادمتها العجوز الشمطاء (يوريمديوسا) تعنى بنار المدفأة .

ولم تكد يور ترى سيدتها حتى حيّت وَبَيَّتْ ، وانطلقت تعد لها وجبة المساء .

أما أوديسيوس فقد هب من مجلسه ، ويمم شطر المدينة ، وقد نشرت حوله مينرفا — صفيته الوفية — ظلالا وغماماً يحجبه عن أعين الناس حتي لا يضايقه أحدهم بسؤاله من هو وفيم أقبل ومن أى الأقطار جاء . بيد أنها لاحت له قبل أن يلج باب المدينة فى هيئة فتاة قروية كاعب تحمل فوق رأسها جرتها ... وتعمدت أن تعترض طريقه ، فانتهزها فرصة وزاح يسائلها هكذا : « يا بنية ! أتسمحين فتدلينى على بيت رب هذه البلدة ، ألكينوس الكريم ؟ لقد نال منى الونى وطول السفر ، وحللت عليكم يا أهل فيشيا الأجاويد ضيفاً غير معروف ، من بلد سحيق ، فهل تفعلين ؟ »

وقالت مينرفا — ذات العينين الزبرجديتين — وهى تجيبه :

« حباً أيها الغريب الوقور وكرامة ! سأدلك على بيت ألكينوس بنفسى ، فهو غير بعيد من بيت أبى ... ولكن لى إليك وصية ... إصمت ما دمت سائراً ، ولا تحدج أحداً بنظرة ، ولا تكلم من أهل هذا البلدة إنسياً ، فقد جبلوا على ازدراء الغرباء وقلة إيلافهم ، وتلقيهم فى فتور وبرود طبع ، وقد أحبهم نبتيون رب البحار فأذل لهم أعناق الموج

وأساس اسمهم أعراف الماء ، فهى تخطر فيه كالطير حين تزف ، أو كالكرة حين تخطر فى الخلد » .

وتهادت ربة الحكمة بين يديه ، ودلف هو وراءها ؛ ولم تره جموع المحارة الحاشدة التى كان يسير بينها ، لأن مينرقا ضربت على أعينهم غشاوة عجيبة حجبته عنهم ؛ وكان ينظر بعين الدهش إلى ميناءهم وسفائنهم ورحبة السوق التى يأوى إليها أبطالهم ، و إلى تلك القلاع المحدقة بالمدينة فى أبهة وجلال ؛ ثم بلغا بيت الملك ، فقالت مينرقا :

« هاك يا أبتاه القصر الذى سألت أن أدلك عليه . وستلقى فيه رؤساءنا وأمراءنا أصحاب السمو يولمون و يقصفون ، فهلم فالقهم بقلب رابط وجأش ثابت ، فهم أشد الناس إعجاباً بشجاع جرىء ، وأكرمهم للاجىء غريب . وستكون الملكة أريتا — سليلة الشرفاء الأمجاد آباء ألكينوس الكبير ، وحفيدة المردة الجبابرة من ذرارى نبتيون[1] — أول من تلقى . إنها سيدة قومها ، وهى محبوبة مبجلة إلى درجة التقديس من زوجها وأبنائها ومن جميع الفياشيين ملوك البحار ، الذين طالما تكبكبوا حول موكبها فى شوارع المدينة هاتفين داعين ... إنها تجلس وقوراً كإحدى ربات الأولمب فتغمر بالمحبة أبناءها ، وتقضى فيما يشجر بينهم ... لك الله يا سيدى إن قدر لك فاستطعت لقاءها ... إنها إذن تمنحك برّاً وتسبغ عليك من بركاتها فتعود إلى بلادك راضياً ، وتلقى آلك وخلانك عزيزاً مكرماً »

---

(١) آثرنا ألا نثبت هنا ما ذكر هومر من أنساب مخرفة الأبطال .

ثم غابت ميرفا عن الأنظار ، وغادرت أرض شيريا الحبيبة إلى مَرَثون — ومن ثمة رفّت رفةً فكانت فى أثينا حيث أوت إلى قدسها الكريم إركتيوس .

ودخل أوديسيوس قصر الملك هياباً متخاذلا ، غارقاً فى بحر لجى من الوهم والفكر ، لأنه ما كاد يطأ بقدمه وصيد الباب الكبير حتى بهره لألاء شديد خاطف ينبعث من الداخل ، يزيد فى شدته ولمعانه تلك الجدران المصفحة بالنحاس ، يزينها إطار من اللازورد الأزرق ، وتلك الأبواب الهائلة من الذهب الخالص ، والعماد السامقة من الفضة المجلوّة ، تكللها تيجان من النُّضار الثمين . وعلى اليمين وعلى الشمال ربضت كلاب من ذهب ، صَنْعَةَ ڤلكان ، صَنَاعِ السماء الخالد ، وحالد أبد الدهر كل ما صنعت يدا ڤلكان . ثم تلى بعد ذلك ردهة فسيحة مترامية صُفَّت إلى جدرانها كراسى كأنها عروش ، و بثت فوقها نمارق ذوات أفواف وشفوف، صنعة وصيفات القصر ؛ وهنا ... يولم الملك لأمراء شيريا ... فيقف الوِلدان فى جلاليب من ذهب ، وفى يد كل شعلة تسكب الأضواء من فوق المذبح على جموع الطاعمين فى كل ليلة ... يا للقصر كأنه جنة الخلد ؟ !.. إن خمسين من عبيد شيريا الرعابيب يخدمون الملك ثمة ، يطحنّ القمح وينخلن الدقيق ، وينفدون الصوف ويعملن على النَّوْل ... مائسات كأفنان الدوح يداعبهن النسيم الحلو ... حاذقات فى الغزل والنسج كأحذق ما يكون بحارة شيريا فى عنفوان العاصفة ... قد تقفن صناعتهن عن ميترفا فافتنَنَّ وأبدعن إبداعا . ثم تكون البوابة

الـكبرى ، حيث فردوس القصر اليانع ، وجنته دانية القطوف ، ذات الأسوارالمنيعة المحيطة بهذه الأربعة الأفدنة .. للآلهة هذا الدوح قد بسق فى جنباتها ؛ وللآلهة أشجار الرمان المثقلة بأثمارها مفترة عن شفاه الأقاح ، وحمرة الخجل قد خضبت خدود التفاّح والـكمثرى ، وسالت قطرات من الشهد فى ثمرات التين ، وتأججت أنواراً زاهية فى أفنان الزيتون ... فاكهة شهية جنية لا مقطوعة ولا ممنوعة شتاء وصيفاً ، يانعة أبدا ، تداعبها أنفاس زفير رب الصّبا فتشيع فيها النضج والنماء ، كلما قطفت يد من جناها ثمرة نمت مكانها فى الحال ثمرات ، فما تقل آخر الدهر قطوفها وما تنقص .

وخلال هذه الجنة المثمرة تمتد الـكروم ذَوَات الأعناب والرُّطَب والعناقيد من نور ، بعضها يعصر فتقطر الخمر منه ، و بعضها يجف على سوقه فيكون زبيباً جنياً .. ثم توشّى أطرافَ الحديقة أحواضٌ من الزهر المشذب المنسق ، وتتفجر فى وسَطها عينان نضاحتان ، يترقرق الماء من إحداهما كاللجين فى مسايل هذا الروض ، وتتدفق مياه الأخرى فى نهر صغير ينساب إلى المدينة من تحت عتبة القصر، فيرتوى الأهلون منه .

مُلك كبير وآلاء وافرة أسبغتها الآلهة على ألـكينوس الملك !

* * *

وقف أوديسيوس مسبوه الاب ، مشدوه الفـكر ، يردد طرفه فى هذا المنظر العَجَب ، ثم أفاق فخطر إلى الداخل ، حيث اجتمع زعماء المدينة وشيوخها يصبون الخمر باسم هرمز رسول السماء تقدمة وقربانا ،

وصلاة لخاتم أرباب الأولمب قبل أن يأووا إلى مضاجعهم . ولم يتلبث عندهم ، بل تقدم فى خطى حثيثة برغم إعيائه ، وكانت ميبرقا تحجبه فى ظلال كثيفة من أعين الملأ ، حتى وصل إلى حيث الملك والملكة ، فكشف عنه غطاؤه ، وجثا عند قدمى الملكة يبث شكاته بين دهش الملكين الكريمين وشدة تحيرهما :

« أريتا يا ابنة ركسنور صفى الآلهة ! أتوسل إليك وإلى المليك العظيم ، وأضيافكم النبلاء ، من الله عليهم ، وضاعف لهم آلاءه ، وأنعم على ذراريهم وألف بين قلوبهم وقلوب رعاياهم ، أتوسل إليك يا سليلة المجد صارعاً أن تعطفى علىّ ، وأن تكرمى مثواى ، وأن تعينينى على الرحلة من فورى إلى بلادى التى أتحرق إليها شوقاً ، والتى فصلتنى عنها أهوال وأهوال ! » .

وساد سكون عميق وصمت ، وظل البطل المسكين جاثياً عند حافة الموقد المتأجج ، حتى تفجرت شآبيب الرحمة والحنان فى قلب إخنيوس ، ابن الملك المكر ، فراحت الكلمة الطيبة تتدفق من فمه الجميل العذب فى فصاحة وتبيان ، وحكمة تقليدية ، وخير ، حيث قال :

« حاشا لمجدك أيها الملك أن تدع هذا الغريب جاثياً هكذا فى غبار الموقد وفى وهج النار ، وأن تترك أضيافك ينتظرون أمرك ... وما تُكلم منهم أحداً ! ألا نخذ بيد الغريب وأقعده مقعد الندى ، ومُر النُّدمان يسقه من كأس جوف كبير الآلهة[1] ، وحبيب الغرباء وذوي الحاجات ،

(١) فى الأصل (رب الصواعق) .

والنادل يهيئ له عشاء مما تبقى من ولمية الليلة » .

وما كاد الأمير يفرغ من قوله ، حتى أنهض الملك أوديسيوس وأجلسه على كرسى فخم جانب ولده الحبيب الحكيم لأوداماس ... ثم أقبلت إحدي وصيفات القصر فصبت الماء على يديه من إبريق فضى ، ثم أحضرت مائدة حافلة بأشهى الأكل وأطيب اللذائذ والأشربات ، فأكل أديسيوس وارتوى ؛ وأمر الملك كبير السقاة پونتونوس ، فمزج الراح وقدمها إلى الجميع حيث صبوها تقدمة لجوف رب الصواعق وكبير الآلهة ، وحبيب الغرباء ، وحامى ذوى الحاجات ، ثم شربوا بعد ذلك حتى رَوَوْا

وقال الملك : « أيها الرؤساء والشيوخ الفياشيون كلةً : عفوَ الخاطر ، فاسمعوا وعوا ... لقد طعمتم جميعاً وستتفرقون إلى مضاجعكم ، ثم نجتمع عند مطلع الفجر ، نحن ومن لم يحضر من نواب الأمة الأجلاء ، فننظر فى شأن هذا اللاجئ الغريب ، بعد أن نضحى للآلهة ... إنه يطلب أن يعود فى حمايتنا إلى وطنه كيما يصل سالماً غانماً من غير أن يمسه أذى ، إلا أن تكون ربات الأقدار قد قصت عليه أمراً ، وإلا أن يكون من أرباب السماء الخالدين . . لقد وصلت بيننا وبين الآلهة وشائج القربى ؛ وطالما غشيت مجالسنا وشاركت فى ولائمنا ، وهى تبقى على محبتنا ، فلا تمس بأذى رجلا منا يضرب فى الأرض ، وليس ما بيننا وبينها أقل مما بينها وبين السيكلوپس ، أو المردة الجبابرة ، وفى ذلك فخارنا وهو آية مجدنا » .

ونهض أوديسيوس الحكيم فقال : « غَفْراً غفراً أيها الملك ! ما أنا في الآلهة ؟ ! أين لى خلقها السوى ، وكيانها السماوى ؟ بل أنا شقى من أبناء هذه الغبراء ، أثقلت كاهله حمولة هائلة من الكوارث والآلام ، حتى لا يعرف الناس من شقى شقاءه ، ولا من تحمل مصائبه وأرزاءه ... بلايا صبتها على رأسه الآلهة فصبر وأناب ... أوه ! أبداً لا أنتهى إذا سردت لكم طرفاً يسيراً منها ! ولكن لاداعى الآن ... أرجوكم ... أتوسل إليكم . دعونى أتبلغ بهذه اللقيمات فى هذه اللمحة الحالمة من الراحة التى لم أنعم بمثلها منذ بعيد . لشد ما يصرخ الجوع فى أذنِ الجوعان ، ولشد مايعذبه الطوى ! إنه يلح عليه بكل صنوف الألم ، حتى ينسيه آلامه وأشجانه . إن له لشهيةعالية الصخب تطلب العون فى جؤار وجنونٍ ، حتى ليضيع فى ضجيجها هتاف جميع الآلام ، إلى أن تكتفى . عفواً أيها السادة ! إنى أفتأ أضرع إليكم أن تيسروا لى عوداً أحمد ، وأوبة سالمة ، بعد طول العناء ، والشقاء الذى ليس بعده شقاء ؛ إنه لا أحب إلى من أن أودع الحياة بعد نظرة واحدة أتزودها من أهلى ووطنى . »

وتأثر القوم من أجله فأثنوا عليه ، واتفقت آراؤهم على معاونته حتى يعود إلى بلاده ويلقى ذويه ثم نهضوا فصبوا خمر الصلاة باسم الآلهة ، وشربوا نخب رب الدار ، ثم تفرقوا إلى منازلهم ، إلا أوديسيوس ، فقد ظل جالساً ساهماً واجماً ، كما ظل الملكان إلى جانبه ساهمين واجمين ، والندل فيما بين ذلك يحملون أطباق المائدة وأكوابها ، حتى إذا فرغوا

أخذت الملكة تتحدث إلى أوديسيوس ، وقد لفت نظرها هذا الثوب الفضفاض الذى كان يلتفع به :

« والآن جاءت نوبتى فى التحدث إليك أيهذا الغريب الكريم ، من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأنى لك هذا الصدار وذاك الدثار ؟ ألست قد قلت إنك غريب نازح أفلتتك المنايا فى لجج البحار ؟ » .

وقال أوديسيوس يجيب أريتا :

« أيتها الملكة ! قد لا أفرغ من الحديث إذا حاولت أن أسرد قصتى بحذافيرها ! بل ليس أشق على من ذلك ، فقد كرثتنى الآلهة بكل أنواع الهموم وصنوف الآلام ، بيد أننى ألم بمأساتى المحزنة فى كلمات فأقول : « فى أوجيجيا — إحدى الجزر القاصية التى لم تطأها قبلى قدم بشر ولم يخطر بها إله — تقيم عروس الماء المفتان — كليبسو — البارعة الرائعة الصناع ، ابنة أطلس الجبار التى قدر على أن أكون أول لاجئ إلى جزيرتها بعد أن سلط جوف صواعقه على سفينتى فشطرها وأغرق كل رجالى ، وظللت أنا متشبثاً بالسارية ليالى وأياما ، حتى دفعتنى المقادير فى الليلة العاشرة إلى ساحل الجزيرة حيث آوتنى كليبسو الجميلة الريانة ، وأنقذتنى من موتة أكيدة ، وأطعمتنى وأكرمت مثواى — ثم عرضت أن تهبنى الحياة الخالدة والشباب الأبدى ، لولا أننى تأبيت ... ثم أقمت عندها سبع سنوات لم يرقأ طوالها دمعى الذى نضحت به أثوابى وما خلعت على من دثار ... وفى الثامنة أرسل إليها جوف كبير الآلهة من يأمرها بإطلاق سراحى ، فأبحرت على رمث زودته بالأطايب والأذخار ،

والأشربات والآكال ؛ ثم أرسلت بين يدى ريحاً رخاء ما انفكت تجرى بى فى عباب من بعده عباب ، طيلة سبعة عشر يوما .. وفى الثامن عشر لاحت قم جبالكم الشم فخفق قلبى فرحاً ... بيد أنه كان أملا خُلَّباً لم يطل أمده . . فقد أبى نبتيون الجبار إلا أن يقف بسبيلى ، وإلا أن يرسل ريحاً معاكسة تثير الموج وتهيج اللج ، وتمزق ما التأم منى ومن فلكى الصغير — الذى كان كل أملى ... ولم يعد بد من أن أكافح الماء ، وأذرع اليم بالسباحة ، حتى تصاورت الريح والموج ، فقذفانى إلى ساحلكم ذى النؤى . . ولم أحتمل صدمة الصخور ، فنضحنى السيل الرابى إلى الأعماق كرة ثانية ... وشرعت أكافح مرة أخرى ، حتى نثرتنى موجة مزبدة فى نهر وديع متطامن ... فسبحت إلى إحدى عدوتيه ، واستلقيت على الشاطئ ، خَفِقَ الأحشاء منهوك القوى ... وأقبل الليل فتهالكت على نفسى إلى دغيلة مهدتها بعساليج وشىء من القش وفروع الشجر ، ونمت ليلاً طويلاً وضحوة متعبة وظهيرة كلها نصب وإعياء ... ثم أيقظتنى صيحات قريبة مُرِنَّة ، فإذا ابنتكم الأميرة الحبيبة الحُسان فى ربرب من أترابها يتلاعبن كربات الأولمب على رمال الشاطئ ... وجثوت تحت قدميها ، وما زلت بها أتملق شبابها الغض بدعوات معسولات ، وأثير نخوة صباها العينان حتى أمرت لى بطعام شهى وخمر معتقة ، وأشارت إلى منعطف فتوجهت إليه فغسلت ما على جسمى من خبَث ، ثم منحتنى هذا الصدار وذاك الدثار ...

تلك قصتى أسردها عن قلب محزون ... ما فيها أثارة من مَيْن » .

قال الملك : « لشد ما أخطأت بنيتى إذ لم تصحبك إلى هنا فى جملة حشمها ما دمت قد رجوتها فى ذلك أول الأمر » .

وقال أوديسيوس يجيبه : « إنها لم تخطئ أيها الملك الكريم وما عليها من ملام . لقد كلمتنى فى مثل ذلك فأبيت لأنى خفت أن يسوءك ذلك منها ومنى ، ولأنى أعلم أن الناس فى كل مكان ظنانون قوالون » .

فقال الملك : « كلا أيها السيد ، إن صدرى لا يحمل مثل ذلك القلب النزق . إن الرصانة والأناة أفضل ميزات الخلق الكريم ... تالله يا بنى إنى لأوثرك كولدى ، و يودى لو قبلت مصهرت إلى وتزوجت ابنتى ، وعشت معنا كواحد منا .. و إنى — إن رضيت — لمقطعك الأقطاع الشاسعة وماحك المنزل الرحب . هذا وليس فى فياشيا كلها من يجسر أن يقسرك على شىء تأباه نفسك . معاذ الله يا بنى .. إن هذا إلا عرض ... مجرد عرض منى لما أنسته فيك من سمو ورجاحة ونبل ... فإن لم يرقك أن تفعل ، فإنى مُعِدٌّ لك أسباب عودتك غداً ، وستنام ملء عينيك بينما يكون الفلك ينهب اليم و يطوى العباب ، منسربا فوق الموج بقوة الأذرع الفتية التى تعمل فى المجاذيف حتى تصل إلى وطنك سالماً غانماً ، بل حتى تصل إلى أبعد منه ، ولو إلى ما وراء أيوبيا أبعد الجزائر منا ، حيث يحمل بحارتنا ردمنتوس[1] ذا الشعر الذهبي لزيارة تتيوس[2] جبار الأرض ... إنهم يبحرون به إلى هذه الجزيرة و يعودون

(١) بن زيوس من زوجته أوربا وقاضى العدالة فى الدار الآخرة « هيدز » « جربر » .

(٢) أحد مردة طار طاروس ويغطى جسمه مساحة تسعة أفدنة (جربر) .

فى يوم فى غير عناء أو إعياء ، وستعرف سبب نخارى بسفائنى وبحارتى الذين يذرعون البحار ويضربون أكبادها حين يبحرون بك » .

وشاع البشر فى أسارير أوديسيوس ذى التجاريب فقال : « أيها الأب الخالد ! لله محامدك الغر ! أنجز يا مولاى يَسِرْ ذكرك فى البلاد ، وألقَ أهلى وأنشقْ نسمة من وطنى » .

* * *

وهكذا تشقق الحديث بينهما ..

ثم أمرت الملكة بعض وصيفات القصر فأعددن فراشاً وثيراً فى الرواق ذى الأعمدة ، وهيأنه بوسائد من دمقس ، وبثثن فوقه الأرائك والحشايا ، وعلقن الستائر والأسجاف ، ووضعن البرانس[1] واللحف ... وكانت كل منهن تحمل شعلة كبيرة تتوهج فى جوانب القصر ... حتى إذا فرغن من كل شىء ، دعون أوديسيوس فى أدب وظرف أن ينهض لينام ... وغما بطل هيلاس ... وأسلم عينيه لأحلام سعيدة .

ونهض الملك والملكة لينعما بطيب المنام .

حفل أولمبى

وصبغت أورورا بمثل حمرة الخجل وجنات المشرقين ، فاستيقظ الملك ، وهب أوديسيوس من نومه ؛ وذهبا إلى الشاطئ حيث تُلقى السفن مراسيها ... وهناك ... فوق مقعد حجرى أملس ، جلسا يتحدثان ؛

(١) البرانس بمعناه المعروف عربى فصيح

بينما كانت مينرفا تدق البشائر فى شوارع المدينة ، وقد بدت فى صورة مناديى الملك وطيلسانه ، تدعو سادات الفياشيين وشيوخهم إلى مجلس الملك ، للنظر فى أمر هذا الغريب الكريم اللاجئ الذى حل عليه ضيفاً . « كأحد آلهة الأولمب ، رغم ضربه الطويل فى عرض البحار » .

وازدحم سادات المدينة وأشياخها فى قاعة المجلس ، وكانوا يقلبون فى أوديسيوس نظرات الإعجاب والدهش ، وكيف لا ؟ وهذى مينرفا قد أضفت على صدره الرحب وكتفيه العظيمتين ، وجسمه السامق ، رواء علوياً من الأبهة والجلال ، كان ينعكس وقاراً ورهبة فى قلوب الفياشيين .

ولما انتظم عقد القوم نهض ألكينوس الملك ، فقال : ياسادة الفياشيين وشيوخ الأمة ، كلمة مرتجلة ، فاسمعوا وعوا : لقد حل هذا الضيف الكريم الذى لا أذكر اسمه فى بيتى بعد أن شرق فى آفاق العالم وغرب ؛ وإنه ليرجو أن تمدوا له يد المعونة فيعود أدراجه إلى بلاده فى كنفكم سالماً ، إذ طالما كان هذا دأبكم ، إكرام الضيف ، والإحسان إلى الغرباء اللاجئين ، وردهم إلى ديارهم مهما كانت سحيقة آمنين ... فالبدار إذن ... هلموا إلى سفائنكم فتخيروا أحسنها حالا ، وأصلحها لمجالدة هذا البحر ، ولتعدوا لها نخبة ذوى بأس من أصلب فتيانكم عوداً وأشدهم مراساً ... إثنين وخمسين عدداً من أينع زهرات شباب هذه الأمة ... ثم تعالوا إلى فإنى مولم لكم تحية لهذا الضيف ، فلا يتأخر منكم أحد أبداً ... وليحضر معكم أحب المنشدين دمودوكوس الإلهى ، صاحب

الألحان الخالدة ، والصوت السماوى الساحر ، وليشنف آذاننا بحلو أنغامه التى لا يقدر عليها إلا هو . »

وانصرف الملك وفى إثره شيوخ الفياشيين ، وانطلق رسول إلى منزل المنشد دمودوكوس الإلهى ... واختيرت النخبة ذات البأس من شباب الملاحين ، وأعدت السفينة فى مكانها الأمين من اليم ، فنُصبت القلاع ونشر الشراع وصفت المجاديف ... ثم مضى الجميع إلى بيت الملك ، حيث كانت الجماهير الحاشدة تكظ الأبهاء ، وتزدحم فى الدهاليز ، وتملأ الصالة الكبرى ... وجىء بالذبائح ... فهذان ثوران كبيران ذوا خوار ... وهذى اثنتا عشرة شاة سمينة ، وتلك أربعة خنازير كناز[1] ما كادت تذبح وتنتزع أنيابها حتى أخذ الجميع فيما أقبلوا له من طعام وشراب ... ثم أقبل منادى الملك يقود المنشد الإلهى الأعمى ، رخيم الصوت ، صفى ربات الفنون ، اللائى عدلن له بقسطين من خير ومن شر سواء ، فوهبته التطريب المعجز ، وسلبته النور من عينيه العزيزتين ... وأقيم له عرش ممرد فى وسط الصالة الكبرى ، عند عمود مرمرى عظيم ، فاستوى عليه ، وأعلمه بونتونوس بمكان قيثارته المعلقة فوق رأسه ، ووضع بين يديه سلة من طعام ومزة[2] .

وما كادوا يفرغون من آكالهم حتى رقصت عرائس الفنون فى فم المنشد المطرب ، فأرسل غناء سحر ألباب الناس ، ورقى بها إلى أثير الآلهة فى قبة السماء ... لقد تغنى هذه الأغنية التى تنظم النزاع الذى شجر بين

(١) كناز جمع مفرده مثله كثيرة اللحم والشحم .
(٢) خمر لذيذة الطعم .

أخيل بن بليوس ، و بين أدو يسيوس بن ليرتيس أثناء الوليمة الإلهية ، والذى جاءت به نبوءة أبوللو (فى دلفوس) حينما استوحاه أجاممنون عن يوم سقوط طروادة فى أيدى اليونانيين .

وسكت المغنى ، ودفن أوديسيوس وجهه الساهم فى ذيل ثوبه الأرجوانى الفضفاض خشية أن يلحظه أحد... وطفق يبكى... و يستخرط فى البكاء ، ثم كشف عن جبينه ، وسقى الثرى كأساً من خمرٍ صلاةً للآلهة ... ثم عاد إلى بكائه حينما وصل المطرب غناءه ، وكان يرسل عبراته فى كسائه غير ملحوظ من أحد إلا من ألسكينوس ، الذى عز عليه ما رأى وما سمع من عبرات ضيفه ، ومن تنهداته ، فقال : « حسبنا يا سادة ما طعمنا وما سمعنا ... هلموا جميعاً نشهد الضيف الكريم بعض ألعابنا ليذكر فى العالمين أن الفياشيين خير من يجرى ومن يثب ، وأمهر الناس فى اللكم والمصارعة ! » .

ونهض الملك ، ونهض فى إثره كل أضيافه ، وتقدم المنادى فقاد دمودوكوس ، وقصد الجميع إلى ساحة السوق الكبرى ، حيث احتشدت كواكب الشجعان والشباب اليانع من ذوى القوة والفتوة والبأس الشديد ، أتوا من كل حدب لهذا الحفل المشهود ... وفى وسط الحلبة وقف الأبطال آكرون وأوكيال و إلاتريوس ونوت و پرمنيوس ؛ ثم وقف خلفهم الأبطال أنخيال وأنابيسين و إرتميوس و پونت و پرور وأمفيال وثون .. ثم نهض حليف مارس المهوب يوريالوس ، ثم نفر شباب الفياشيين

نو بوليد . وقف كل هؤلاء ... ثم هب أبناء الملك الثلاثة ... لوداماس ولده البكر ، ثم هاليوس ، ثم كليتون الأصغر ، وشارك نفر من أولاء في في سباق الجرى ، فأخذوا أهبتهم ، ثم انطلقوا يثيرون التراب في أثر كليتون . ابن الملك — الذى شآهم(١) جميعاً ، وتركهم يتعثرون وراءه كما تتعثر الثيران فى إثر البغال .. وتلقاهم النظارة بالهتاف العالى والتصفيق الشديد ، ثم كانت المصارعة التى بُرّز فيها يوريالوس على كل أقرانه ، كما برّز أمفيال فى الوثب الطويل ، وألاتريوس فى قذف القرص ... أما فى فى الملاكمة فقد تفوق لوداما النبيل ابن ملك شيريا ، وكان فوزه مسك ختام المباريات ؛ ثم نهض لوداماس فقال :

والآن أيها الأصدقاء نسأل ضيفنا الكريم إذا كان يحذق شيئاً يفخر به من هذه الألعاب ؟ ! إنه لا يزال غريض الشباب ، بادى الفتوة ، مكتنز العضلات ، عظيم مُنَّةِ الساقين والفخذين ، مفتول الساعدين ، و إن له لعنقاً أى عنق ... كل ذلك بالرغم من بدوات الضنى وأمارات العناء ، وما حطم البحر من جسمه الخصب ، وهل أهلك لجسوم الرجال من أجبال العباب ؟ ! » .

وكأنما راقت هذه الكلمات البطل يوريالوس فطلب إلى لوداماس أن يدعو الضيف إلى النزال ، فنهض لوداماس ثانية وقال : « هلم أيها الضيف فأرنا هل تجيد من هذه الألعاب شيئاً ؟ إنه ما استحق أن يعيش من لم يعمل بيديه ويسع بساقيه ... هلم ؟ حاول إذن ! فيم احترازك

(١) سبقهم (هامش القاموس) .

هكذا ؟ إنا لن نؤخرك قط ، فالسفينة معدة والملاحون على أهبة » .

وقال أوديسيوس يجيبه : « أتتخذنى هُزُواً حين تدعونى للعب بالوداماس ؟ ! أى لهو وأى لعب وأنا نضو أسقام وطريح آلام ، لا أمل له إلا أن يعود إلى بلاده ، وفى ذلك ما يضرع للملك وللناس ! » .

وهبّ يوريالوس يصيدُّ(١) ويقول : « كلا أيها الصديق ... إنى عذيرك ، فسيماك لا تنبيء عن رجل رياضى ، بل أكبر الظن أنك من رجال الأعمال أو حَفَظَةِ المخازن .. أو ... إن لم يخب حدسى ... من أدلاء السفن فى الثغور ؛ ومن يدرى ؟ فقد تكون عيَّاراً أو قرصاناً ! ! » .

وعبس أوديسيوس وبَسَرَ ، وانتشرت فوق جبينه ظلمات من الهم ، وتهدج صوته فقال : « إنك لم تحسن كيف تتكلم أيها السيد ، وإنك لم تبال أن تطلق فىّ لسانك بهجر القول كأننى رجل لا اعتبار لى .. على أن الآلهة — جلّت وعلت — لم يتفق أن منحت أحداً من العالمين كل آلائها فى وقتٍ معاً ... بساطة الجسم ورجاحة العقل وقوة البيان ... فقد يلوح لك هذا الرجل مُهدّماً محطما فى حين قد وهبه جوف بياناً متيناً ولساناً مبيناً حتى ليخلب ألباب سامعيه ، وحتى ليرتفع فى نفوسهم إلى مصاف الآلهة ... وقد تنظر إلى ذاك الرجل كأنما تتدفق فى عضلاته قوى السماء وهو لا يحسن أن يقول كلمة .. مثلك ... مثلك تماماً ... فلقد أوتيت بسطة فى الجسم ، حتى لتوشك فى ذلك أن تكون مثالا تقيس عليه الآلهة ، إذا أرادت أن تخلق ماردا جباراً . ولكنك — وا أسفاه ! —

(١) يجهر بالقول .

لم تؤت بياناً ولا حكمة ! فلقد أثرت ثائرى بكلماتك الغلاظ .. العجاف ! إنى — أيها السيد — كما ذكرت — لا أحسن من هذه الألعاب قليلا ولا كثيراً . . ولكنى كنت فتاها وفارس حلبتها أيام كنت شاباً يافعاً غض الإهاب ريان الشباب .. أما أنا الآن ! فوا أسماه ! ! إن حدثان الزمان لم يُبق منى .. ولا على ! لقد ذبل شبابى فى نقع الحروب وسوح الوغى .. وفى هذا البحر اللجى يغشاه موج من خلفه موج .. كالجبال .. بيد أننى .. على الرغم مما ينقض ظهرى من ويلات ، سأثبت فى سجل شجاعتكم قوتى ! فإن لما هرفت به من قول السوء لأنياباً تعضنى وتنهشنى .. أو أدلّ على قوتى وجبروتى ... » .

وكان إلى جانبه قرص القذف الذى يستعمله أبطال الفياشيين فى مبارياتهم فانقض عليه واحتمله بيده القوية المفتولة ثم دفعه دفعة هائلة كان لها هزيم وقصف ، واستهولها بحارة الفياشيين الشجعان فخفضوا رؤوسهم حتى استقرت بعيداً خلفهم ... وهنا بدت مينرفا بين الملأ فى صورة أحدهم ، وهبت عجلانة تقيس مدى القذفة ، ثم قالت : « ألا أيهذا الغريب ! الأعمى نفسه لا ينكر برهانك الدامغ القوى ! إنه مدى لا يستطيعه أحد غيرك ، فتِهْ على هؤلاء الفياشيين ! إن منهم من لا يستطيع أن يباريك فى أى من هذه الألعاب فادعهم إليك وما عليك من بأس » . وشاعت الكبرياء فى نفس أوديسيوس حين سمع هذا الهاتف من صميم الفياشيين يطريه ويثنى عليه وينصب من نفسه قاضياً له ، فقال ، وقد انكسرت حدة غضبه :

« هلموا أيها الشباب فاقذفوا هذه القذفة ، أقذف أبعد منها و نقرص أ كبر ورباً ! ! هلموا ! ! ليأت أقوى ملاكميكم فإنى له ! وليقف أضرى مصارعيكم فأنا أخوه ! وليجر معى أسرع عدائيكم فلن يلحق غبارى ! لقد هجتم ثائرى فهلموا ! إنى أتحـداكم جميعاً إلا لوداماس وابه مضيفى وصاحب قراى ، وليس لى أن أنازل من أكرم مثواى فى دار غربتى ؛ وليس من العرق ما يحملنى على شىء من ذلك . . أما غيره فأناله ، وسيعلم منازلى مهما يكن مبلغ قواى ... إنه ليس من ألعاب الناس ما يعجزنى .. فأنا رب القوس ، وطالما صرعت الألوف من الأعداء تحت أسوار طروادة ، وأبدا ما رمى أحد سهماً كما رميت إلا فيلاكتيتس يوم حاز قصب سَبْقِها دونى . على أنه من ؟؟ إنى لم أبلغ من الحول بعض ما بلغ هرقل أو يوريتوس الذى نفس عليه أبوللو مهارته فى الرماية فقتله ... هذا . وإلى الرمح السمهرى ، فإنى أبلغ به المدى الذى لا تبلغه سهامكم !! على أننى لا أطمع أن أبلغ خفتكم ورشاقة حركاتكم — ولقد قاسيت من الأرزاء ما قصم ظهرى ، وصارعت موج هذا الخضم حتى حطمنى وأوهانى ، ولقيت من الطوى ما برانى ! ! » .

وصمت الفياشيون ولم ينبسوا . ثم تكلم الملك فقال : « عمرك الآلهة أيها النازح الكريم لقد جلجلت فى آذاننا كلماتك ، ودلت على شجاعة وعنفوان ، وأفحمت هذا الشاب الذى جرح عزتك وأهان كبرياءك أمام الجميع ، ثم سكت عن تحديك ... ولكن تعال فانظر إلى ما نريك من ضروب الخفة وفنون الرقص وفنون الغناء والسبق فى العدو ، ومهارتنا

حين نسوس الفلك فوق أعراف الموج ورعاء الثبج ، كيما نتحدث بهذا كله إلى أقرانك و بين ظهرانى قومك ، وتحكيه لأطفالك . عمرك الله أيها الغريب المكرم إنه لا فخر لنا فى ميدان اللكم والمصارعة ، بل غاية المتاع عندنا ثوب مُوَشّى ، وطعام ملوّن ، وقيثار مُرِنة ، ورقصة خاطفة ، وحمام دافىء وفراش وثير ... ... والآن ... هلموا أيها الفياشيرن فالهوا أمام ضيفكم والعبوا ، وأروه من رقصكم وشنفوا أدنيه بغنائكم ، فلسوف يتحدث بكل ذلك فى الآفاق، وحسبكم أن يذكر عنكم أنكم أمهر من ركب البحار ! هلموا ... ليحضر أحدُكم دمودوكوسَ الإلآهى ... يعزف على قيثاره ويُلاعب قلوبنا بغنائه .. ابحثوا عنه فى بعض ردهات القصر ... »

وانطلق منادى الملك يبحث عن المطرب الإلآهى ، وانطلق آخر يعد قيثاره ، ثم نهض تسعة فياصل يمهدون أرض الملعب ويهيئون الحلقة ، ويزحزحون الجماهير ... وأقبل المنادى والمطرب يسعى بين يديه ، وجلس فى وسط الحلقة حيث أحدق به الولدان اليوافع اليوانع يميسون ويرقصون بسيقان تخطف كمثل خطيف البرق ، بين دهش أوديسيوس وشدة تعجبه والمطرب فيما بين ذلك يوقع لهم النغم الحلو ، والموسيقى العالية ... وفرغوا من رقصهم ، فشرع المنشد يتغنى أسطورة مارس ومعشوقته الآثمة سيتريا[1] إذ أغواها رب الحروب المستهتر بمعسول الكلام ومطلول الغرام فلانت له ... وكان أبوللو — إله الشمس — يرقبهما من مركبته الذهبية فى علياء السماء ، فطار بالفضيحة المشئومة إلى الزوج

---

(١) فينوس . (الأسطورة فى كتابنا أساطير الحب)

التاعس ... فلكان .. الذى استطير وثار ثائره ، فراح يصنع أنشوطة كبيرة كالشرك من حلق الحديد المفرغ الذى لا يقوى عليه أحد ، حتى إذا فرغ منها حملها إلى داره ودسها حول سريره ثم ألمّ بالمنعرج النجس حيث أوى مارس إلى ڤينوس — الزوجة الآثمة — وكان مارس يغالب فى عينيه أخريات غفوة الضحى ، فلمح فلكان يطوى الرحب إلى أرض لمنوس — أحب المدائن إلى قلب الإلـه الحداد . وطرب مارس أيما طرب ... وأيقظ معشوقته قائلا : « هلمى ڤينوس . انهضى أيتها الحبيبة لقد ذهب زوجك إلى لمنوس أرض البرابرة ... هلمى إلى البيت ... إلى السرير الدافىء ... إلى الحب ... إلى نعيم الهـــوى ! ! » وهبت ڤينوس ... وانطلق الأثيمان إلى سرير فلكان ، وفى قلب مارس غلة ، وملء جوانحه غواية وإثم ... وفى دمه شبق إلى هذه الفاكهة يكاد يقتله ... ولـكن ... وا أسفاه ! إنهما ما كادا ينطرحان فوق الفراش الوثير حتى انطرحت فوقهما الأنشوطة الهائلة .. وأمسكت بهما إمساكا شديداً ... لم يجدا منه حولا ، ولم يجدا منه مخلصاً ... وكان أبوللو يرقبهما كذلك ، وقد حدث فلكان بما رأى ... فعاد الإلـه الحداد على عجل ، ولم يكن قد بلغ شطئان لمنوس بعـد ... وكان قلبه يدق ... لا ... بل كان قلبه يكاد ينخلع فوقف فى البهو الـكبير ثم أرسل صيحة مدوّية يستصرخ بها الآلهة : يا چوف العظيم ! يا آلهة الخلود جميعاً ! أنظروا ! إشهدوا كيف تفضح ڤينوس زوجها مع عشيقها الفاجر مارس ! ولِمَهْ ؟ لأنه وسيم قسيم قوى ولأننى محطم موهون ! ذنب من ؟ إنهـــا جريرة من أنسلونى

وجاؤوا بي إلى الحيـاة ! أنظروا كيف يتمرغ الأحبثان الأفسقان فوق فراشي ! لقد تثلجت مشاعرهما فهما لا يباليان أن يأكلني الغيظ أو يقتلني الحنق . ولـكن لا ... حسبهما هذا الشرك الذى لن يفلتهما حتى يرى چوف فيهما رأيه . چوف الـكبير المتعال ... والد ڤينوس ! الذى أطلب إليه أن يرد إلى قناطير الهـدايا الزوجية التى قدمتها باسم ابنته العاهرة كشروط لإطلاق سراحها ! » .

ولم يكد يفرغ من صرخته حتى اجتمع في بيت چوف ذى الأرض النحاسية جميع الآلهة .. وكان أول من أقبل نبتيون رب البحار ، ثم تلاه هرمز رسول الآلهة وصاحب القوس ، ثم أپوللو .. ثم غيرهم وغيرهم ... ولم يحضر من ربات الأولمب واحدة ! فقد احتجزهن الخجل عن شهود هذه الفضيحة ! ثم هام الآلهة يقهقهون ويضحكون ... ويتلهون بهذا المنظر العجيب ، ويقول بعضهم لبعض : « يا للإثم ساق إلى أوخم العواقب ! ويا للأعرج الأكسح ، يشأى[1] السبَّاقَ المجلى !! لقد استطاع فلـكان أن يمسك بتلابيب مارس ، الذى هو من هو ... ! مارس ! أسرع العدَّائين ! إن عليه أن يؤدى الغرامة الفادحة للإله الأعرج ... » .. ثم خاطب أپوللو — رب الشعاع الوضاء — هرمز فقال : « يا ابن چوف ، يا رسول السماء ، ألك في هذه الغفوة الحلوة فى حضن ڤينوس ، على أن تقع معها فى هذا الشرك ؟ » وأجابه هرمز عابساً : « يا رب الرماة ! بنفسى بنفسى !! منذ الذى يأبى حضن ڤينوس فى شرك هو ثلاثة أضعاف هذا الشرك ، على أن

---

(١) يسبقه ويسبقه .

يرمقه سكان الأرض والسماء ؟ ! » : وتضاحك سكان السماء ، ولكن نبتيون الذى ساءته هذه الحال خاطب فلكان فقال : « هلم فلكان ففك هذه السلاسل والأغلال ، و إنى زعيم لك ، كفيل أنه مؤد إليك كل ما تعرض عليه من غرم ! » . ورمض فلكان أن يطلق فريسته ... « لأنه من يضمن ألا يمطلق مارس وهو لا يلوى على شىء ، غير عابىء بكل ما عساه أن يعد ؟ » . وقال رب البحار : « ليطمئن قلبك يا فلكان فوعزتى وجلالى لئن لم يف مارس لأنجزن أنا ، ولأؤدين عنه غرامته !! » . فأجاب رب الحديد الصناع : « إذن ، فلن يخيب رجاؤك ، ولن يرد طلبك ! » وتقدم ففك الأغلال عن العاشقين العاسقين ، وانطلق مارس إلى مأواه بأرض تراقيه ، وانطلقت ڤينوس إلى مرتعها الجميل بأرض بافيا — حيث تلقاها ربرب من أترابها بالبشر والترحات ، فغسلنها ، وضمخنها بالطيوب القدسية ، وأسبلن عليها شفوف الصبا وأردية الشباب .

* * *

وفرغ دومودوكوس من إنشاده بين تأثر أوديسيوس وتلهف البحارة الفياشيين ، ثم أومأ الملك إلى أبنائه فوثبوا وسط الساحة ، وأخذوا يرقصون فى حفة ، و يتقاذفون كرة غالية من صنع پوليپ ، فكان أحدهم يرسلها عالية حتى تدنو من السحب ، فيثب الآخر فيلتقطها وهو معلق فى الهواء ، ثم يتقاذفها أحدهم بعد الآخر ، بين تهليل الفتيان وتصفيقهم الشديد . وسر أوديسيوس مما أبداه أبناء الملك فى الرقص ، وأثنى عليهم لأبيهم ، ورجاه فى الذى رجاه فيه من تهيئة عودته ، فتوجه الملك إلى زعماء شعبه

وقال : « يا زعماء الفياشيين وأشياخ الأمة ! حرى بنا أن نكرم مثوى هذا الضيف الذى بدا لكم من وقاره وحكمته وأثير أرومته الشىء الكثير: هلموا إذن ... إنكم إثنا عشر زعيما ، وأنا الثالث عشر ... فليحضر كل منكم بدرة من الذهب وصداراً مُفَوّفا فتكون من الجميع هدية سنية له ... أما يوريالوس فعليه هدية كذلك ، وعليه أن يعتذر مما فاه به » . ووافق الكل على ما اقترح الملك ، وأرسلوا رسلهم يحضرون البدَر والصُّدُر ؛ ثم نهض يوريالوس يعتذر ويقدم لأوديسيوس سيفا بُجراراً له مقبض من فضة ، وقراب مطعم بالعاج ؛ ؛ ودعا له أن تكلأه الآلهة بعين الرعاية حتى يرى زوجه وولده وبلاده ، بعد كل الذى احتمل من عناء ونصب . وتقبل أوديسيوس الهدية ، ودعا لصاحبه بحياة الأمن والسلم والرفاهية . ثم علق الجرار فوق كاهله الصخم .

ووصلت الهدايا الأخرى مع غروب الشمس ، فنهض أبناء الملك يتسلمونها ، ويحملونها إلى داخل القصر ، حيث أمهم أريتا الملكة ... ونهض الملك متوجه إلى الداخل كذلك ، وسأل الملكة أن تحضر ثوباً وأكسية ، وأن تعد صندوقا يتسع لهدايا الزعماء ، ملوك البحر ، التى خلعوها على الضيف ؛ وقدم هو هديته ... كأسه الخاصة من الذهب الخالص ، المحلاة بأبهج الطرف وأبهى التصاوير ... « ليذكرنى بها ، كلما أفرغ منها الخمر تقدمه للآلهة » . وسألها أن تعد للرجل حماماً ينعشه ، وأن تعطيه الأثواب والأكسية كيما يتدثر بها .

وأمرت الملكة خدمها فأعددن الحمام ، وأحضرت هى ثوباً فضفاضاً

فوضعت فيه بدَرَ الذهب وكأس الملك وسائر الهدايا ؛ ثم تلفتت إلى أوديسيوس فقالت له : « والآن أيها السيد هلم فغلق هذا الصندوق فهو لك ، لتكون آمناً عليه إذا غفوت فى السفينة » . ولبي أوديسيوس ، وأغلق الصندوق ثم ربطه بحبل طويل عقده تعقيداً . ثم دعته ربة البيت إلى حمامه ؛ ولله كم ألقت عيناه حين رأى الثوب الديباجي العظيم ، الذى لم يلبس مثله منذ فارق كاليپسو ... ثم اغتسل وتدثر ، وتضمخ بأحسن الطيوب ، وبرز كأحد آلهة الأولمپ ... وبينا هو يطوى الأبهاء إذا صوت جميل ذرغنة يهتف به .. وإذا هى الأميرة الفينانة — نوزيكا — واقفة خلف عمود وهى تقول : « س . س .. أيها الغريب النازح اذكرنى دائما ، أنا ، أول من لقيك هنا !! » وتبسم أوديسيوس وقال : « نوزيكا !! أنت؟ ابنة أكرم الملوك ألسكينوس؟! لك الله ألا وحق جوف رب الصواعق لو صحت الأحلام ووصلت سالما إلى بلادى لظلات آخر الدهر أعبدك عبادة أيتها الجميلة العذراء كما أعبد الآلهة أربابى ! » . وبلغ مجلس الملك فاستوى إلى كرسى بجواره ، واجتمع الفياشيون مرة أخرى ، ودارت الأقداح ، وأجلس المطرب الأعمى الإلهى ، نخر شيرا ، قريباً من العرش ، وقدم إليه أوديسيوس جزءاً من شواء حمله أحد النذل ، فأقبل عليه المطرب حتى اغتذى ؛ ثم توجه إليه أوديسيوس بالحديث فقال : « كم أنت جدير بالثناء يا دومودوكوس ، بل أنت أولى به من أكثر الناس ! ليت شعرى ! هل ثقفت موسيقاك عن عرائس الفنون ، أم أنت قد حذقتها على أبوللو نفسه ؟ لقد أنشدت ما كان من جيش الآخيين كأنك كنت شاهد عيان ، أو

كأن شاهد عيان قد قصه عليك ! أنشد لعمرك ! تحدث عن الحصان الهولة الذى صنعه إبيوس بإرشاد مينرفا ، والذى حمله أوديسيوس الجبار هو وصحبه إلى قلاع طروادة ، ثم احتبأ هو وهم فيه ، فكانوا أول حراب إليوم ! ! نعن ! إنى سوف أحمل اسمك فأنشره فى الآفاق أيها المطرب المعجز الذى لا يباريه إلا عازف موسيقى السماء ، أبولو ! تقدس اسمه » .

وتنزل أبولو على لسان المنشد فراح يقص الوقائع الطروادية مذ حرق الهيوبانيون معسكرهم ، وبعد إقلاعهم من شطئان إليوم ، وذاك الانقسام فى الرأى بين الطرواديين بسبب الحصان الهولة أيقصمون ظهره أم يدقون عنقه أم يحفظونه تذكاراً لهذه الحرب ونصباً للآلهه ... على كل حال لقد نقلوا الحصان داخل أسوارهم ليكون القاضى عليهم بمن فيه من هذه النخبة أولى القوة من أبطال الإغريق ... وهكذا قدر عليهم فى الأزل أن يهدموا قريتهم بأيديهم ... تغنى الشاعر المُفْتَنُّ بكل هذا ، وأثنى أيما ثناء على أوديسيوس الذى كان يكر كأنه مارس ، ومنلوس الذى كان يفر كالصاعقة ، وعلى بقية الأبطال الصناديد الذين فازوا بالنصر فى ظل باللا — مينرفا — ربة الحكمة . وكان أوديسيوس ينصت إلى غناء المطرب وإنشاده ، ودموعه تنحدر غزيرة على خديه ، والآهات العميقة تشق صدره شقاً . كأنها آهات تلك الأم الرؤوم التى وقعت فوق جثمان زوجها الباسل تبكيه وتنعيه ، وقد سقط فى الحومة يدفع عن مدينته أعداءها ، وقد وقف من خلفها أبناؤها خُضراً يتامى كأفراخ القطا . ثم يقبل الأعداء فيخمدون

أنفاس هذه الأم بضربة لازبة ، فتنظر مرة إلى روجها القتيل ، ومرتين إلى أبنائها التاعسين ! كذلك كان أوديسيوس ، وكذلك كان يخفى دموعه فى طرف ردائه فلا يراها أحد إلا ألكينوس الملك الجالس قريباً منه ..

وقال الملك متحدثاً إلى رعاياه : « أيها الزعماء والأشياخ المياثيون ، أولى المنشد ثم أولى أن يفرغ من إنشاده ، فلقد تصدع قلب ضيفكم ووهنت روحه مما يسمع من هذا القصص الحزين ! لقد أحببناه كأخ ، ووهبنا له محبتنا وودنا وصافى أخوتنا لا ليحزن أو يأسى .. والآن ! هل يسمح ضيفنا فيذكر لنا اسمه الذى يعرفه به آله ويدعونه به ؟ لقد كتم هذا عنا ، فهل ولد أحد ولم يحمل اسماً ؟ من أنت أيها العزيز ، وما بلادك ؟ وإلى أين تحملك سفينتى ويبحر بك رجالى ؟ لقد منحنا نبتيون — رب البحار — الأمن فى ذلك اليم وذلل لنا غواشيه ، ولكنه ليس أشق عليه من أن تحمل سفننا أغراباً مثلك لا نعرفهم، فنبحر بهم إلى بلادهم ! ! إنه يغضب علينا ، وقد يغرق سفننا تشفيا وانتقاماً حينما تعود أدراجها إلى بلادنا ، فتهوى إلى الأعماق ثم يسحرها إلى جبل ناتىء فوق العباب ، قبل شيريا ! تكلم أيها السيد ! أصدقنا ! من أنت ؟ ومن أى البلاد قدمت ؟ وأين ضربت بطون الركائب ؟ وأى الأمصار شاهدت ؟ وماذا يفجر هذا الأسى فى أعماقك كلما سمعت عن جنود الآخيين ، وكلما ترددت فى أذنيك أغنيات طرواده ؟ إن الآلهة تحيك من حاضر المرء طيلسان الهموم لغده ! أقُتِل أبوك ثمة ؟ أم صرع أخوك تحت أسوارها ؟ أم قضى حموك فى ساحاتها ؟

أم أودى أصدقاء لك أحباء فى حلبتها ، كنت تعدهم كبعض أهلك ؛ أو أعز من أهلك ؟ تكلم ! » .

فى أرض المردة (السيكلوبس)

وشرع أوديسيوس يجيب عما تساءل عنه الملك فقال : « أيها الملك تعالى جدك ، لشد مايُطرب ما تغنى هذا المنشد غناء الآلهة ! ولقل ماتعدل الدنيا بأسرها هذا المجلس الشادى ذا الأضياف والآكال والأشربات ! على أننى مجيبك على ما بدهك من دموعى وهمومى ، وما لقيت وما سوف ألقى مما قسم لى من أشجان وأحزان ! إذن فاعرف اسم ضيفك الشريد الذى لا يجهل اسمه أحد ... ضيفك اللائذ بكرمك ، المستذرى بحماك ، المتشبث بك ليصل فى ظلك إلى بلاده مهما تقاصت ومهما نأت ... أنا أيها الملك . . أوديسيوس ... أجل .. هو أنا أوديسيوس ذو الذكر ، المعروف فى السموات بالدهاء والمكر ، ... ابن ليرتيس رب إيثاكا ، وملك نريوس ذى الشعاف السامقة ، والجزائر الآهلة حول ساموس ودلخيوم وزاسنتوس ، أم الجزائر التى تصافح تباشير الصباح بكل روضه فيحاء وخميلة لَفَّاء ، وجنات ذوات شجر وثمر ، صِبْغاً لأبنائها الأوفياء ... هناك ... حيث احتجزتنى عروس الماء كليپسو فى كهفها ، وراودتنى لأكون بعلها ... وهناك ... حيث أغرتنى سيرس هى الأخرى ، سيرس صاحبة جزيرة إيايا ... التى حاولت أن تتخذ منى خليلا فأبيت ، ولم أقبل أن أضحى أهلى ووطنى ، ولو أصبحت زوجاً لإحدى الربات الخالدات ...

ولـكن لا ، هلم قبل كل شيء أقص عليك من أنباء رحلتى منذ بارحت إليوم ، ولأدع ما قبل ذلك فهو معلوم مشهور :

« أقلعت بما الفلك إلى بلد السيكون (إزماروس[١]) ، (فبدا لى أن أزيد فى ثروة رجالى وما فازوا به من أسلاب طروادة ، فأشرت عليهم بفتح المدينة واغتنام ما فيها من كنوز وأذخار[٢]) وسرعان ما تم لنا ذلك ، فقتلنا العسكر وملـكنا القرية ، ووزعت السبى والأسلاب على جنودى ، ثم أشرت عليهم بالرحيل فعصوا أمرى ، وعثوا فى المدينة مفسدين ، وعاقروا من الخمر ، وعقروا من الشاء ما أذهلهم عن أنفسهم ، وأتاح لأعدائهم لم الشعث ، ففجأونا بجيش عرمرم منهم ومن جيرانهم ، وناضلونا عن مدينتهم فأوقعوا بنا ، ولم يغننا أنا قاتلناهم حتى مطلع فجر اليوم التالى ، بل ظل فرسانهم الصناديد يكرون ويفرون ، حتى قذفوا بنا فى البحر ، فوقفنا فى سفائننا نناوشهم برماحنا .. وصمدنا لهم حتى توارت الشمس بالحجاب فانسحبنا نجر أذيال الهزيمة والخزى ، بعد إذ انتزع السيكون فخار النصر . وعدت إلى الجند ... فوا أسفاه ! ... لقد افتقدت ستة من رجال كل سفينة ... سقطوا فى المعركة الخاسرة !

وأجننا الليل ، فجلسنا نتذاكر أسماء القتلى ؛ وما كدنا نفعل حتى سخر علينا جوف رب السحاب الثقال — ريحاً صرصراً عاتية أثارت البر والبحر ، وعصفت بمراكبنا فأطاحت قلاعها ومزقت شراعها ، ففزعنا إلى المجاذيف وأعملنا السواعد ، مستقتلين مستميتين ، حتى نجونا بعد لأى

(١) على الشاطىء الشمالى لبحر إيجه .
(٢) ما بين القوسين من شرح الأستاذ جرير وليس من متن الأوديسة .

إلى البر ، حيث تلبثنا ليلتين طويلتين فى أين و إعياء ، وشكاة وشقاء ، نصلح القلاع ونرتق الشراع . . وفى صباح اليوم الثالث تطامن البحر ونام هائجه ، فبادرنا إلى الفلك وأقلعنا باسم الآلهة مجراها ومرساها . وما كدنا نلمح شطآن ماليا ، حتى هبت زوبعة عنيفة تلاعبت بنا ، وحملتنا إلى جزيرة سيتيرا ... وطفقنا بعدها نذرع العباب تسعة أيام أخرى ، حتى بلغنا بلاد (لوتوفاجي) ، هذا الشعب الغريب الذى يقتات بالفاكهة فحسب ، من دون ما تنبت الأرض وما يدب عليها ... ورسونا ثمه ، وأسرع الملاحون إلى البر فاستراحوا وسمروا ؛ ثم تخيرت اثنين من أوثق رجالى ، وجعلت عليهما ثالثاً رئيساً ووجهتهم إلى سكان هذه الأرض ليتعرفوا أحوالهم ، فاختلطوا بهم ، وقابلهم اللوتوفاجى بالبشر والترحاب ؛ ثم عرضوا عليهم من ثمر اللوتس العجيب ، الذى ينسى آكله ما سلف من حياته ، ويَذْبَتُّ ما بينه و بين وطنه من وشيجة فما يفكر فيه ، و إذا فكر فيه فمايؤثر أن يرتدإليه ، بل يصبح كل مناه أن يأكل ويأكل ويأكل من هذا اللوتس العجيب ، وأن يعيش أبد الدهر بين أولئك اللوتوفاجى السحراء ! ... وانتظرت عودة رجالى ، بيد أنهم لم يرجعوا ، فاضطررت أن أذهب بنفسى إلى حيث سحروا ، فحملتهم قسراً إلى الشاطئ بين العويل والضجيج ، وقذفت كلا منهم فى قمرة مغلولا مكبلا مشدود الوثاق ، ثم أمرت الملاحين فأبحروا على عجل قبل أن يأكل بعضهم من اللوتس الملعون فيضلوا ضلالهم وينسوا أوطانهم ، ويظلوا فى فى هذه الأرض جاثمين .

«وما عتمنا أن وصلنا إلى أرض المردة الجبابرة ـ السيكلوپس ـ الطغاة العتاة ، الذين لا يخضعون لشريعة ، ولا يأتمرون بقانون ؛ الذين تؤتى أرضهم أُكلها رغداً من غير كد ولا عناء حَبًّا وأبًّا ، وحدائق غُلباً وقضباً وعنبا ، تُسقى مما يفيض عليها جوف من مائه المعين ... يعيشون فوضى ، لا تربطهم رابطة ، ولا يقوم بينهم نظام ؛ يأوون إلى كهوف موحشة ، وغيرانٍ سحيقة ، فى قلل الجبال وأحيادها ... يُعنى كل منهم بنفسه وزوجه وأولاده وقطعانه ، ولا يأبه للباقين ، وتلقاء أرضهم توجد جزيرة معشبة أريصة شجراء ، فيها من الماعز السائم قطعان لا حصر لها ، ولكنها مع ذلك يهماء[1] مُضلة ، لم تطأها فيما غبر قدم إنسان ، ولم يُرَش إلى حيوانها سهم صائد ، لأن السيكلوپس لم يحاولوا أن يركبوا البحر مطلقاً ، ولم يعرفوا طوال حياتهم هـذه الجوارى المنشئات فيه كالأعلام . لذلك سلمت الجزيرة بما فيها من خير ، وتكاثرت قطعانها حتى امتلأت بها مروجها الخضر السندسية .. وثمة ، فى جوْن هادئ جميل ، ألقينا مراسينا ، ونزلنا من سفائننا ، فى ظلام الليل الدامس ، وفى حراسة الآلهة ، بعد إذ ارتطمنا بسيف البحر ... ثم نمنا على الشاطئ حتى مطالع الفجر ؛ وأشرقت أورورا تنضر بالورد بمشرق الأفق ، فنهضنا نجوب الجزيرة ، ونتفيأ ظلال الحور ، ونرى عرائس الماء ترعى الماعز ؛ فبادرنا إلى سفننا ، وأحضرنا الحراب والأقواس ، ثم تفرقنا ثلاث فرق ، وشرعنا نصيد من هذا الحيوان ، فاجتمع لنا منه الشيء الكثير ، ونال

(١) مضلة لا يهتدى فيها .

كل من رجال سمائننا الإثنى عشرة تسع أعنُز ، بعد أن تخيرت عشراً لنفسى ؛ ولبثنا يومنا هذا نغتذى بكل شواء حنيذ ، ونكرع كل كأس روية ، فى غير تخمة ولا شجى[1] . والآلهة تلك الخمر السلاف السيكونية التى افترعناها من زِقاق أزماروس ! ثم نظرنا ناحية الغرب ، فما راعنا إلا دخان كثيف يَصَّاعد فى الأرض القريبة ، ورغاء وضوضاء كالرعد تنتشر فى جنباتها ، وإذا هؤلاء السيكلوبس المردة ينتشرون فى الأرجاء ، وأمامهم قطعانهم من الشاء والأنعام . أعداد لاحصر لها ... عليها إذا عدّ الحصى يتخلف !

ونمنا ليلتنا مروعين ، حتى إذا بزغت أورورا نهضنا واحتشدنا فى صعيد واحد ، ثم قمت فى رجالى خطيباً ، فقلت : « أيها الإخوان ! لتبق غالبيتكم فى هذه الجزيرة ، فإنى ذاهب فى نفر منكم نرود هذه الأرض ، ونعرف من أنباء أهلها ، ونعلم من أحوالهم ، ونرى هل قوم ظلم وضيم ونضال أم هم ربيون يهشون للمكرمات ، ويخبتون للآلهة ؟ »

« وأقلعت فى نخبة من رجالى فوصلنا طرفاً من الجزيرة ناتئاً فى البحر ، فوقه قلاع مشرفة عليه ، فهبطنا فيه ، وذهبنا نروده ، حتى انتهينا إلى كهف عظيم ضارب فى الصخر ، وقد نما الغار الجميل عالىَ بابه الضخم ... ودخلنا ... وأثار دهشتنا هذه الحظيرة الكبيرة فى وسط الكهف ، تتسع لقطعان لا عدد لها من الأنعام والأغنام والماعز ، ثم هذا الفناء العظيم المحدق بها يفصله عنها سور عتيد من الحجر الصلد ، مُتَرّسٌ بجذوع الحور

(١) الشجى هو الغصص بالشراب

والسنديان ؛ ولقد عرفنا فيما بعد أن صاحب هذه المغارة مارد جبار من أراذل السيكلوبس ، لصق بهذا الطرف من الجزيرة يعسف ويظلم ويملؤه بغياً وعدواناً . . ثم هو إلى الجان والشياطين أقرب منه إلى أى خلق آخر ؛ فوجهه مربد عبوس أبدا ، وهو إلى ذلك هولة تحسبه إذ تراه قطعة من الصخر نحت منها ناطور فوق ناصية الجبل .. ؛ ... وتوقلنا[1] وكان معى رق من خمر معتقة مما أعطانيه مارون بن إيقانت ، قسّ فوبوس ، رب إزماروس ، لقاء ما أبقينا عليه وعلى زوجه وأولاده يوم غزوتنا لقريته ... يا له من كاهن سمح طيب القلب ؟! لقد نفحنى بأ كرم اللهى[2] وأجزل الهبات ؛ وهل أنسى ما حييت تلك البدَر السبع من الذهب الخالص ، وذلك الدّن من الفضة الغالية ، وتلك الجرار الإثنتى عشرة من الخندريس الصرف التى تُشرب باسم الآلهة ؟ لقد كان يفديها بنفسه وماله ، فلم يكن يعرف مخبأها أحد غيره وزوجه وأمينه ... لقد كانت كأس روية واحدة من هذه المدامة تمزج بعشرين ضعف من الماء القراح ، وهى مع ذلك سكر ولذة وروح علوى للشاربين ؛ ثم كان معنا رُكْز[3] به أكل كثير ، وكنا عدداً عديداً من الأبطال الصناديد ، ولكنا مع ذلك كانت تعترينا رعدة ، وكان يشيع فى قلوبنا فزع ، أن يفجأنا هنا الجنى صاحب المكان ، الذى لا يخشى فينا شريعة ، ولا يرده عن أذانا قانون ... ثم توقلنا كذلك ، فأشرفنا على مغارة سحيقة هى

---

(١) توقل : صعد فوق جبل .
(٢) العطايا .
(٣) الركز (الخرج) بضم الراء ، يحمل فيه الزاد .

مقام السيكلوب ومنامته من غير ريب ؛ بيد أننا لم نجده عندها ، فقلنا ربما انطلق بقطعانه يرعاها فى المروج القريبة . ورددنا الطرف فى المغارة فرأينا مصافىَ كثيرة معلقة ينز الحصير(١) منها ههنا وههنا ، فعرفنا أن السيكلوب يصنع الجبن من ألبان مواشيه ، سيما وقد امتلأ المكان بدواط كثيرة مفعمة بالحصير والمخيض . وعلى مقربة منا شهدنا حظائر واسعة لصغار الشاء والحملان والماعز ، وقد قسمت فرقاً حسب سنها ... وقد بدا لبعضنا أن نذهب بما هنالك من جبن وزبد ، وأن نستاق الحملان والجذعان إلى سفائننا ، غير أنى — وا أسفاه ! — تأبيت ، لأننى آثرت لقاء السيكلوب ، رجاء أن ينفحنى من كنوزه ، ويسبغ علىَّ من آلائه ؛ ولذا ، جلسنا ريثما يعود ، وأكلنا من جبنه وزبده ، وأشعلنا ناراً نستدفئ ، ثم إذا هو يطوى المروج الخضر بقطعانه ، وإذا على كاهله الرحب أثقال وأحمال من الحطب وفروع الشجر اليابس ، حتى إذا كان لدى الباب ألقاها فى بطش فاهتزت الأرض ودوّى المكان ، واحتبس وصيد الكهف ، فانقذف الرعب فى أفئدتنا ، فهرولنا مذعورين صعقين ، واختبأنا كالخفافيش فى زوايا المغارة وشقوقها ... أما هو ، فقد أدخل قطعانه ، واحتجز ذكرانها فى الفناء الخارجى ، ثم أخذ فى حلب الإناث فى الرحبة الداخلية .. ونهض بعد ذلك فسد مدخل الكهف بحجر واحد كبير لو وضع على عربتين عظيمتين لم يستطع عشرون ثور ضخم أن تزحزحه من مكانه ... وجلس يحلب النعاج والماعز ، وكلما فرغ من

---

(١) الماء يسقط من الجبن .

واحدة أرسلها إلى جذعانها[1] ترضع ما تبقى فى ضرعها .. وكان يقسم لبنه قسمين ، فيحتفظ بأحدهما لشرابه ، ويمخض الآخر لزبده وجبنه ؛ ثم فرغ من هذا كله وأضرم ناراً عظيمة ما كادت تلتهب حتى رآنا معلقين فوق نؤى الكهف . فصاح بنا : « من هنا ؟ وىْ ! من أنتم أيها الغرباء ، ومن أى البلاد نزحتم وفيم خضتم هذا العباب إلى هنا ؟ آفاقيون ؟ أم تجار ؟ أم قرصان تعيشون فى بلاد الناس ؟ » وزلزلنا زلزالاً عظيما ، وكان صوته الأجش الخشن يلقى الرعب فى قلوبنا فتعتلج اعتلاجاً ثم إنى جمعت ماتبقى من وعيى ، وما أبقى عليه الروع والهلع من إدراكى ، فقلت أجيبه : « نحن إغريقيون أيها العزيز وقد ذرعنا البحر اللجى شرقاً ومغرباً ، وتقاذفتنا فوقه كل ريح ، منذ بارحنا إليوم التى فتحها الله علينا ، لأننا من عساكر أجاممنون الملك ، ابن أتريوس الكريم ، قاهر طروادة ، ومبيد الطرواديين ... وها نحن أولاء ، قد لذنا بك بعد طول النصب ، فنضرع إليك أن تفىء علينا مما أفاء جوف عليك ، وأن تردنا غانمين ... فيا مولانا أكرم مثوانا ، فنحن الأغراب فى كنف چوف أبداً ، وأينما نولّ فإنه معنا » .

وتجهم السيكلوب الجنى وقال مغضباً مستهزئاً : « حسبك أيها الأخ المغفل ما حوت من چوف ، فنحن السكلوپس لا نبالى چوف ، حامل إيچيس[2] ، ولا سكان السماء قاطبة ... أنا أقوى منهم بكثير ، وأنا نفسى ، لن آبه لأعاذير من چوف كبير الأولمب ... ولكن حدثنى

---

(١) جمع جذع بفتحتين كل حيوان صغير غير مفترس .

(٢) درع .

قبل كل شيء متى ألقت سفينتكم مراسيها فى أرضنا ؟ وأين هى ؟ أقريبة أم قاصية من هنا ؟ قل الحق ولا تخف عنى شيئاً » ... وأجبته فى حيطة ورفق ، وقد عرفت ما رمى إليه : « لقد نسف نيتيون رب البحار مركبنا فى اليم نسفاً ، وسلط عليها الزوابع فخرت بألواحها بعيداً .. بعيداً من ههنا ... ونجوت مع هذا النفر من رفاقى فقط إلى شاطئكم » ولم ينبس السيكلوب الجبار بكلمة ... بل أقبل نحونا ، وانقض على رجالى كالصاعقة ، ثم أمسك باثنين منهم ، وأرسلهما فى الهواء ، ثم ضرب بهما أرض الكهف ذات النؤى ، فتهشم رأساهما ، وانتثر المخ فوق الحجارة هنا . . وهنا . وألقاهما بعد ذلك فى الجمر المتأجج حتى نضجا ... واستوى كالسبع الرئبال ، وطفق ينهشهما ... ولم يمض وقت طويل حتى أتى عليهما ، غير مبق على عظمة واحدة ؛ أما نحن فيا لآلهة السماء.. لقد كان هذا المنظر الفاجع يعصف بنفوسنا ، ولم نملك إلا أن نرفع الأكف فنبتهل إلى جوف أن ينجينا . وأن يرحمنا ؛ ولم يكن لنا مع ذلك من أمل فى نجاة !

وبعد أن أشبع الجبار نهمته من هذا اللحم الآدمى الغريض ، وبعد أن شرب من اللبن شرب الهيم ، انطرح بين قطعانه ، وجعل يرسل فى الكهف شخيراً مزعجاً .. وقد حدثتنى نفسى أن أنقض عليه فأحوض فى لَبَّتِهِ بجرازى ، ولكن فكرة سوداء طافت برأسى ، حينما نظرت إلى باب الكهف فأبصرت الحجر الضخم الذى لا يطيق أحد أن يزحزحه ، وتذكرت الموتة الجاهلية المفزعة التى سنموتها إن فعلت .. فقنطت قنوطاً

شديداً ، وأرسلت آهات الحسرة والندامة أنا وأصحابي وانتظرنا بقلوب فارغة تباشير الفجر، ورأينا أورورا الوردية ترسل أول أشعتها من الكوى الصغيرة ، فهب السكلوب إلى قطعانه ، وأخذ في حلب إناثها ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى صغارها ترضع وتنخب ؛ ثم إنه قبض على اثنين من رجالي وفعل بهما كما فعل بصاحبينا أمس ، حتى إذا فرغ من إفطاره ، هب إلى الحجر فزحزحه في سهولة ويسر ، كأنما كان يزحزح غطاء آنية ، ثم استاق قطعانه ، وأعاد الحجر إلى مكانه ، ومضى يرعى بُهمه ، وبقينا نحن ندعو ثبورا .. وفكرت ألف فكرة في وسيلة أنتقم بها من هذا المارد الوحش ، وتوسلت بمينرفا أن أستطيع ... وانفرجت أساريري فجأة ، وأشرق وجهي بنور الأمل ... ذلك أنني أبصرت بجذع زيتون مشذب أعده الجنّي ليكون عصا يهش بها على قطعانه ، فقلت في نفسي : « ولم لا يكون في هذا الجذع خلاصنا ؟ » ، ثم إني أمرت رجالي ببَرْيِ أحد طرفيه ، وكان الجذع طويلا جداً ، يصلح سارية لسفينة كبيرة يعمل فيها عشرون بحاراً ... فأقبلوا عليه ينحتون ويبرون ، وأكببت أنا على نهاية الطرف أحدده ... ثم انتهينا من عملنا وأخفينا الجذع تحت القش الكثير الملقى في الكهف ، وجلسنا نتخير من بيننا أشجعنا وأكثرنا أيداً وقوة ، وأشدنا استعداداً لحمله وغرزه من طرفه المحدد في عين السيكلوب ... وانتهينا من ذلك إلى أربعة ، وكنت أنا خامسهم ... ثم عاد الجني في موعده فأدخل قطعانه وأرجع الحجر إلى مكانه ، وجلس يحلب الإناث ويقسم اللبن ويمخضه ، ويرسل كل جذع إلى أمه ؛ ثم نهض إلينا فبطش

باثنين منا وتعشى بهما ، وقبل أن يستلقى على الأرض ليستريح أفعمت كأساً كبيرة مما كان معنا من خمر مارون وتقدمت بها إليه وأنا أقول : « ألا أيهذا السكلوب ! هاك كأساً من الخمر إذا تحسيتها بعد أكلتك الهنية من اللحم البشرى عرفت أى خمر فقدنا في سفينتنا المغرقة . لقد كنت أحضرتها تكرمة لك إذا أنت أكرمت مثوانا وأطلقت سراحنا وساعدتنا على العودة إلى وطننا سالمين ! ولكن ! أواه ! إن سورتك طامية أيها القاسى الجبار ، وإن أحداً من البشر لن يجسر على أن يقترب من جزيرتكم بعد اليوم ! » . وأخذ الكأس فعبها عباً ، وسر بها سروراً كبيراً ، ثم سأل أخرى فقال : « أيها الفتى ما اسمك ؟ إعطنى كأساً أخرى وإنى متيبك عليها . إن لدينا خمراً صرفاً من أكرم ما تعصر العناقيد ، يسقيها جوف من شآبيبه ، ولكنها أبداً لا تبلغ هذه الخمر البكر جودة » وأعطيته ثانية وثالثة ، وراح المجنون يشرب ويشرب ، ولما شهدت النشوة ترقص برأسه قلت له فى ظرف : « أيها السيكلوب لقد تساءلت عن اسمى ، ألا فاعلم أنه أوتيس[1] ، وبه أسمى فى بلادى ! ولكنك وعدت أن تثيبنى على ما قدمت لك من خمر ، فماذا عساك مانحى ؟ » فاستهزأ السيكلوب وقال : اطمئن ياصاح ! سأهب لك أن تكون آخر من آكل من خوانك .. هذا هو جزاؤك ! » وتثاءب وتثاءب ، ثم انطرح وسط قطعانه يغط فى نوم عميق . وكان يصعد أنفاسه بقوة فتنقذف من بلعومه

---

(١) أوتيس Outis معناها (لا أحد) ولم يستحسن مترجمو هومر ترجمتها ، لأنها قد تعنى (ذو الأذنين الكبيرتين) ولم نؤثر ترجمتها كذلك.

شوائب من خمر ، ممتزجة بقضمات من لحم بشرى ؛ وقفزنا إلى جزع الزيتون فوضعنا طرفه المحدد المبرى فى الجمر المتأجج حتى تأجج مثله ، وبكلمات قليلة أثرت النخوة فى نفوس إخوانى حتى لا تخذلهم قواهم ، ثم استعنت الآلهة فابتعثت فينا قواها السحرية ، واستجمعنا كل ما فينا من مُنّة اليأس ، ووضعنا الطرف المشتعل في عين السيكاوب المقفلة ، وحركنا الجذع وطفقت أنا أقلبه فيها من مكان عَلٍ ، كما يفعل السّمان الصناع عتقاته فى خشب السنديان ... وانبجس الدم من عين السيكاوب العمياء ، وجحظ إنسانها كأنه عين حمئة من دم وعَلَز . وقصاراى : لقد كنا كالحداد الماهر الذى يطفىء سلاحا محمى في ماء بارد ! ! ولقد صرخ السيكاوب[1] صرخة ردد أصداءها الكهف . ثم رددتها الغيران والجبال المجاورة ؛ وذعرنا نحن ، فلصقنا بالشقوق والزوايا ؛ وراح الجنى الجبار يخبط فى ظلام العمى بعـــد إذ انتزع الجذع المشتعل من عينه ، وهرول كالجبل نحو الباب فوقف عنده ، وطفق يولول ويهتف ويصيح ، ويدعو جميع إخوانه السيكاوپس كلاًّ باسمه ، فاجتمعوا إليه من كل فج عميق ... وقال قائلهم : « ماذا دهاك يا پوليفيم حتى تروعنا هكذا فى ظلام الليل وحتى تقض مضاجعنا بصراخك المظيع ؟ هل خِفْتَ أن يستاق أحد قطعانك ، أم خشيت أن يقتلك أحد بقوة أو غدر ؟ » وقال پوليفيم وهو يتصدع : آه يا أصدقائى ! إنى أموت ! ولقد قتلنى أوتيس ! » فقال

(١) يحسن أن نلفت نظر القارىء إلى طبيعة السيكلوب وأنه لا يملك إلا عينا واحدة

قائلهم : « إن كان أوتيس — الذى هو لا أحد — قد ألحق بك أذى فما صنع بك هذا إلا جوف ؟ تجلد يا صاح ، وادع أبانا بيتيون ليساعدك ، يأتك من أعماق اليم » ثم تركوه وانصرفوا لشأنهم ، وضحكت أنا فى سريرتى لأنى استطعت أن أعمى عليهم بهذا الاسم الملفق المفترى : وما برح بوليفيم يبكى ويعول ويهزه الألم والأسى ، حتى زحزح الحجر الذى يسد الباب ، وجلس عنده ، ماداً ذراعيه ليمنع أحداً منا أن يفلت أو أن يذهب بعض أنعامه ... إنه يحسبنا بلهاء مثله !! . وجلسنا نعمل الفكرة بعد الفكرة ، ونرسم الخطط تلو الخطط لنجاتنا ... حتى تاحت لى فكرة حسنة ، أيقنت أنها تملتنا من هـذا السجن السحيق إن كان شيء مستطيعاً أن يطلق سراحنا منه ؛ لقد فكرت وفكرت ، فبدا لى أن لدى السيكاوب كباشاً كنازاً تستطيع أن تحملنا إذا رُبط كل منا تحت بطن واحد منها . لقد كانت الكباش سمينة حقاً ، ذات فراء كثة وقوة كبيرة فقمت من فورى فجدلت من أغصان الصفصاف التى كان السيكاوب الشنيع ينام فوقها ، وجعلت من كل ثلاثة حبلا واحداً ، ثم ربطت كل رجل تحت بطن كبش كبير قوى جعلته بين كبشين لا يحملان أحداً ، بل يكونان وقاية للكبش الذى يحمل رجلا بينهما ... أما أنا فتعلقت بصوف الكبش الأخير ، وبقيت ساكناً صامتاً ، ومكثنا هكذا ننتظر الفجر المقدس الرهيب ، بعيون واكفة وقلوب واجمة ... حتى بزغت أورورا فهرولت الذكران كعادتها للمرعى ، وبقيت الإناث لكى تحاب ، وتهادت الكباش بالأثقال المعلقة تحتها وهى تكاد تنوء بها ، وكان السيكاوب

لايزال يعول و يشكو بثه إلى غير سميع ، وكان يلمس بيديه ظهور الكباش وهو لايدرى ما تحتها ، حتى إذا رز كبشى ، زلزلت زلزالا ، وسمعته يقول له وهو يتحسسه : « يا كبشي الحبيب مالك استأنيت هكذا وكنت دائماً سباقاً إلى المرعى على رأس القطيع تقصم الكلأ الحلو . سباقاً إلى الغدير ذي الخرير تنهل من مائه السلسبيل ؟ بل كنت سباقاً كذلك إلى مأواك هنا . فى كل مساء ؟ ويحك و يحك يا كبشى الحبيب ! لقد أسيت لى ، وحزنت من أجلى ، وشعرت بما دهى صاحبك من التعس الرجيم أوتيس ، وأتباعه اللؤماء المفلوكين . أوتيس الذى سحرنى بخمره . ويل له ؟ إنه لن يُفلَت من الموت اليوم ! آه لوكان قلبك مثل قلبى ، وآه لو كان لى بصرك الحديد فيدلنى أين احتبأ أوتيس التَّعِس ! إذن كنت أحطم رأسه فوق هذا الصخر ، أوتيس الوغد ... الذي اسمه لا أحد !! فهو لا يساوي شيئاً ؟» .

ثم أفلته المغفل فانطلق الكبش فى إثر رفاقه ، حتى إذا كنا بعيدين من الكهف ومن صاحبه قفزت من مكمنى ، وعدوت فأطلقت سراح رفاقى ، وسقنا نخبة من أحسن النعاج إلى حيث سفينتنا المختبئة فى الجون الهادىء فى ظلال الحور والسنديان ... وأبحرنا من فورنا فوصلنا إلى إخواننا فى الجزيرة الأخرى، الذين هنأونا بقدر ما ذرفوا الدموع على ضحايا بوليفيم !! واعتزمنا الإبحار فاستعد كل فى سفينته ، وأقلعنا لا نلوي على شىء . حتى إذا كنا على مبلغ الصوت من الشاطىء ، نهضت وجعلت أهتف بالسكلوب بوليفيم هكذا : « بوليفيم ! لقد بؤت بما صنعت يداك ، وكان جزاؤك وفاقاً ، أيها النذل الخسيس ! لقد حسبت أنك تغتال رجال

قائد لا سلطان له عليك ، ولا قدرة له على الانتقام منك ، فرحت تغتذى كالوحش بلحم ضيوفك الذين لجأوا إليك وتفيأوا ظلك . فاهنأ الآن أيها الهولة بما حل بك ! » . وما كدت أصمت حتى ثار ثائره وغلت مراجله ، وانتزع صخراً كبيراً من شعاف الجبل ، وقذف به فى قوة وعنفوان ناحية الصوت ، فهوى الصخر على مقربة منا ، وكاد يهشم سكان السـفينة ؛ وقد انفرج البحر ، وانشطرت أمواجه ، وارتدت السفينة نحو الشاطىء حتى لـكادت أن تغوص فى رماله وتتحطم على أواذيه ، لولا أن أمسكت بالسارية الـكبرى وجعلت أدفع وأدفع حتى عادت السفينة إلى مكانها فى البحر . وابتعدنا قليلا .. وجاهد رجالى بمجاذيفهم حتى كنا على مسافة هى ضعف المسافة الأولى . وهنا ، حاولت أن أصيح بالسيكاوب مرة أخرى ، غير أن إخوانى حالوا بينى و بين ذلك ، وسمعت بعضهم يقول : « ويك أوديسيوس ! لم تهيج الجنى بكلماتك . وقد كاد الحجر الذى قذفه إلينا يودى بنا جميعاً ويحطم سفينتنا على الشاطىء ؟ أما بحمد الآلهة التى أنقذتنا من ساعديه الجبارتين ، وهو لو سمع ركزاً من أحدنا لهشمنا جميعاً قبل أن نغادر غاره ؟ » على أننى ما أصخت لهم ، بل هتفت بالمارد الجبار أقول : « أيها السيكاوب الطاغى ! إذا سألك أحد عن عماك فقل له أعمانى أوديسيوس ابن ليرتيس الإيتاكى ! » وتأوه المارد حتى كاد يتصدع وقال : « ويلى منك ! لقد صدقت النبوءة ، وتحقق ما قال تلموس يوريميد النبى الذي شب بيننا وطالما تحدث إلينا معشر السيكاوبس عما خبأ القضاء فى صحف الغيب لنا ؛ لقد قال لى إنى سأفقد بصرى على يد

رجل من البشر يدعى أوديسيوس ، فظللت أنتظره ، وكنت أحسبه مخلوقا طويلا عظيم الجسم بادي القوة ... فإذا هو أنت أيها القزم — اللاشيء ! — الذى قهرتنى أولا بالخمر ثم أذهبت بصرى وأطفأت النور من عينى ! أوه ... ولكن . عد إلى يا أوديسيوس وحل على ضيفاً من جديد ، أكرم مثواك .. وأصل من أجلك لأبى ... نبتيون .. الفخور بى ، أن يمهد لك البحر ، ويطامن من تحتك الموج حتى تصل إلى بلادك سالما ... إنه وحده هو اللطيف بى ، وليست قوة فى الوجود غيره تستطيع أن تشفينى وترد على بصرى ! » فقلت له : « بنفسى لو استطعت فقذفت بك من حالق إلى قرار جهنم فلا يقدر أحد على رد بصرك إليك — حتى ولا أبوك هذا ! » .

وغيظ السيكلوب وحنق ، ورفع كفيه إلى السماء يصلى لأبيه هكذا : « أبتاه نبتيون المحيط بالأرض اسمع دعائى ، يا صاحب الشعر اللازوردى ، إذا كنت حقاً أبى ، وإذا كنت حقاً تفخر ببنوتى فاحرم هذا القزم المدعو أوديسيوس بن ليرتيس الإيثاكي من العود إلى بلاده ، إلا أن يكون هذا قضاء فى الأزل فأقم العقاب فى طريقه ، وشرده طويلا فى البحر ، وأغرق سفائنه ، واقبر فى الأعماق أصحابه ، وأحوجه إلى ذل السؤال وطلب المعونة من الناس ليمدوه بمركب يعود عليه ؛ وإذا عاد فليلاق الهم والغم مقيمين ببابه ... آمين ! » ولبى نبتيون ، ورفع السيكلوب حجراً أضخم من الأول ، وجعل يهوم به بكلتا يديه ، ثم قذفه قذفة هائلة ، فذهب يزنق فوقنا ، وسقط وراءنا بمقربة من السكان ، فانشطر البحر فرقين كل فرق كالطود العظيم ، ثم انحسر الماء فجرت السفينة إلى الشاطىء

مرة أخرى ، ولـكنها هذه المرة أرست على الشاطىء الآخر الذى أرست عنده سفائننا الأخرى ، حيث أقام إخواننا يشهدون المعركة الهائلة ويجزعون ... ثم إننا نزلنا إلى البر ، وفرقنا الأنصبات من نعاج السيكاوب بيننا وكان من نصيبي ذلك الـكبش المفدى الذى بجانبى ، فذبحته على رمال الشاطئ قرباناً لجوف المتعالى ... وا أسماه ! إن أكبر ظنى أنه لم يقبل قربانى ، لأن أكثر سفائننا أغرقت فيها بعـد ... وأكلنا هنيئاً ، وشربنا الخمر المعتقة ، وانتظرنا مد البحر ، ولـكنه استأنى علينا ، فنمنا حتى نضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، ونهضنا ... ونشرنا الشراع وأصلحنا القلاع ، وأبحرنا ، بقـــلوب واجفة ، ونفوس نال منها الهلع ، لائذين بالفرار .

أودسيوس يروى قصته

ا — إيولوس وجعبة الرياح الأربع
ب — فى جزيرة الجبابرة
ح — غرام سيرس

« و بلغنا جزيرة الأيوليين حيث يحكم الملك إيولوس بن هيوتاس ، حبيب الآلهة . وهى جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسى الهائل ، وأواذيها التى يتكسر فوقها الموج . ولقد زوج الملك أبناءه الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم فى قصره المنيف ، فى فىء وارف من حب الملـكة ، فى بُلَهْنِية ورغد ، وعيش واسع مُخفرج ، و نعمى

طائلة ، ولذائذ شتى ... يقضون وقتهم فى لهو برىء ومرح ، ويأوون إذا أجنهم الليل إلى سرر موضونة ، وزرابى مبثوثة ... وأرائك من حرير .

ولقد لقينا الملك بالبشر والإيناس ، وأقمنا فى كنفه شهراً كاملاً ، ناعمين طاعمين ؛ ثم سألنى فقصصت عليه قصة (إليوم) وكيف سقطت فى أيدينا ، وما كان من إبحار أسطول الآخيين بعد ذلك ، وما تم من رحلتنا فى ذاك العباب ، عاشين ، ضاربين على غير هدى ... ثم إنى ضرعت إليه أن يعيدنى فى خفارته إلى بلادى ، فأجاب سُؤلى ، وأمدنى بكل ما ييسر رحلتى ، ثم تفضل فمشى معى إلى البحر ، حيث قدم إلى جعبة مصنوعة من جلد عجل كبير جسدٍ ، خيل إلىّ أنه ذبح فى سن التاسعة ، وهى جعبة من صنع جوف سيد الأولمب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياح العالم أجمع ، وأحكم رباطها بسلك فضى متين ، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا بإذن ... وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس — رب النسيم الحلو — فملأ شراعنا ، وهب بين أيدينا ... وا أسفاه ! لقد كانت هباته اللطيفة الرخية عبثاً ، وضاعت فى غفلة من رجالى سدى ! فلقد جرت بنا الفلك آمنة مطمئنة طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا شطئان إيثاكا فخفقت قلوبنا فرحا ، واستطعت أنا نفسى أن ألمح مواطنى الأعزاء يوقدون النار فى شعاف الجبال ... بيد أنى كنت منهوكا موهوناً من كثرة العمل ووعثاء السفر ، وطول السهر والمراقبة ، فداعبت عينى سِنة من الكرى ، لأنى كنت أسهر على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ،

ولم أكن آمن أحداً من رجالى على الاضطلاع بها خشية الوَنَى، ومخافة التأخير ... وبينما كنت نائماً، لعب الوسواس فى صدور رجالى، زاعمين أنى أحمل أذخاراً من الذهب والفضة أسبغها علىّ إيولوس الملك ... قال قائلهم: « يا للآلهة! أبداً ما وطئت قدما أودسيوس بلاد قوم حتى تهالكوا عليه فرحين معجبين مكبرين! وهو اليوم يعود من طروادة ومعه من طُرفها وسَلَبها الجم الكثير ... أما نحن فوا أسفاه علينا! لقد شاركناه تلك الرحلة المشئومة، وها نحن نرضى من الغنيمة بالإياب، ونعود منها أصفار الأيدى، لا أمامنا ولا وراءنا! وها هو أيضاً قد فاز دوننا برفد ملك الرياح، إيولوس العظيم، هلموا يارفاق! البدار إلى هذه الجعبة ننظر ما احتوت من أصفر وأبيض، وأعطيات وهبات ... ولُهَى! »، وأقبل بعضهم على بعض، وامتدت أيديهم إلى الجعبة فحلوا رباطها ... واحسرتاه! لقد انطلقت الرياح الحبيسة، وزمجرت العواصف الهوج من كل صوب، وطفقت تكسحنا فى شدة وعنف .. بعيداً ... من إيثاكا! ولقد قفزت من غفوتى خائفاً مذعوراً ... حتى لخيل لى أن طوفاناً قد غمرنا! ... وظللت برهة فى ذهول ودهش، وطغت الأحزان على قلبى، ورانت الهموم على نفسى، وفت اليأس فى عضدى ... ولكننى لم أجد من الصبر بداً؛ فتحملت الكارثة فى هدوء وصمت، وعصبت رأسى بثوب شف، وانبطحت فى قمرتى ... وراحت العواصف تدفع الأسطول فى غير هوادة، حتى بلغ شطئان الأيوليين مرة أخرى ... وهنالك بكى صحبى ... ولات حين بكاء! وهبطنا الشاطئ، وكان همنا

أن نرتشف من ماء إبوليبا العذب رشفات ، ثم جلسنا نعد أكلة نحلى ونلتهمها ؛ وتوجهت أنا وصديق إلى قصر الملك ثانية ... وقد كان يجلس لوليمة كبيرة هو والملكة الحسناء المصون ، وأبناؤه الغر الميامين ... واشد ما بدهه أن رآنا بعد طول النأى ، فحدجنا وقال : «ويك أودسيوس بم عدت أدراجك ؟ وأى سلطان مشئوم لوى عنانك بعد إذ أرسلناك مزوداً بخير زاد لتصل إلى بلادك ، وتلقى آلك ؟ أو أى آل آخرين ؟ ! » ، وكان فؤادى ينخلع حين قلت أجيبه : « تبارك الملك ! لقد خاننى رجالى اللؤماء ، وخاننى معهم طائف من الكرى ! فإذا شاء الملك فليجبر ما انصدع منا ، وهو لا يزال صاحب الحوْل والطوْل ! » ... وهكذا شاءت المقادير أن أقف ضارعاً إلى هذا الملك مرة أخرى .. وقد تلمث أبناؤه صامتين لا ينبسون .. واكفهر وجه الملك وقال : « أيها الرجل انطلق . أغرب عن جزيرتنا هذه يا أتعس الناس ! إنطلق فوالله إنى لأستغفر الآلهة أن أكرمت مثوى رجل مثلك عدو نفسه ، ممقوت من الأرباب ، مغضوب عليه من السماء ! » وهكذا طردنى الملك شر طردة ، فمضيت على وجهى ، ولقيت أصحابى ، وأبحرنا نذرع اليم المصطخب بمجاذيفنا ، ونسكب فى هذه الأعماق المصطربة قوانا ، لا أمل لنا فى الوصول إلى بلادنا ، ولا رجاء فى الخلاص من هذه البؤوس ! ووصلنا مدينة ليستريجونيا بعد نصب ستة أيام بلياليها ... تلك المدينة الموحشة التى بناها ملالاموس العظيم ... والتى (تغزو الحشرات مروجها نهاراً ،

فيخرج الرعاة بقطعان الغنم ذات الفراء الكثة التي تحمى الحيوانات من ذبابة الماشية وتدفع عنها غائلتها ، فإذا جن الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرها ، وذهبوا بالنعم لترعى فى هدأة الليل ، ولتكون بمأمن من غوائل الذباب الذى يكون قد غلبه النعاس)[1] . وصلنا إلى هذه المدينة فألفيناها محصنة بسور عظيم من الحجر الصلد ، ينحدر قليلا قليلا إلى الميناء ، بمضيق صغير لا تعلو فيه موجة ، ولا يتحرك فيه الماء ... وقد أدخل رجالى سفائنهم فى هذا البوغاز ، وآثرت أنا أن أظل بسفينتى عند فمه مما يلى البحر ، فألقيت مرساى ، وثبتها فى حجر كبير ، ثم وثبت إلى الشاطئ ، وتسنمت ربوة عالية ، وأخذت أجيل ناظرى فى الجزيرة... ولم أقف لإنس أو حيوان على أثر ، وبدت الأرض جرداء بلقعا ؛ بيد أن دخاناً كثيفاً كان يتصاعد من وسطها ؛ فرأيت أن أبعث باثنين من رجالى جعلت عليهم ثالثاً رئيساً ، ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة ، وليتجسسوا أخبار أهلها ... وقد قص هؤلاء آثار العربات التى يستعملها السكان فى نقل الأخشاب من الغابة إلى مدينتهم ؛ ولقوا عند مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ؛ فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك آنتيپاتاس ملك هذه البلدة ... ومشت بين أيديهم حتى كانوا فى قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة ، فلم يجسروا أن يمدوا إليها أبصارهم مما غشيهم من

(١) كلام هومر هنا غامض شديد الغموض ولذلك اتكلنا فى إبانته على شرح مترجميه

الفزع وكانت هذه هى الملكة ، التى صاحت ، عند ما لمحت رجالى ، بزوجها ، فأقبل يهتز وتزلزل الأرض من تحته ، وما كاد يلمح هؤلاء الغرباء حتى أمسك بواحد منهم وخبط به الأرض فحطمه ... كأنما أقبل ليخوض معمعة .. ؛ وانطلق الآخران لا يلويان على شىء ؛ حتى بلغا سمائننا .. ثم زمجر الملك بصوت قاصف كالرعد يدعو إليه رعاياه ، فأقبلوا إليه من كل حدب ، مردةً جبارين كالأغوال ، لا عدد لهم ، ولا تقع العين على أبشع منهم ... ثم تهاوَوْا إلى الشاطئ حيث أرست سفننا ، فجعلوا يقذفونها بحجارة من سجيل ، جعلت رجالنا كعصف مأكول ، وجعلت مراكبنا حطاماً كان يهوى إلى الأعماق ؛ بينما هؤلاء الجبابرة ينشلون قتلانا بحرابهم ليعودوا بهم إلى بيوتهم فرائس سائغة يملأون بها بطونهم ... وهكذا استمرت هذه المذبحة الدامية . وكنت واقفاً فى مركبى ، وجرازى إلى جانبى ، فأسرعت إلى حبال المرساة فقطعتها به ، وبادر رجالى إلى مجاذيفهم فأعملوا فيها أيديهم ... وبذلك نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التى كانت تتطاير فوق رؤوسنا وتتهاوى عن شمائلنا وعن أيماننا ، فتشيع فى فرائصنا خطر الموت ... وظللنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تعتلج قلوبنا هماً وأسى على إخواننا ... ثم رسونا آخر الأمر عند جزيرة إيايا ، حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات الشعر الكهرمانى ، أخت إيتيس الحكيم من أبيها الشمس ، وأمها پرس ابنة

أوشيانوس[١] . وكأنما مشت عناية السماء بين أيدينا فرسونا فى حون هادئ ساكن فى غير جلبة ولا ضجيج ، ثم هبطنا إلى الساحل فتلبثنا فيه يومين كاملين نستجم ونستروح مما بنا من أين وجهد ، وكلما فرائس لنا فى أضالعنا من شجو وهم وشجن . ثم إنى تسلحت برمحى وسيفى وحثثت خطاى فى أسناد الجبل حتى كنت فى ذراه الشاهقة ، ووقفت ثمة أنظر وأتحسس ، فلمحت فى البعد دخاناً يصاعد بين الدوح والزهر من قصر سيرس . وبدا لى أن أتوجه إليه من فورى عسى أن أجد عنده خيراً . ولقد ترددت بعد ذلك كثيراً وكدت أعود أدراجى إلى السفينة لأرسل نفراً من رجالى يكشفون لى الطريق إلى القصر ؛ وما كدت أخطو خطوات حتى ساق إلى أحد الآلهة ظبياً غريراً شرد من المرج المعشب الحلو ليستقى مما ألح به من ظمأ فأرسلت إليه رمحى فقصم ظهره ، وسقط يتخبط فى دمه ؛ وقطعت شيئاً من عساليج الصفصاف وجدلت منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أياطله واحتملته على ظهرى ، ومضيت قدماً إلى رفاقى متوكئاً فى كل خطوة على رمحى إذ لم تعد شيخوختى تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير ! وهتفت برجالى فى مرح وظرف : « هلموا يا رفاق فلن نقضى قبل أن تحين آجالنا ! هلموا إلى ظبى فنيق وخمر عتيق ، واطرحوا ما بكم من هم وضيق ... » وأقبلوا فرحين وشمروا عن سواعدهم وهم يستهولون من جدل هذا القنص الغريض ، وظللنا يومنا هذا نطعم ونشرب ، حتى إذا أرخى الليل سدوله انكفأنا على الشاطئ

---

(١) لم يتعرض شراح هومر لهذه الفقرة ولذا أثبتناها كما هى .

نغط فى سمات هادىء … وذرت أورورا ابنة الفجر الوردية فهتفت برجالى فهبوا ، ثم جلسنا ساعة نتشاور ، وأنا أقول لهم : أيها الرفاق ! يا إخوان الشدائد! ها نحن أولاء قد لصقنا بهذه الأرض ولسنا ندرى أيان نذهب؟ هل نشرِّق ، أو نغرب ، أو نظل هنا أبد الدهر ؟! ولكن هلموا ننظر لأنفسنا مخلصاً مما نحن فيه : فإنى حينما تسنمت ذروة هذا الجبل أجلت الطرف فى أرجاء هذه الأرض فعرفت أنها جزيرة تترامى إلى مدى البصر ؛ ثم إنى آنست دخاناً يعلو فى الجو من وسطها ، ينبثق من سروات طوال فيها ، فروا لأنفسكم أثابكم الله ! » — وكأنما سقط فى أيديهم ، وكأنما حاقت بهم ذكريات أنتيباتاس وقومه اللستريجون ، وما لقوا من هول السكالاب أكلة اللحم البشرى ، فبكوا ساعة من الزمان ، ثم استرجعوا حيث لا يجدى البكاء … ثم قسمتهم فريقين ، جعلت على أحدهما يوريلاخوس ، قِرْن الآلهة ، وجعلت نفسى على الفريق الآخر ، وجلسنا نقترع على من يذهب لارتياد الجزيرة ، فوضعنا الرقاع فى خوذتى ، ثم كانت القرعة على يوريلاخوس ، فمضى ، وتحت إمرته اثنان وعشرون من رفاقنا ، كانوا جميعاً يذرفون الدمع خوفاً وفزعاً مما وجهوا إليه ، وكنا نحن نبادلهم دمعاً بدمع وبكاء ببكاء … ووجدوا قصر سيرس فى بطيحة[1] منخفضة ، فماذا رأوا ؟! قصر منيف مُمَرَّد تحدق به تماثيل حية من سباع وذؤبان سحرتها سيرس بعقاقيرها ذات القوى الخارقة الخفية … ولم تؤذهم تلك الوحوش ، بل كانت تثب على أرجلها الخلفية فى دل وتلطف ، ثم تبصبص

(١) الأرض المتسعة .

بأذنابها كأنها كلاب السادة العظماء حينما تتملقهم فى وليمة من أجل لقيمات ... وتسمعوا ، فإذا سيرس تتغنى بصوتها المعجب المطرب وهى تعمل على نولها ، مشغولة بنسيج سابرى عبقرى عجيب ، ليس يقدر على مثله إلا الآلهة . وكان فى رجال الفريق أمير عظيم هو عنــــدى أربطهم جأشاً فقال : « أتسمعون أيها الأصدقاء إلى هذا الغناء الحلو تردده جنبات القصر ؟ إنه لا شك غناء ربة الدار التى تعمل على نولها ، ولست أدرى أربة خالدة هى ، أم من بنات حواء ... وعلى كل هلموا نهتف بها » . وتنادوا ، وأقبلت سيرس فهشت لهم وبشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا .. فدخلوا ، وا أسفاه ، إلا يوريلاخوس فقد خشى أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . قادتهم إلى بهو كبير صفت فيه عروش فخمة من ذهب ، ما كادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساقى بخمر وعسل ثم جىء بجبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعى آكليها ، وتنسيهم ما سلف من أمورهم ، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم ، ثم ضربت كلا بعصاها السحرية بعد إذ أكلوا ورووا ، واستاقتهم إلى حظائرها حيث مسخوا فكانوا خنازير ، وإن أبقى السحر على ألبابهم . أما طعامهم بعد هــذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والكريز[1] الكلابى . وما إلى هذا وذاك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة .

وأقبل يوريلوخوس ينتفض من الذعر ، وينعقد لسانه فما يكاد يبين ، ثم هدأ روعه قليلا فطفق يصعقنا بأنباء ما رأى : « أوديسيوس

---

(١) الكريز : وجمعه الكراز بالضم الأقط ، والمراد هنا فاكهة الكريز .

ياذا المجد ! لقد ذهبنا نتحسس كما أمرتنا ، ونرود هـذا الوادى الأشب ، فوجدنا قصراً مشيداً فوق أكمة عالية ، وسط بطيحة منخفضة ، ذا قبة سامقة جلست تحتها امرأة أوربة — لا أدرى — وهى لا تفتأ تعمل على منسج بخفة وصنعة ، وترسل ألحاناً حنوناً حلوة ؛ وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت فلقيتهم بالبشر وفتحت بابها على مصراعيه فدخلوا جميعاً — حاشاى — فقد أوجست خيفة ، ووقر فى قلبى أن ثمة شركاً نوشك أن نتردى فيه ؛ وقد راقبت رفاقى إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة ، ثم هالنى ألا أراهم فجأة ! »

وما كاد ينتهى حتى قفزت إلى سيفى فتسلحت به وأخذت قوسى وسهامى ، وأمرته أن ينطلق بين يدى إلى حيث ذهبوا من قبل ، ولكنه ركع أمامى وتعلق بساقى وجعل يرجو و يلحف فى الرجاء ألا أذهب ... « فإنك لن تفشل فى إعادة رفاقنا فقط ، بل قد تفشل فى أن تنجو بنفسك . فانطلق بمن بقى منا ، و يا حبذا لو استطعنا الفرار ! » ولكنى أجبته أن له أن يبقى هو فيأكل و يشرب فى السفينة ، ويكون بنجوة مما فزع منه ، أما أنا ، فلم أر ضرورة لبقائى .

وانطلقت لا ألوى على شىء ، ولكنى قبل أن أبلغ البطيحة التى بها القصر ، لقينى هرمز الحبيب إله العصا السحرية . وكانت مخايل الصبا و بداوات الشباب تتدفق فى بردتيه ، وحمرة الورد تلتهب فى خديه ، لقينى فصافحنى متلطفاً وقال : « أيها التعس أيان تضطرب وحدك فى هذه الأرض ، وقد حبست سيرس من أرسلت من رجالك فى حظائرها بعد إذ سحرتهم إلى خنازير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك

معهم إلى الأبد ؟ ولـكن اصغ إلى ؛ إنى سأحبط ما فعلت ، وسأحميك وأحفظك . خذ هذا العقار[1] ولا يهمك بعد أن تدخل قصر سيرس فإنه ينقذك من كل خطر ... وهلم أعلمك ما عندها من السحر ، إنها ستمزج لك كأساً من الشراب مما عندها من رجس ، وستضع لك منه فى طعام تقدمه لك فـكل وارو ولا تبـال ، فهذه البقلة العجيبة التى أعطيك ستحبط كل ما تحيك لك فلا تقـدر على مسخك كمن مسخت من رفاقك ... فإذا عالجتك بعصاها السحرية فاهجم عليها بسيفك غير هياب ، وأرسل إليها شرر الغضب من عينيك فإنها حينذاك تنقاد لك ، وتقودك إلى فراشها ، وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى ، فإياك أن تنصاع لهـا حتى تعطيك موثقها أن تبطل ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا تمسك بأذى ، واحـــذر يا صاح أن تدنس فضل خيرك بما ركب فى طبعها من شر . » وانحنى رسول الآلهة فالتقط عشبة من الأرض ثم وضعها فى يدى وأخـذ يكشف لى أسرارها ويقص علىّ قواها الخارقة . وذكر لى أن اسمها (مولى) ، وبه يدعونها فى السماء وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف يشفون بها رُقَى السحر ... وكانت جذورها سوداً حالكة السواد أما زهرتها فكانت بيضاء ناصعة البياض كاللبن ... وودعنى هرمز ، ثم رف ورف ، وعرج فى السماء . وانطلقت أنا أخبط فى ظلمات من هواجسى حتى كنت لدى باب ربة السحر التى وجدتها تعمل كما ذكر لى صاحبى على نولها ... وصحت صيحة عالية ، فأقبلت تتهادى

---

(١) واحد العقاقير .

نحوى وفتحت مصاريع أبوابها ، ودعتنى ، فدلفت وراءها ، حتى كنا عند عرش عظيم ممرد فضى ، ذى درج ، فاستويت عليه ، وذهبت هى فمزجت لى كأساً من الخمر بشىء من عقارها ، وقدمته لى فاحتسيته ، بيد أنى لم أتغير ولم أتحول عن صورتى ، فضربتنى بعصاها السحرية وهى تقول : « هلم إلى الحظيرة حيث تقر مع رفقائك » ولم تكد تصمت حتى وثبت من مقعدى وامتشقت سيفى ، وهجمت عليها ، وفى عينى جحيمان من نار الغضب ؛ فروعت ربة السحر ، وزلزلت زلزالا عظيما ، وجرت نحوى ، وركعت عند قدمى ، وتعلقت بساقى ، وأخذت تضرع إلى وتقول فى بيان رائع وكلمات باكية : « عمرك الله من أنت ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يا من لم تسحرك جرعتى الهائلة التى لم يذقها أحد وظل فى صورته لحظة واحدة ! ولكنك تحمل قلباً لا تجوز عليه نفثات السحر … هلم . . تعالَ … إلىّ إلىّ أعرفك أحسن المعرفة . إنما أنت أوديسيوس الصناع ذو الذكر ، ولقد وصلت إلى هنا من إليوم بدورك فلم يشأ هرمز ذو العصا الذهبية أن يخبرنى بمجيئك ! ولكن اغمد سيفك ، وهلم ننعم بالعناق فوق فراشى الوثير كزوجين ، وليفرخ روعك وليهدأ بالك .. اطمئن يا أوديسيوس هلم ! » وصمتُ لحظة ثم انطلقت أجيبها : « سيرس ! كيف تتصورين أن يفرخ روعى ويهدأ بالى وقد حبست فى رحابك رفاقى وشركاء رحلتى بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؛ ثم تخشين إفلاتى فتخادعيننى وتهرجين على بطلاسم الحب ، داعية إياى إلى فراشك لتشوبى صفاء فضيلتى برجس رذيلتك … لا … لا ، إنى لن أقاسمك

هذا الفراش حتى تقاسميني أغلظ الأقسام ألا تلحق بي أذى ، وألا تحاولى الإضرار بى » وراحت تحلف وتؤكد الحلف ، وتقسم وتغلظ فى القسم ، ثم إنى انطرحت فى سريرها الفخم الديباجى . وأقبلت أربع من عرائس البحر ، حطرن من اليم وأقبلن من العيون والحرج المجاور لينهضن بخدمتنا ؛ أما الأولى فقد أصلحت من سريرنا وطرحت عليه مطارف الخز ؛ وأما الثانية فقد صفت الموائد ورتبت الكراسى ، وجاءت الثالثة بزق عظيم من خمر طيبة ملأت بها الكؤوس الذهبية المنضدة فوق الموائد — أما الرابعة فقد أعدت لى حماماً ساخناً وضمختنى بأحسن الروائح والطيوب ، حتى انتعش جسمى الخائر ، وتأرجت روحى الفاترة ... ثم ألبستنى ثوبين غاليين من أندر الديباج ، ومشت بين يدى إلى عرش عظيم مزدان بأحسن التصاوير ، مطعم بالذهب والفضة ، فاستويت عليه ، واضعاً قدمىَّ على درج من لباد ناعم . . وأقبلت بعد ذلك عروس أخرى فصبت الماء على يدى من إبريق من ذهب ، فى طست من فضـة ، وجاءت بمائدة حافلة بأشهى الآكال فوضعتها قدامى ، لـكننى ما مددت إلى شىء من ذلك يدى ، لما كان يساورنى من الهم ، وما يشغل بالى من الانتقام ؛ فلما لحظت ذلك سيرس أقبلت تميس ، وأخذت تلاطفنى وتقول : « مالك تجلس ساكناً هكذا يا أوديسيوس ، كالذى غشى عليه ، ما تـكاد تمتد يدك إلى شىء ، كأن ألف وسواس يخامرك ؟ ألا تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى فيها ؟ ! ألا ما أكبر غفلتك يا صاح ، إطمئن ، فلقد أعطيتك موثقى وحلفت لك بأغلظ الأيمان ! » وأجبتها قائلا : « كيف تمتد يدى

إلى طعام أو شراب ورفاق لا يزالون فى إسار سحرك ؟ أبداً لن أذوق شيئاً حتى تردّيهم إلى صورهم ، ثم ألتقى بهم » ونهضت تحمل عصاها السحرية ، وذهبت من فورها إلى الحظائر حيث أطلقت رفاقى ، وكانوا لا يزالون فى صور الخنازير ، ثم جاءت بترياق فمسحتهم به ، فعادوا إلى صورهم البشرية ، وبدوا فى أنضر شباب وأصباه ، ثم أقبلوا نحوى يلثمون يدى ، ودموع الفرح تبلل مآقيهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون وتردد أصداءهم جنبات القصر ، حتى تأثرت سيرس نفسها مما رأت ، وراحت تقول : « يا ابن ليرتيس الصناع ، هلم إلى مركبك فاشددها فوق البر لتكون بمأمن من غوائل البحر ، ثم خبىء كنوزك وأذخارك فى غيران هذه الجبال ، وعد إلىّ فى جميع رفاقك » وطربت لهذه الفكرة فهرولت إلى الشاطىء حيث لقيت رفاقى الآخرين يندبوننا ويذرفون دموعهم علينا . وما إن رأونى حتى أهرعوا نحوى يرقصون ويطربون ويحيون كهذه البُهْم التى تعود فى المساء إلى حظائرها فتتلقاها صغارها بالثغاء والرغاء والضوضاء . وهكذا تلقانى أولئك الرفاق . وبدات دموع أحزانهم بعبرات المسرة ، وخيل لهم أنهم رأوا فىّ وطنهم النائى المحبوب إيثاكا ، حيث ولدوا وحيث نشأوا وترعرعوا ... قال قائلهم : « تالله لكأنا رأينا فيك أوطاننا يا أوديسيوس ، وتالله لقد ظفرت قلوبنا حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبدانها . حدثنا أيها العزيز كيف هلك إخواننا فى هذا التيه » . وقلت لهم : « هلموا أولا نجر مركبنا على هذا السِّيف الهادىء ، ولنخبىء أذخارنا وسلاحنا فى غيران هذه الجبال ،

ولننطلق جميعاً إلى سيرس حيث ترون جميع رفاقكم فى أَمَنَـةٍ وعز وطعام وشراب ، ونعيم مقيم » . وصدعوا بما أمرتهم إلا يوريلوخوس ، فقد سُمِّرَ مكانه ، وكأنه لم يحفل بما أخبرت به ، ثم حرك شفتيه فقال : « ويح لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا نحن الآخرين إلى قصر سيرس ، وقد تمسخنا جميعاً إلى سباع أو ذؤبان أو خنازير ، ونظل إلى الأبد نحرس عرينها مرغمين ؟ لقـد ذهب كثيرون منا ضحية هوَس أوديسيوس وقلة بصره ، يوم حبسنا السيكلوب من أجل أطماع رئيسنا الطياش[1] ! » وأوشـكت أن أضرب رأسه بجرازى ، فيخر إلى الأرض برغم ما يربطنى به من آصرة الوطن ووشيجة الغـربة ، لولا أن هب رجالى الآخرون يصرخون ويقولون : « أوديسيوس الـكريم ! لنتركه هنا ليحرس فلـكنا ، أما نحن فراحلون معك إلى قصر سيرس ، ولو كان مِلْئه الفزع الأكبر ! » وتدفقوا من السفينة على الشاطىء ، وانخرط يوريلوخوس بينهم منصاعاً لنظراتى المتأججة .. أما ما كان من سيرس حينذاك ، فإنها أدخلت رفاقى إلى حمّـامها ثم ضمختهم بأحسن الطيوب ، وخلعت عليهم أفخر الملابس ؛ ولمـا وصلنا وجدناهم يطعمون ، فما إن رأونا حتى هبوا يعانقون صحابهم ويبكون ، ثم جلسوا يستمعون إلى قصة ما حل بإخوانهم ، وهم يصعدون زفرات الحزن ، ترددها قبـاب القصر . ونهضت سيرس فوجهت إلىّ الخطاب إذ تقول : « ابن ليرتيس العزيز هون عليك ، وليرفـه رجالك عن أنفسهم ولا يستسلموا هكذا

---

(١) الطائش .

لغو بة الحزن ، واسترقا دموعهم جميعاً . . إنى لا أجهـل ما تجشموا من أهوال فى ذاك البحر المضطرب ، وما لقوا من فوادح فى كل أرض ، مما كتب لهم فى لوح القضاء ... ولـكن ، تعالوا جميعاً . أنعشوا نفوسكم الخالدة بكؤوس الراح ، ولتستشعروا بأسكم الذى كنتم تستشعرونه يوم غادرتم شطئان إيثاكا العزيزة ... إنـكم إن لم تتناسوا آلامكم فإنها تفت فى عضدكم وتوهى من قوتـكم وتكون أبداً حلفاً لـكم وإلباً عليكم ، ولا تعودون تشعرون معها بلذة العيش وبهجة الحياة ! » ، ووقعت كلماتها فى قلوبنا فأقبلنا على الطعام والمدام ؛ ثم إننا أقمنا عندها عاماً بأكمله فى أرغد عيش وأحسن حال ، متقلبين فى أرفه نعيم ؛ ثم استدار الزمان ، وهتف بنا قانون الأزل ، فدعانى رجالى إلى جلسةٍ خارج القصر فقالوا لى : « تذكر يامولانا لوطننا الأول ، فإننا نحن إليه ، ونتمنى لو ساقتنا المقادير إلى شطئانه » ، وكأنما نبهوا منى غافلاً ، فتلبثنا يومنا هذا على مائدة ربة السحر فى بُلَهنية وعيش مخفرج وخمر ، وأقبل الليل فأوى كل إلى فراشه ، وأويت أنا إلى سيرس فداعبتها ولاطفتها ، ثم قلت لها فى رجاءٍ وظرف : « سيرس ياربة ؟ حبذا لو وفيت بعهدك فأرسلتنا فوق هذا البحر رحمة بنا ، لنقضى حاجات الوطن ، ولتنقطع شكاوى صحابى التى مزقت نياط قبى » . وقالت سيرس : « أوديسيوس العزيز المعروف بأصالة الرأى ورجاحة الفـكر ، إنى لن أقسرك على البقاء هنا ، لا أنت ، ولا أحـداً من رفاقك ، ولـكنك قبل أن تفـكر فى شد رحالك إلى بلادك ينبغى أن تذهب فى رحـلة شاقـة بعيـدة المـدى ...

إلى هيدز[١] ... دار بلوتو[٢] وبرسفونيه ... حيث تلقى النبي الصِّدِّيق الصالح تيرزياس ، الذي احتفظ وحده في عالم الموتى بكل أسراره وقواه الغيبية الخارقة ، والذي يثوى في رحاب مليكة الفناء يتنبأ لها وتستوحيه وتستشيره فيعرِّف[٣] لك عما يهمك ويقفك على ماينطوى لك من صحف الغيب » وما كادت تنتهى حتى احلولكت الدنيا في عيني وتدفقت الهموم في نفسى ، وأجهشت وأجهشت ، ثم استخرطت في بكاء طويل . وما كدت أصحو من هـذه النوبة حتى قلت لها : « أنى لى يا ربة أن أذهب إلى هيدز ؟ ومنذا الذى يحدونى إليها ، ولم يسبقنى إليها أحد من أحياء البشر ؟ » فقالت تجيبنى : يا سليل ليرتيس العظيم ليفرخ روعك ، ولا يحزنك ألا يكون لك إلى هيدز من دليـل . بل هلم إلى سفينتك فأصلح قلاعها وانشر شراعها وستهب الصَّبا سَجْسَجاً فتُهَدْهِدُكم رويدا ، فإذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطىء النز[٤] الذى تنمو فوقـه أشجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمـة باسم برسفونيه ، فادفعوا اليه بسفينتكم ثم تهاوَوْا إلى مثوى بلوتو السحيق الذى يبتدىء عند الصخرة الهـائلة التي تتكسر فوق أواذيها أمواه أشيرون[٥] وستيكس وكوكيتوس فاتركوا سفينتكم ثمة ، واحفروا عندها حفرة ذراعا في ذراع صبوا في جهتها الأولى قربانا من لبن وعسل ، وفى الثانية خمرا معتقة

---

(١) الدار الآخرة (٢) إله الموتى وزوجه

(٣) يتكهن — من العرافة بالكسر

(٤) الذي ينز الماء مصدر استعمل صفة oozy

(٥) تنطق الشين كافاً مشددة وقد آثرنا الشين في كل كتبنا لتسهيل النطق .

من أحسن ماتعصرون ، وفى الثالثة ماء قراحا ، فإذا كانت الرابعة فانثروا الدقيق فوق الجميع ، واصنعوا ذلك باسم الموتى جميعا ، ثم انذروا لهم أن تذبحوا — يوم تعودون إلى إيثاكا سالمين — عجلاً جسدا من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لتيرزياس كبشا سمُّوريا ليس فى أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلادا ، وإذا فرغتم من صلاتكم ونذوركم وأدعيتكم لجميع الموتى من كل الأمم فاذبحوا فى الحال كبشا ونعجة سمورية ، على أن تكون رأسا الضحيتين تلقاء إربوس وعلى أن تشيحوا بوجوهكم تلقاء الشاطىء ، فإذا صنعتم كل هذا فسرعان ما ترون أرواح الموتى تقبل نحوكم من كل فج ، فسارعوا إلى ذبائحكم فاسلخوها وألقوا بلحومها فى النار مصلين ملبين داعين كيما تهدأ نفسا بلوتو وزوجته برسفونيه ، ولا تسمحوا لأرواح الموتى أن تقترب أضحياتكم ، وذودوهم عنها بأسيافكم حتى تلمحوا تيرزياس قادما ميلقاكم ويحدثكم ويوضح لكم ماغم عليكم من سبيلكم فى هذا البحر الرجراج المتلاطم بالأمواج » وسكتت ، وانبلج الصبح ، فنهضت تصلح من أثوابها وتضفى عليها من شفوفها البيض كالندف ، وتنشر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثلج . أما أنا فنهضت كذلك ، واكتسيت صدارى ودثارى ثم توجهت إلى رفاقى فأيقظتهم وحثثتهم على الإبحار من تونا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعا إلا فتى يافعا لم يكن له يدان فى هذه الشدائد ، بل كان كل همه فى كأس من خمر ينطرح بعدها وهو لا يعى شيئا وكان اسمه ألينور ، وكان قد غرق فى سبات عميق فوق سطح القصر ، وقد أفزعه ما سمع من جلجلة أسلحتنا فهب من

من نومه مخمورا متخاذلا وســـــاقته قدماه إلى حافة السطح فزلّتا وسقط إلى الأرض ، ودُقّ عُنُقه ، وسيقت روحــه إلى هيدز . وقلت لأصحابى لما اكتمل جمعهم . أتظنون أنا مبحرون إلى أوطاننا ! ! كلا يا رفاق ! فأمامنا رحلة طويلة شاقة إلى هيدز ، حيث ينبغى أن نلقى تيرزياس النبى الصالح ليُعَـرّف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنــا الغيب ، بهذا رسمت سيرس ، وإنا لنصيحتها لسامعون ! » ، وخفقت قلوب إخوانى ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولــكنهم صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أن لا شىء غير هذا ينفعهم . وانقلبنا إلى البحر ، وكانوا لايزالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم . وفيما نحن ذاهبون ، كانت سيرس تسوق إلى السفينة كبشاً عظيما ونعجة سمّورية . . وإن كنا لم نرها قط ، ومنذ الذى تستطيع عيناه أن تريا ربة كريمة رائحــة أو جائية إن لم تشأ هى أن تــكشف عن نفسها ؟ »



أوديسيوس يروي قصته

رحلة أوديسيوس إلى العالم الثاني

« وذهبنا إلى الشاطىء وأنزلنا الفلك إلى الماء ، ثم أصلحنا القلاع ونشرنا الشراع ، ووضعنا القرابين على السطح ، وذرفنا من الدموع ما شاءت لنا الهموم والآلام ... وأقلعنا .. وأرسلت سيرس بين أيدينا ريحاً رخاء كانت خير معوان لنا وخير رفيق فى سفرتنا الرهيبة هذه ، حتى لتركنا لها مقاليد الفلك ، وانسدحنا[1] فوق السطح من غير ما عمل . ولم تزل تجرى بنا طول هذا اليوم ، حتى إذا أوشكت الشمس أن توارى بالحجاب، وقارب الظلام أن يلقى أردانه على الكون الهادىء، أشرفنا على تخوم البحر الأعظم ، حيث تنهض مدينة السمريين التى ينعقد من فوقها دجن[2] كثيف وظلمات داجية ، فلا تنفذ إليها شعاعة من نور ، ولا يحييها رسول شمس هذه الدنيا العاملة الدائبة ، التى يسطع فى سماواتنا ركبها الفخم ، فهى أبداً فى ليل متصل مدلهم ، لا تنجاب عنها غواشيه . وهنا ، ألقينا مراسينا ، وأنزلنا الكبش والشاة إلى البر ، وانطلقنا فوق سيف البحر إلى حيث أمرتنا سيرس ، وتركنا يوريلاخوس بن برميد عند القربانين ، وعنيت أنا باحتفار الوهدة فجعلتها ذراعاً فى ذراع ، ثم شرعت أصب تقدمات الشراب باسم الموتى ، فبدأت بمزيج اللبن والعسل

(١) السدح : ام وفرج بين ساقيه .
(٢) السحاب المظلم .

المصفى ، وأتبعته بالخمر المعتقة ؛ وثلثت بالمـاء القراح ؛ ثم نثرت على ذلك كله دقيق الشعير ؛ وصليت من أجل الموتى ، ونذرت — إن عدت إلى إيثاكا — أن أضحى لهم بعجل جَسَد ذى خوار يكون أسمن وأقوى ما فى قطعانى ؛ أذبحه وأحرّقه فى نار مجللة بكل ما يشوق الأشباح من أرواح وطيوب . وخصصت الكاهن الطيبى (تيرزياس) فنذرت أن أضحي له بأحسن كباشى وأعظمها مُنة ثم شمرت عن ساعدى ، وذبحت القربانين فتدفق الدم فى الوهدة ... وهنا ... أهرعت الأشباح من كل فج ، وأقبلت مهطعة كأسراب الدَّبَى[1] ... يا للآلهة ! ! هنا ، زرافات العذارى جوعن كأس الحمام فى ميعة الصبا ؛ وهنا ، جموع الشباب اليانع كأفواف الزهر غالهم عادى الردى ؛ وثمة ، عرائس سادرات تسربلن سواد الحزن ، فجأتهن المنايا ليلة الزفاف ؛ وهناك ، أطفال كأكمام الورد لما تفتح قطفتهم أيدى المنون ؛ وعن كثب ، وقفت كواكب المحاربين الذين لطخوا بالدماء وجه البسيطة .. والآباء والأمهات والأجـداد ... أقبلوا يتدافعون نحو الوهدة صائحين صاخبين ، قاذفين فى قلوبنا الرعب ... ثم هتفت برجالى فشرعوا يحرقون القرابين و يصلون لرب هذه الدار — بلوتو — ولزوجه ، ورحت أنا أذود الأشباح الهائمة عن دم الضحايا بسيفى أضرب به ههنا وههنا ، حتى لمحت روح رفيقى ألبينور[2] الذى تركناه فى أرض سيرس دون أن نقيم له شعائر الموت لما كنا بسبيله من هموم .. لمحت روح رفيقى فتصدعت ، ثم ذرفت عبرات وعبرات ، وكلمته قائلا : « ألبينور !

---

(١) الجراد .

(٢) النمل الذى سقط من السطح فدق عنقه (الفصل السابق) .

يا صديقى ! كيف وصلت إلى ظلمات هذه الدار الآخرة فى مثل هذه السرعة ولم تحملنا إليها سفينتنا إلا بعد لأى ؟ عمرك الله هل سبحت فى الهواء ؟ أم طويت إليها الرحب ماشياً ؟ » وانهمرت من عينيه دموع ودموع . ثم قال يجيبنى : يا ابن ليرتيس النبيل ، المعروف فى العالمين بالحكمة ودقة الفهم ، لقد أودى بى السكر فسقطت من سطح سيرس فدق عنقى ، وأسرعت من ثمة على دَرَج الظلمات إلى هيدز .. على أننى أستحلفك بكل عزيز عليك ، بپنلوب ، بالنار المقدسة التى تتأجج عن قبسها حياتك ، بولدك الأوحد تلماك أن تجمع ما تبقى من سلاحى وعتادى إذا عدت إلى سيرس ، وإنك إليها لعائد حين ترجع أدراجك من عالم هيدز ، وأن تحرق جثمانى فى نيران هذا العتاد ، ثم تصلى لى ، وتضرع إلى الآلهة من أجلى حتى أقر هنا ، وتهدأ فى تلك الظلمات روحى ، وأن تغرس فوق الكومة التى تشمل رفاتى ، مجدافى العزيز الذى عملت به فى البحر تحت إمرتك ، وفى ذرى سلطانك وقيادتك ، حتى يذكرنى فى العالم الفانى الذاكرون » . ووعدته أنى فاعل . ثم لم أزل أذود الأشباح عن الدماء المتدفقة . وفجأة لمحت بين أرواح الموتى شبح أمى ! أمى المحبوبة أنتكليا ابنة الشجاع أوتوليكوس ، التى تركتها يوم يممت شطر طروادة قوية ، غريصه الصبا ريانة الشباب . وما وقعت عينى عليها حتى أجهشت وأجهشت ، ثم انهمرت من مقلتى أحر العبرات ... ومع ما كان يعتلج به صدرى من الأسى عليها ، فقد ذدتها عن الدماء كذلك ، وبى من الهم لتلك الفعلة ما أوهننى وأضوانى . ثم أقبل نبى طيبة وكاهنها الجليل ، يتوكأ على عصاه الذهبية ؛ وما كاد

يحملق فيّ قليلا حتى عرفنى وخاطبنى يقول : « لم غادرت الدنيا الدافئة المشرقة أيهذا التعس ، وقدمت لترى هؤلاء الموتى ولتصرب فى ظلمات هذا العالم العبوس ؟ ! ولكن نَحِّ هذا السيف قليلا حتى أجرع من تلك تلك الدماء ، وإنى لمحدثك حديث الصدق عما جئت من أجله » .

وأغمدت سيفى ، وانحنى الكاهن فعب من الدماء ما شاء ، ثم قال لى : « أوديسيوس ! إنك تجتهد أن تعود أدراجك إلى بلادك ، غير أن طريقك إليها محفوفة بالمكاره ، ممتلئة بالعقبات ؛ وإن لك فيها لعدواً لدوداً يتأثرك ، ذلك هو نبتيون الذى أسخطته بما سَمَلت عين ولده السيكلوب (بوليفيم) على أنك واصل بعد أهوال جسام إلى وطنك ، فإنك إن كبحت جماح شهواتك ، أنت ومن معك ، فإنك واصل يوماً إلى شطئان ترِيناشيا ، وتكون قد أفلت من روع اليم وأرزائه ، فإذا كنت ثمة . فاحذر أن تمس قطعان رب الشمس السائمة فى الجزيرة بأذى إن كنت جد حريص على العودة إلى بلادك سالماً ، مهما اقتحمت بعد ذلك من عُباب وعِقاب . فإذا مسها منكم أحد بأذى ، فويل لكم جميعاً ! إن فلكك تغوص إلى الأعماق ، ويغرق رجالك أجمعون ؛ أما أنت فتنجو بعد جهد ، وتلتقطك سفينة عابرة وتعود بك بعد شقاء وبلاء ، وعناء أيما عناء ، إلى وطنك الذى ينتظرك فيه ألف ويل وويل ! ستجد قصرك المنيف محتلا لطغمة أشرار من عشاق زوجك الوفية لك ، يُريغون خيرك ويُذبِّحون شاءك ، ويغرون بنلوب بالعطايا والرِّشى لتختار من بينهم بعلاً لها . ولكنك ستنتقم منهم وتنتصف لما قدموا من سوء ، وستبيد جموعهم ؛ فإذا تم لك

النصر عليهم فانطلق من فورك إلى الشعب الذى لم ير البحرَ أحد من أهله ولم يذق الملح أحد منهم قط ، وليكن معك مجداف عظيم يدلك عليهم فإنهم إن رأوه عجبوا من منظره ، وظنوه مذراة مما يذرى به القمح؛ فإذا عرفتهم فاغرسْ المجداف فى أرضهم ، وضح لنبتيون رب البحار بعجل جسد وكبش سمين وخنزير كِنار(١) ، ثم تبتل إليه وأخبت ، وانطلق إلى وطنك وضحِّ بأحسن ما تملك من الشاء والنعم للآلهة ، وصلِّ لكل منها واخشع ، تعش آمناً غانماً ، وتمت بعد حياة هادئة موتة قريرة ناعمة بعد حكم عادل طويل ، وشيخوخة هانئة موفورة ... هذا من أنباء الحق عرَّفتها لك » .

وقلت له : « أنا لا أكذبك يا تيرزياس فيما كشفت لى من أنباء الغيب ؛ ولكن جعلت فداك : إنى ألمح شبح أمى جاثماً بالقرب من الدم دون أن تتعطف بكلمة واحدة على ابنها الحبيب . فمن ذالذى يشعرها أنى — أنا ابنها الأوحد — قريب منها ! » فقال : « لا أيسر من ذلك يا بنى ! فإنك إن تركت أيًّا من هذه الأشباح يرشف رشفة من ذاك الدم ، فإنه يتحدث إليك بعد ، وينبئك بما تشاء » . ثم غاب شبح الكاهن فى ظلمات مملكة بلوتو ، وسمرت أنا مكانى أنتظر شبح أمى ، التى ما كادت تتذوق الدم حتى عرفتنى ، وانطلقت تكلمنى فى ترفق وحنان: أى بنى كيف أتيح لك الضرب فى دياجير هذه الدار الآخرة وأنت لا تزال حياً تدب على رجليك ؟ ! ألا ما أشق هذا على بنى الموتى من أهل الدار لأولى ! إن ههنا أنهاراً من حميم يدور بعضها على بعض ، وقد تعاني

---

(١) بالكسر سمين .

على شطئانها بعباب حمىء ، ويحيط بهـا البحر الأعظم الذى لا تشق أجباله فلك ، بله قدم سائر عابر ! أواه ! لقد ذرعت البحار شرقاً ومغرباً فى رحلتك من إليوم ، أنت ومن معك ، ولما تصـل إلى إيثاكا العزيزة ! » وسكتت قليلا ، فسألتها « الظروف القاسية وحدها يا أماه هى التى قادتنى الى مملـكة بلوتو ، ليعرف لى الـكاهن الصالح الطيبى تيرزياس ، ولقد تجشمت الأهوال الثقال منذ توجهت مع أجا ممنون للقاء أبناء طروادة . وها أنذا منذ ذلك اليوم لم تطأ قدماى أرض وطنى ... ولـكن ... نبئينى يا أماه أية ضربة أودت بحياتك الغالية ؟ هل سمك دمك أحد ؟ أم أصماك سهم من ديانا ؟ .. وحدثينى كذلك عن أبى السند الشيخ ، وعن ولدى تليماك ، وحدثينى عن ملـكى وعنادى ، هل غلب عليها أحد من سادات البلاد ، حين يئس الـكل من عودتى ؟ وخبرى عن زوجى ، ألا تزال تعيش مع ولدى مخلصة وفية لى ، أم تزوجت من أحد أمراء هيلاس ؟ ! » وقال الشبح الـكريم يجيبنى : حاشا يابنى ! إنها لاتزال وفية لك ، مبقية على ذكراك ، مقيمة فى قصرك ، وإن تـكن تقضى لياليها وأيامها فى حزن ممض عليك ، ودموع جارية من أجلك ، وآلام ما تنتهى لبعدك . أما أملاكك فلا تزال لك ، وما يفتأ ولدك يغلها باسمك ، وما يفتأ يغشى الولائم فى أبهة الأمراء ، ورُواء الأماثل العظماء ! ولم يزل أبوك مقيما فى مزارعك ، عزوفاً عن المدينة وبهرجها ، وأرائك القصور وزرابيها ، وهو يقضي أيامه يصطلى نار المدفأة فى الشتاء ، قابعاً على فروته الفقيرة المتواضعة ، غارًّا فى أسماله ومِزَقه ، فإذا

جاء الصيف ، أو فجأه الخريف ، اعتكف فى ناحية ، وانطرح على الهشيم المتساقط من الأشجار ، وراح يعالج من الحزن عليك ، والبكاء بسببك ، ما يوهيه ويضنيه ، طوال تلك السنين السوالف ؛ وهكذا هلكت أنا الأخرى من طول التفجع عليك ، والتصدع من أجلك ، فلا ديانا أصمت فؤادى بسهم، ولا اعتدى علىّ معتد ... بل الحزن وحده يا أوديسيوس ، والوحشة والضنى ، وطول الوجد ، وذكراك فى كل حين ؛ كل أولئك يابنى اختضر عود حياتى ، وعجّل إلىّ مماتى ! » وما كادت تفرغ من حديثها حتى أزرفْت[1] إليها أود لو ضممتها إلى صدرى ، بيد أنى فشلت مرّة وأخرى وثالثة ، إذْ كانت تنفتل فى كل مرة من بين ذراعىّ كما ينفتل الظل . أو كما يسرى الحلم . ولم أطق على ذلك صبراً فقلت لها : « لماذا تأبين علىّ عناقك يا أماه وقد نتداوى به ما بنا من شجو ، ولو كنا هنا فى مملكة بلوتو ؟ ! أم يا ترى أرسلت إلى پرسفونيه شبحاً يعبث بى ويتضاحك على ؟ ! » قالت : « أواه يابنى ، يا أتعس بنى الموتى ! أبداً ما حاولت ربة هيدز أن تعبث بأحد ، ولكنها طبيعة الموتى هنا ، فهم لا عضل ولا لحم ولا عظم ، ولا ماذهبت به النار بعد الموت فى الدار الأولى .. بل هم أرواح تشبه الظلال أو الأحلام فى خفتها وسرعة انفلاتها ... ولكن هلم فعد أدراجك إلى النور ... فلقد جاءك من الحق ما هو حسبك » . ثم هممت حولى أشباح العذارى والأرواح من بنات هيدز ، سعين من عند پرسفونيه ، فامتشقت سيفى ،

(١) أسرعت.

وطفقت أذودهن فلا يقربن الدم إلا بإذنى واحدةً بعد واحدة ، لتقص علىّ كل منهن قصة حياتها . ولقد كلمت تيرو[١] الحسناء ، كريمة المحتد ، طيبة الأعراق فذكرت لى أنها ابنة سالمون وزوجة كريثيوس بن إيولوس — وأن أينيپوس إله السلسبيل ، أعذب أنهار الدنيا ــ قد كان مشغوفاً بها حباً ، وأنها طالما كانت تغشى شطئانه النُّضر ، وخمائله الخضر من أجل ذلك . وأنها كانت يوماً تلعب هناك ، فإذا شبح جميل كأنه شبح حبيبها يظهر فجأة ثم يأخذها بين ذراعيه ، ثم يعلو طوفان من اليم فيطويهما معا ، ثم تفيق فترى نفسها بين ذراعى نبتيون الجبار رب البحار الذى يشاكيها غرامه هو الآخر ، ويبثها حبه ، ولاعج قلبه ، ثم يهوى بها إلى أعماق مملكته السحيقة ، ويعاشرها كزوجة ، ثم يرسلها بعد أن يوصيها بولديه التوأمين منها ، ثمرة الحب السرمدى المقدس . . ويغوص فى اليم . وتعود هى إلى بلدها فتضع ولديها العظيمين — وزيرى جوف الأكبر — بلياس ونليوس — ويشب بلياس ويضرب فى الأرض ، فينتهى إلى مروج إياؤلخوس ويرعى ثمة بهمه وقطعانه ؛ أما نليوس فيسكن الملقع الجدب من أرض پيساوس ... وتتزوج كريثيوس بعد ذلك كله ، فتنجب منه أبناءها الثلاثة الآخرين[٢] ، ذوى الشهرة والمجد . ثم كلمت انتيوب ابنة آسوب التى راحت تفخر بما كان بينها و بين

---

(١) لم نشأ أن نغفل أحاديث أوديسيوس مع بنات هيدز كما فعل بعض مترجمى هومر . بل آثرنا إثباتها كما هى ، ونحن نحل القارىء عن الملام لأن الأوذيسة أعلى من أن تمل .

(٢) حذفنا هنا الأسماء مؤقتاً

جوف — كبير آلهة الأولمب — من هوى وصبابة وحب ، وأنها أنجبت له ولديه العظيمين أمفيون وريتوس منشيء طيبة العظيمة ذات القلاع والتلاع والأبواب السبعة ... ولقيت بعدها ألكمينة ابنة أمفتريون حبيبة جوف ، وأم هرقل الحديدى الجبار ... ولقد ذكرت لى أنها تزوجت من كريون بعـــد ، وأنجبت له ابنته ميجارا ، زوجة ابن أمفتريون . . ؛ ؛ .. ولقيت الحسناء أبيكاست[1] أم أديبوس الملك التاسع ، الذى تزوجها وهو لا يدرى أنها أمه بعد أن ذبح أباه ، فصبت عليه السماء سياط عذابها ، وذهب على وجهه فى الأرض حيران ؛ أما أمه فقد سبقت روحها إلى هيدز بعد إذ شنقت نفسها فى سقف بيتها ؛ تاركة ولدها لربات العذاب يسمنه الخسف ويجرعنه الأوصاب ... ولقيت الغادة الحُسَّان حلوريس التى هام بها نليوس ونثر تحت قدميها هداياه ، فأسلست له ورزقَ منها أبناءه الثلاثة نسطور وخروم وبركل ، الميامين ذوى الجد ... ثم كلمتنى ليدا روجة تندار ، أم كاستور الصنديد وبولكس الملاكم العتيد ، إنهما ينعمان بنعمة زيوس أبى الآلهة ، مهما يتبادلان الموت والحياة ، سنةً فسنة[2] ، وفاء منهما ومحبة وإعزازاً ... ؛ ... ثم رأيت إفيمديا الحبيبة التى نخرت بهيام نبتيون والتى أنجبت له طفليه الجميلين أوتوس وإفالت اللذين بزا بجمالهما كل من دب على وجه الأرض ، باستثناء أوريون ... يالهما من طفلين ! ! لقد شبا نيران الحرب

(١) وردت عنهما أسطورة رائعة سننشرها قريباً فى الجزء الثانى من كتابنا أساطير الحب والجمال عند الاغريق .

(٢) چوكستا

على آلهة السماء وحاولا رفع أوسا إلى قمة الاولمب فجملا يليون على أوسا ركاما ، وقد أوشكا أن يفلحا لولا أن ذبحهما زيوس وولده أبوللوايكونا عبرة لغيرهما ... فيا للموت ! هـذا المعتدى على شبابهما الغض ، فأذبل الخدود وأذوى الورود !

ورأيت بعد ذلك فيدرا ، ولقيت آريادن المفتان وبروسير اللعوب ، أما آريادن فقد حملها ثيذيوس من كريت إلى فراديس أثينا . . ولـكن وا أسفاه ! إنها ما تمتعت ثمة لا قليلا ولا كثيراً ، فقد أصمتها ديانا الغادرة بسهامها ، وشهد فعلتها المنـكرة باخوس العظيم ... فى ديا

ورأيت ميرا ... وكليمنيه ... وإريفيل التاعسة التى قبلت أن تنال ثمن روح زوجها من الذهب

والآن ! ! وقد أوشك الليل أن يلقى علينا طيلسانه فما أحسبنى أستطيع أن أحصى زوجات الأبطال العظام وبناتهم اللائى لقيت فى هيدز ، وأرجو لو أمر الملك فانطلقت لأستريح فى سفينتى ... أو هنا إن أذن .. وكلى ثقة فيـكم ، وإيمان بالآلهة ، أنـكم ستدبرون أمر إبحارى إلى وطني حتى الصباح ...

* * *

وسكت أودسيوس ، وصمت الجمع المحتشد فى الردهة الملـكية فـكأن على رؤوسهم الطير من روعة ما حدث ، حتى نهضت أريتا الملـكة ، ذات الذراعين العاجيتين ، فقالت : « أيها الفياشيون كيف أنتم وهذا المهاجر النبيل الذى زادته الآلهة بسطة فى العقل والجسم ، وأضفت عليه

هذا البهاء وذاك الرواء ؟ إنه ضيفى ، بيد أنكم تشركوننى فى ضيافته والاحتفاء به ، فخليق بكم ألا تسرحوه على عجل كما يجب ، بل حرى بكم أن تستبقوه أياماً حتى تخلعوا عليه ، وتقدموا له أطرف الهدايا وأعز اللهى ، وتفيئوا عليه مما حبتكم السماء ، فكلكم غنى جم الغناء ، ثرى واسع الثراء » . وتكلم البطل إخنيوس ، أكبر أمراء فياشيا وأتلدهم ذكراً فقال : « إن مليكتكم ذات المجد والكبرياء يا أصدقاء ، لا تبدى رغبة فحسب ، بل هى تصدر عن إرادة عالية وأمر سنى ، فحبذا لو أصختم وصدعتم .. على أن كل شىء هو رهين بمشيئة الملك ، فليبر إذن رأيه » .

وقال الملك : « إنى أوافق على ما رأت الملكة ، زهرة فياشيا وسيدة البحار؛ ليبق الضيف إلى غد إذن ، برغم ما يحدوه من الشوق إلى بلاده ، حتى أسبغ عليه ، وأدبر أمر عودته التى يُعنى بها الجميع » وكأنما صادف مقال الملك هوى فى فؤاد أودسيوس فنهض وقال : « ألكينوس ! يا ملك فياشيا العظيم ! بودى لو بقيت هنا عاماً بأكمله ليتم الملك نعمته على ، وليدبر أمر عودتى سالماً إلى أرض الوطن .. فما أجمل أن أعود بالعطايا والهدايا والنعم ، لأملأ عيون مواطنى ، ولأكسب احترامهم وأنال محبتهم بعد طول النأى وفدح البعاد » .

فأجابه الملك : « لله ما أروع ما حدثت يا أودسيوس ! ويكأنما حدثت بلسان ساحر عليم يبهرج القصص ويوشى الأخبار ، ويروّق ويزوّق ، فى زكانةٍ وفطانةٍ وحذق وترتيب ؟ ! أبداً ما حملت هذه الأرض ألبَّ منك ولا ألبق فى رواية وتحديث ؛ وأبداً ما تساكبت

الموسيقى والنغم الحلو من لسانٍ كلسانك الذرب الحبيب ! ولـكن ماذا عندك من أخبار الأبطال الإغريق ، الصيد الصناديد ، الذادة المذاويد ؟ حدث يا أودسيوس ! قل ، قص علينا أخبارهم ؛ أرأيت أحداً ممن شهد معك وقائع طروادة ؟ إن الليل لا يزال فى عنفوان يا صاح ، وما بأعيننا من سنة فنأوى إلى فراشنا فى مثل تلك الساعة ؛ هلم فحدثنا ، فبنا من حديثك شغف ، وكلنا إليه شوق ، ولو حدثت حتى مطلع الفجر ، إن لم ينلْ منك وصب أو يُعْييك ملال » .

وقال أودسيوس : « بورك سيد فياشيا الملك ألـكينوس ! لا يزال فى الوقت متسع للحديث وللنوم معاً ، وإن شئت حدثتك طائفة من الأحاديث عن أبطال الإغريق سواء منهم من ثوى تحت أسوار طروادة ومن أفلت من الموت ثمة فترصدته المنايا فى أرض وطنه صبباً من كف زوجه الأثيم الزنيم ! إليك إذن ... وحينما هتفت برسفونيه — ربة هيدز — بأشباح العذارى وأرواح الحسان فتكبكبن وانثنين عنى إلى ظلمات دار الفناء ، بدا لى طيف أجاممنون — إبن أتريوس — ومن حوله كوكبة من أشباح الذين قتلوا معه فى داره بيد إيجستوس . أهرع إلى الدماء فرشف منها رشفات ، ثم نهض فعرفنى ، وكأنما شاعت فيه رعدة من الدهشة والذعر ، وتحدرت دموعه الحرار السخينة فوق خديه ، ثم مد إلى ذراعيه يود لو عانقنى ، ولـكن ... وا أسفاه ! وهل يعانق الشبح إنسياً ؟! ونال منى الحزن فبكيت من هذا المنظر الفادح الأليم ، وقلت أكلمه فى أسلوب بائس وعبارة باكية : « ويحك يا ابن أتريوس يا ملك الدنيا العظيم

ماذا جرعك كأس المنايا ؟ خبرني ! هل جرعتها في قرار اليم مغرقاً بيد بنتيون أم فوق ظهر الأرض حين كنت تسوق قطعانك ، أم قتلت وأنت تحارب من أجل بنات خايا إذ هن محاصرات خلف أسوار مدينتهن ؟! »

فقال يجيبني : « أودسيوس الزعيم النبيل ، يا ابن ليرتس الحكيم أبداً ما مت مغرقاً بيد نبتيون ، ولا فوق ظهر الأرض في حومة حرب زبون ، بل ذبحني اللئيم إيجستوس بعد أن دبر غيلتي مع زوجتي الآثمة ، حين ملق[1] لي وبالغ جهده في الاحتفال بي ، ثم ذبحني كما يذبح الثور في مذوده وكر على رجالي فذبحهم كما تذبح الخنازير لوليمة في عرس أو في حفل لزعيم عظيم . أوه أودسيوس ! لا جرم أنك قد شهدت ألف معركة ومعركة جندلت فيها أبطالاً وراء أبطال ، بيد أنها جميعاً لم تك شيئاً في ذلك الحديث الرهيب ! لقد هوينا نتخبط في دمائنا التي ضرجت الأرض ، تحت أخاوين[2] حافلة بأطيب الآكال وأشهى الأشربات . ثم .. حلجلت في أذني الصرخة الرهيبة ، صرخة ابنة بريام ، فكانت ما أروع وما أفدح ! لقد انبطحت على الأرض إلى جانب كاسندرا ، قتيلة بيد زوجتي كليتمنسترا .. ومع ذلك لم أفقد الأمل يا صديقي بل حاولت أن أمتشق جرازي ، لكن الخائنة انسحبت كالأفعى ، ولم تعبأ بي ، بل لم تشأ أن تغمض عيني ، أو تسند ذقني ، في اللحظة التي أوشكت أن أطرق فيها أبواب هيدز ؟! ويلاه ! وويلي على المرأة التي طاوعتها يداها فأتت هذا المنكر ، وارتكبت إثم قتل زوجها ورفيق صباها ! !

---

(١) ملق فلاناً وملق له تودد .

(٢) أخاوين وخون وأخونة ، جمع خوان موائد الطعام

لقد حسبت حين عدت أدراجى أننى سأقابل بالأهل و بالسهل ، من أبنائى وأهلى وحاشيتى ، ولكنها بنت الفاجرة الغادرة ، التى بزت بفجورها كل صنوف الفجور ، قد سحبت على نفسها أذيال العار والخزى ، بل هى قد سحبت أذيال العار والخزى على كل أنثى لم تر النور بعد ، وعلى كل الصالحات الطيبات من بنات جنسها » .

وسكت أجاممنون ، فقلت بدورى : « ياسماء ! ! ما أقسى ما قصت يد زيوس على بيت أتريوس ، منذ البدء ! كله من الأنثى دائما ! لقد قتلنا فى غير رحمة ولا رفق من أجل هيلين(١) ؛ وتدبر لك كليتمنسترا تلك الفعلة بينما أنت نازح بعيد عن ديارك ! ! » .

قال : « من أجل ذلك أوصيك ألا تلين عريكتك لامرأة قط ، وألا تجعلها موضع سرك ومحل ثقتك ، بل إن أسررت لها بشىء ، فخبىء عنها أشياء ، هذا وإن تكن زوجك وفية خالصة لك ، لا يخشى عليك منها رهق ، ولا غدر كهذا الغدر ، لأنها ابنة إيكاريوس وحسب ، ذات الحصافة واللب ، لقد غادرناها ولما تزل عروسا يوم غادرناها إلى اليوم ، وعلى صدرها الوفى ولدك الحبيب ، الذى شب ليحمل اسمك ، ويعلى فى الخافقين ذكرك ، والذى ينتظرك لهفان ليضمك إلى صدره يوم تعود إلى إيثاكا .. وإنك إلى إيثاكا لعائد ، وبذا قضت الآلهة . . . أما أنا فوا أسفـــاً على أورست ، ولدى المسكين ، الذى قتلتنى الغادرة قبل أن أتزود منه نظرة ! اسمع يا أودسيوس ،

---

(١) التى فر بها باريس وكانت سببا فى حروب طروادة

إصغ إلىّ ، إنى سأفىء عليك من كنوز خبرتى وتجاريبي ، عليك بالسر فى أوبتك إلى وطنك . واستعن على رحلتك بالكتمان لأنه لاثقة فى امرأة بعد اليوم[١] ... ولكن اصدقنى ربك ، أين يأوى ولدى الآن ؟ هل يقيم فى بيلوس ؟ أم يثوى فى أرخومينوس ؟ أم هو يستدرى بذري جدته ، أمى الحبيبة ، فى قصرها المنيف بأسبرطة ؟ إنه لايزال حياً يرزق ، ولم يأو بعد إلى دار الظلال هيدز» . واعتذر إليه أنى لا أعلم إذا كان حياً يرزق أو أنه غدا من أشباح هيدز» وظللنا نتحدث شجون الحديث ، ونذرف الدموع على كل ذكرى حتى وافى شبح أخيل البطل ، ابن بليوس العتيد ، وفى إثره شبح تِرْبه بتروكلوس العظيم وبمقربة منه طيف أنتيلوخوس يتدهدى مع طيف البطل المغوار أجاكس الذى امتاز ببسطة الجسم وجبروت المظهر على الجميع ما عدا بيليدس وحده ... وعرفنى شبح العدّاء الكبير إياسيدس[٢] فقال يخاطبنى فى خفة وظرف : « أودسيوس يارجل الدهاء والخُدَع أى تدبير ليست فيه تدابيرك الماضية وحيلك السوالف شيئاً ما ، أنى بك إلى هذه الدار؟أضيف أنت ؟ أم هو طيشك وقلة مبالاتك جعلاك تضرب فى دياجير هيدز ؟ هيدز الرهيبة بيت الأرواح والظلال والأشباح ؟ » فقلت : « أخيل ! يا ابن بليوس العظيم ، يا أشجع أبناء أخايا قاطبة ، لقد سعيت إلى هنا لألقى الكاهن الطيبى تيرزياس ليعرف كيف أصل إلى شطئان إيثاكا الصخرية ، لأنى عييت بالزوابع والعواصف فى عرض اليم ، فما استطعت أن أصل إلى أخايا أو أن أرسو فى بلادى ...

---

(١) وهكذا عاد فاستمسك برأيه فى النساء حتى فى بنلوب

(٢) قد يكون أخيل .

إنى أغبطك يا أخيل من أعماق ! فلقد عشت فى هنــاء وعز ، و تجلّك الناس كأحد آلهتهم ، وها أنت ذا تحكم هنا وتنهى وتأمر على جميع هؤلاء الموتى ، فمــا أجدرك ألا تأسى لأنك مت هــذه الموتة فى الدار الأولى » وأجابنى على الفور : « أودسيوس ذا الذكر ، لا تخالنّ عزاء يخفف من وطأة الموت ! لقد كنت أوثر لو أعيش فى الدنيا كأحقر الأحراء الأذلاء ، وأتبلغ بلقيمات قليلات لا تقيم أود الشيخ الفانى ، على أن أقيم هنا مُمَلّــكا فى جميع هذه الأشباح والتهاويل ! ! ولــكن تعال ؛ هلم فحدثنى عن ولدى الحبيب ، هل وصل ما انقطع من حياتى الحربية ، أم هجر السيف وطاق المعمعة ؟ وحــدثنى عن أبى پليوس الــكريم ، ألا يزال يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم وحب الميرميدون[1] وفدائهم ، أم تجرد من الأبهة ونزل على حكم المشيب والــكبر ، والأيام التى أوهنت عظامه ؟ أواه يا أبتاه ! لست لك اليوم أخيل كان ينشر الرعب فى جنبات طروادة ؛ أواه لو وسعنى أن أعود إليك لحظة ، إذن لقسرت الناس على الخضوع لك ، ولأرغمت كل جبار عصى على تمليقك وذل العبودية لك ، بدل الثورة بك ، وقلة الاحتفال بشيخوختك » . وقلت أجيبه : « أنا لا علم لى بما كان من أمر پليوس أبيــك ، ولــكنى ذاكر لك ما ترامى إلىّ من أخبار ولدك نيوپتلموس لأنى حملته على ســــفائنى من سكيروس إلى الجيوش الحاشدة من أخايا ؛ ولقد كنا نجتمع للشورى[2] تحت أسوار اليوم فما كان يتــكلم إلا لماماً ، وما كان ينطق عن الهوى إذا فعل ، وإذا

---

(١) جنود أخيل فى حروب طروادة

(٢) يحسن بالقارىء أن يذكر أن أخيل قتل قبل سقوط طروادة .

استثنينا نسطور . و... وأنا... فما كان أحد ينهض إلى مقامه ، أو يقارن به من جميع الأبطال الإغريق .. وكنا نكر حول طروادة ونفر ، فما أعرف أن أحداً كان أجرأ منه كرًّا ولا أحذق فَرًّا ... ولقد جندل من أبناء طروادة الصناديد أقراناً وفرساناً حتى ما أستطيع سَرْد أسمائهم جميعاً ، بيد أنني أذكر فيمن أذكر منهم يوريپيلوس بن تلفوس البطل الذى أغرى (پريامُ) نساءه بالرشى ليقنعنه بخوض غمار الحرب إلى جانب الطرواديين ، فما زلن به حتى خاضها هو وجنوده السيتيون ... لله ما كان أجمل وما كان أروع ! ! أبدا ما رأيت زعيما ولا سيد قوم ، باستثناء ممنون ، أبهى منه ولا أصفى جمالا ! وما أنس لا أنس يوم حصان إپيوس الخشبى ، يوم قمت أتخير الصناديد المذاويد من أبناء هيلاس ليكونوا معى داخله . وكنت على أن أظل عند بابه السرى لأرى فى فتحه أو إغلاقه ما أرى ... لا أنسَ ما كان من هلع أبطالنا وذعرهم وذهاب نفوسهم وتحدر دموعهم من هذه المهمة رعباً وفَرَقا ؛ أما ولدك ، فياما كان أشجع ، وياما كان أربط جأشا ! ! إن عبرة واحدة لم تنسرق من عينيه ، بل إنه كان يحثنى ويحرص جد الحرص على أن أحتاره ، حتى إذا فعلت تقدم متبختراً يجر رمحه الظامىء ، ويغلى صدره بنار الانتقام يود لو يصبها على طروادة وأبنائها جميعا ! ! وما إن فُتحت علينا ، وأبنا منها بالغنائم والأسلاب والسبى حتى نظرت إليه قبل أن يبحر فما وجدته يشكو رَميّةً ، ولا يئن من جرح ، ولا أثر فى جسمه لخدش مما تصنع الحرب ، وما تسجل فعال مارس » .

وزُهي أخيل من كثرة ما أثنيت على ولده فراح يتخايل ويدل وسط شجر البَرْواق[١] ... وكانت جموع من أشباح الموتى تملأ الرحب ، وقد جلس كلٌّ أوهام على وجهه يبكى و يشكو بثه لغير سميع ، وقد رأيت بينهم شبح صديقى التيلامونى — أجاكس — وكان يحدجنى فى الفينة بعد الفينة ، ولكنه لم يشأ أن يكلمنى ! ! آه ! إنه لايزال ينقم علىّ ما شجر بينى و بينه من نزاع على عُـدة أخيل (بعد مقتله) ، وما كان من طلب ذيتيس[٢] ألا يلبس دروع ولدها سواى ، ثم ما كان من تأييد مينرفا اللأم الرؤوم فيما طلبت . لقد كان انتصاراً لى ، كم كنت أوثر ألا يكون ، لأنه كان فيما يبدو سبب مقتل أجاكس المغوار ، الذى لم يكن فينا من هو أشجع منه إلا أخيل نفسه .. ولقد وجهت اليه ألين الخطاب لأفل من سورة غضبه . فقلت له : « أيها العزيز أجاكس ، يا ابن تيلامون المجيد ، أما تستطيع أن تغضى ، وأنت فى الدار الآخرة ، عما شجر بيننا بسبب هذه العدة المشئومة ؟ لعنتها الآلهة من عدة كُتبت فوقها صحيفة موتك ، نخسرنا فيك أشجع فرساننا وأعظم مقاتلينا ! إنا ما نفتأ نبكيك ونشكو رُزْأنا فيك ، ونعد فقدك كفقدنا أخيل نفسه ! ولكن لا تثريب على أحد قط ، فجوف ، كبير الآلهة ، الذى ما ينفك يصب لعنته على جيوش آخايا ، هو الذى قضى عليك بالموت . أيها البطل هلم نحوى كيما تسمع إلى الكلم الطيب الذى أجهد أن أترضاك به ؛

(١) شجر كان يزرعه اليونانيون على قبور موتاهم وقد ذكره الفيروزابادى
(٢) أم أخيل وهي إحدى عرائس الماء .

أتخمد جذوة الغضب عليّ في نفسك ، ولنحسم ما بيننا من حصام ! »
بيد أنه ما حرك شفتيه . بل لوى عنانه وانخرط فى جماهير الأشباح الهائمة وترك الرغبة الملحة المشتعلة فى صدرى شوقاً إلى تكليمه تنطفىء رويداً ... فقلبت نظرى فى الأرواح القريبة عسى أن أعرف منها أحداً فأتحدث إليه ، فلمحت بينها مينوس سليل جوف الأكبر ، وكان يجلس على عرش ممرد للقضاء بين الموتى ، وفى يمينه صولجانه الذهبي الثمين ، ومن حوله زرفت جموع سكان هيدز ، فمنهم الواقف ومنهم الجالس ، ومنهم المنتصب يشرح للقاضى شكواه ، ويبثه بلواه ، بينا قد أهطعت الرؤوس واحتبست النفوس ، وتكأكأت الموتى عند البوابات الكبيرة الهائلة تنتظر دورها ... ثم راعنى أن أرى بين تلك الجموع أوريون الجبار يسوق قطعانه التى ذبحها بيديه فى الدار الأولى ، وهو يرعاها على أوراق البرواق . ورأيت فيمن رأيت تيتوس الجبار ، سليل هذه الغبراء ، وقد كان منبطحاً على الأرض بحيث يشغل فضاء تسعة أفدنة ؛ وعلى كل من جنبيه أفعوان هائل أرقم يتغذى بمضغ من كبده الكبير الدامى ، وينغبُ من أحشائه الغِلاظ ، جزاءً بما حاول أن يستذل لاتونا اللعوب الطروب ، عشيقة جوف سيد أولمپ ، التى فرت من وجهه فى بطائح بيتو إلى فراديس بانو بيوس . ثم رأيت تانتالوس فى ضِعف من العذاب ! رأيته يتخبط فى عينٍ حمئةٍ من حميم ، وقد غاص فيها إلى ذقنه ، والموج يضرب وجهه ويسفعه ، وهو مع ذاك يلهث من الظمأ ، لا يجد ما يبل به غلته ، أو يطفىء جُوَّاده وصداه ! فهو إن حنى .

رأسه غمرته الحمّى ، وإذا رفع جسمه كزّت الأرض على قدميه بأسر ربها فهو فى عذاب مقيم ... ولله أشجار الفاكهة دانية قطوفها فوق رأسه ، من رمان حلو وتفاح عطرى ، وتين معسول وزيتون ، كلما اشتهى أن يقطف ثمرة وكاد ، هبت الرياح عاتيةً فذهبت الغصون عاليةً فى السحاب ! ! . ثم رأيت سيسفوس ذا الأنياب يضنى ويشقى ويتعذب ؛ يدفع أمامه حجراً جلوداً عظيما فيجعله فى رأس جبل ، حتى إذا انتهى إليه عاضت الأرض من تحته بقوة خفية فكانت بئراً عميقة ، فيهوى الحجر من عَلٍ ، فيعود المسكين إلى نَصَبِه عوداً ... على بدء ، ويتحدر عرقه على جسمه العظيم ، ويتبخر من رأسه كأنما ينقذف من بركان ! ... ثم شهدت هرقل الحديدى القوى الجبار ... شبحه فقط ، لأنه هو قد منح بركة الآلهة وخلودها ، فهو أبداً يحضر ولائمها فى شعاف الأولمب ... شهدته يحتضن ابنة جوف الجميلة الفتان ، هيب ، ذاتَ القدمين الناصعتين ، والنعلين الذهبيتين ؛ رأيته وأشباح الموتى ترف من حوله صافات كالطير ، ثم يَقْبِضْن ... وراعنى أن أراه عابساً كالحاً كقطعة من الظلام ، وقد حلق عينيه فى الأرض وفى يديه قوسه وسهامه يوشك أن يرميها ، وعلى وسطه حزامه الرائع المموه بالذهب ، وقد نقشت عليه صور مئات من الدببة والذؤبان والسباع ، ينقدح الشرر من عيونها ، دائبةً فى عواء وزئير وتقاتل ونهش ، صنعةٌ معجزةٌ لم يقدر على مثلها أحد من قبلُ ولا من بعد ... وما كاد يتبينني حتى عرفنى ، وظل يقلب فىّ عينيه الساذرتين ، ثم قال لى : « آه يا ابن ليرتيس النبيل ذا المجد

ما أتعسك ! ! ما أظنك إلا معنياً ببعض الخارفات التى كنت أشغف بها فى حياتكم الدنيا . . ها أنت ذا ترانى هنا ، فى ظلمات هيدز ، عبداً رقيقاً لإله أحقر منى شأناً وأقل قدراً ، لأننى وأنا ابن جوف الأعظم ، قد كتب على أن أشقى هنا لأصل آلام الحياة ولأواءها .. أتصدق أنه يأمرنى أحياناً أن أسوق كلبه ، مع ما فى هذا الأمر من سخرية وتحقير ؟ ولكنى لن أنسى أنى جذبته من مملكته هيدز إلى نور الحياة الدنيا بمساعدة أخى هرمز ، وبمعونة مينرفا ذات العينين الزبرجديتين »

ثم هام على وجهه فى ظلمات مملكة بلوتو ... ثم تلبثت أنا مكانى راجياً أن ألقى غير من لقيت من أرواح الأبطال الذين عرفتهم فى الدار الأولى ، أولئك العظماء ذوى العزة والمجد ... وكم وددت أن أرى بيريثوس وثيذيوس سليلى الآلهة ... بيد أن جموع الموتى الحاشدة التى أقبلت تصرخ قذفت الرعب فى قلبي وخفت أكثر أن ترسل برسفونيه ملكة هيدز ، رأس الجرحون من ظلمات هيدز فتفعل بى الأفاعيل ... فآثرت أن أسرع إلى مركبى ، وأمرت الملاحين فأقلعوا ، وجلسوا على الظهر ، وحملنا تيار سريع عبر البحر المحيط بعد أن أعملنا المجاذيف وقتاً غير طويل

تمام قصة أوديسيوس

١ – السيرينات المغنيات

٢ – سكيللا الهولة

« والآن ، وقد احتملتنا العباب ذو الثبج ، وذرعنا اليم المترامى ، وعتمنا نضرب فى موج كالجبال ، فقد وصلنا بعد لأى إلى جزيرة إيايا المرجانية حيث ترتع أورورا ابنة الفجر الوردية وتلعب ، وحيث مطلع الشمس وراء البحر المضطرب .. وألقينا مراسينا ، وتلبثنا فوق رمال الشاطىء رقب انبلاج الفجر ، حتى إذا لاحت تباشيره أرسلت طائفة من رجالى إلى قصر سيرس فأحضر ا جثمان إلينور (الذى خر من السطح فدق عنقه) ثم إننا بكيناه أحر البكاء ، وجمعنا له من الحطب والخشب ما وسعنا ، وطرحناه وسط الكومة التى صنعناها من هذا الوقود ، وطرحنا معه سلاحه ، وأقمنا إلى جانبه مجداوه العظيم ؛ ثم أدينا له الشعائر الجنائزية التى أرويناها بأزكى دموعنا ، وأشعلنا النيران بعد إذ أقمنا نصباً جليلا ، تحية وذكرى . ولم تغفل بعود تناسيرس ؛ بيد أنها مع ذلك أقبلت فى ربرب من وصيفاتها الحسان الأتراب يتهادين نحونا ، حاملات دناناً من أكرم الخمر ... ووقفت بيننا العروس الهيفاء ثم قالت : « ويحكم أيها الأشقياء كيف حلا لكم أن تموتوا مرتين بينما يموت

جميع الناس مرة واحدة ؟ ولكن تعالوا ، هلموا إلى طعامكم ، وتحسَّوا من هذه الخمر لتقصوا يومكم فوق رمال الشاطىء فى شراب وآكال ، فإنكم ضاربون فى ظلمات ذاك البحر فَجْر غد . و إلى منبئتكم عما يروعكم فى طريقكم عسى ألا تصل بكم . ويا ما أكثر ما تتجشمون من أهوال فى البر والبحر ! وابينا دعوة الربة المضياف ، فأقبلنا على طعام شهى وشراب رَوِى طيلة يومنا ، حتى إذا توارت ذُكاء بالحجاب ، وشملنا ظلام الليل ، تطرّح رجالى فوق الرمال النائمة ، ثم انتحيت أنا وسيرس ناحية ، وجلست قبالتها ، وراحت هى تحدثنى وتقول : « أما وقد أوشكت متاعبك أن تنتهى ، فاصغ إلى ؛ إفقه ما أقوله لك وتدبره ، فهو وحى يوحى إليك من السماء ينفعك إذا جد بك الجد ، وأزفت حولك الآزفة ... ستصل أول ما تصل فى رحلتك عبر هذا البحر إلى جزيرة السيرينات الشاديات اللائى يسحرن بغنائهن القلوب ، ويخلبن بجرسهن الألباب ، ويطّبين(١) كل من أوصله سوء حظه إلى جزيرتهن بحلو تطريبهن وجميل شَدْوهن حتى ليلصق بأرضهن وينسى آله وأوطانه ، ولا يخطر فى باله أن يعود إلى بلاده ليهنأ بلقاء زوجه الحبيبة وأولاده الأعزاء ، بل يجمد مكانه من الشاطىء حيث يكون بمسمع من السيرينات ، وتكون عن يمينه وعن شماله رفات الضحايا الكثيرين الذين عرجوا من قبل ليشنفوا آذانهم بغناء أولئك العذارى فجمدوا مثله ، وذهلوا عن أنفسهم حتى ذووا ، وذبلوا وضووا ، وحاق بهم الفناء ، بينا يخطر السيرينات بين شجر

---

(١) إطبى القوم فلانا حالوه وقتلوه .

البرواق متهـاديات فوق السندس الحلو الجميل .. فأوصيك أن تُفرغ فى آذان رجالك من سائل الشمع قبيل أن تبلغ أرضهن ، فإنهم بذلك لا يسمعون شدوهن ولا يسحرون بغنائهن . أما أنت ، فلك أن تنصت إلى ذاك الغناء إن شئت ؛ بيد أنه ينبغى أن يشد رجالك وثاقك فى قلع سفينتك شداً قوياً محكما ، فيربطوا ذراعيك وساقيك بأمراس وأحبال ، حتى لا يسبيك ما يُشنف أذنيك من غناء وشدو فلا ترضى إلا أن تثوى بأرض السيرينات ؛ فإذا اشتد بك الوجد من سحر ما تسمع وطلبت إلى رجالك أن يخلوا عنك لزم أن يزيدوا فى رباطك ويحكموا وثاقك أضعاف ما فعلوا بك من قبل ... فإذا جُزتم تلك الجزيرة وغابت مناظرها عن أبصاركم ، فلرجالك أن يطلقوا سراحك .. على أننى لا أدرى أى السبل ينبغى أن تسلكوا بعد هذا ، فهنالك طريقان أحلاهما مر ، وأيسرهما عناء وضر ، وإنى واصفة لك كليهما ، وأدع لذكائك أن يختار لك ... إنكم بالغون فى سبيلكم إلى صخور هائلة ناتئة فى البحر ، تتكسر فوقها أواذيُّه ، وترتطم بجلاميدها أمواجه ، وتدافعه على أحيادها أمفِترْيت (زوجة نبتيون) الجبار . وقد أطلق الآلهة على هذه الصخور اسم (إبراتيك) وهى قِلال موحشة لا يستطيع مخلوق أن يقترب منها ، ولا يجسر الطير أن يهبط فيها ، بل طير أبينا جوف نفسه الذى يحمل إليه غذاءه الإلهىّ المقدس ، لم يجازف مرة فحط فيها يستجم من سفر ؛ لما يعلم من أنها مهلكة زَلِقَة . ولم ترس عندها سفينة قط إلا ارتطمت فوق نتوئها وهوت إلى القاع بما حملت ، أو ابتلعتها العواصف الهوج فغابت

حيث لا يدرى أحد . ولا يعرف أحد سفينة جازت مهالك هذه الصخور إلا السفينة (آرجو) التى حاطتها جونو[1] برعايتها رحمة بجاسون وحناناً من لدن سيدة الأولمب ، حين أقلعت من جزيرة إيايا ؛ وقوام تلك الصخور هضبتان شامختان شاهقتان ، تمثل إحداهما صنما هولة ضخما يضرب فى السماء بَرَوْقَيْه وتتراكم فوقه منذ الأزل ثقال السحاب التى لا يذيبها خريف ولا صيف ، لأن الشمس لم تنشر عليها أشعتها قط ... ولو أن أحداً من العالمين له عشرون يداً وعشرون رجلاً ما استطاع أن يرقى عليها أبداً ، لأنها ملساء ناعمة كأنما صقلتها يدا مثال صناع .. وإن فى سندهِ الغربى لكهفاً سحيقاً تقر ثمة باسم إربوس[2] ، وإنى لأحذرك أن تقترب منه حين تجوز به يا أودسيوس ، بل كن بنجوةٍ منه ، بعيداً بقدر ما تستطيع ، أو على الأقل على مرمى سهم مراش من سفينتك إلى وصيده ؛ ذلك لأنه مأوى سكيللا المخيفة التى تدَوِّى بصوتها وعوائها ، وتُفرق الناس والآلهة من وجهها المكلثم القبيح ؛ وحسبك أن تعلم أن لها اثنتي عشرة قدماً كلها أمامية ، وأن لها ستة أعناق طوال ينتهى كل منها برأس كبير فظيع ، سلح بثلاثة صفوف من أنياب حداد أصلها نابت وحشوها سم زعاف وهى تربض فى غور كهفها السحيق ، بينما أرؤسها بارزة من فوهة الكهف تبحث فى الماء عن الدلافن وكلاب البحر ودواب الماء وجميع حيوان مملكة امفتريت ... وليس يجسر بحار أن يفخر بأنه نجا مرة من شرها فهى تنقض كالصاعقة على السفينة العابرة ، وتلتقم

---

(١) هى حيرا زوج زيوس كبير الآلهة .

(٢) إله الظلماء الذى تزوج من أمه (ليله) .

بأفواهها الستة الجائعة ستة من بحارتها مرة واحدة تقصمهم قصما ... وتلقاء هذه الهضبة ، هضبة أخرى على مرمى سهم يا أودسيوس ، وقد نمت فوقها تينة برية كبيرة ذات أفنان وعساليج حانيات فوق الماء ، وتحتها عين خاربديس الحمئة التي يغيض فيها ماء البحر كله ثم تعود فتمجه ثلاث مرات في اليوم . ويلك أودسيوس ! خذوا حذركم ! فوالله إنكم إن دنوتم منها فإنها تبتلعكم ، ولا يستطيع نبتيون نفسه بعد ذلك أن ينجيكم وإني أرى أن تدنوا من الصخرة الأولى فتلتقم سكيللا ستة منكم ، وهو خير لكم من أن تغرقوا جميعاً » وسكتت سيرس ، وقلت أسائلها : « بحق الآلهة عليك يا ربة أن تخبرى : أما أستطيع أن أنقذ رجالى المساكين من سكيللا إذا نجونا من خاريْدِبْس؟ » فقالت تجيبنى : « أيها التعس ، أما تفتأ تحن إلى مجازفات الحرب وخوض غمار الوغى ؟ إنه لا سلطان للآلهة نفسها على سكيللا ، وهى ليست مخلوقاً مما يجور عليه الفناء ، بل هى غول سرمدى شديد المراس ، شكس شديد الشراسة ، لا يغالب أحداً إلا غلبه ؛ فأطلق سفينتك للريح ، ولذ منها بالفرار . وإياك أن تفكر فى التسلح لها ، فهى لابد ملتقمة ستة من رجالكم ، وإذا حاولت مدافعتها فإنك منهم ! ! فإذا بعدت فاضرع إلى كراتيس ، أم هذه الهولة التى هى إلى الأبد طاعون للبشر ، أن ترد كيد ابنتها عنكم فلا تتبعكم فى سبيلكم ولا تلتقم منكم أكثر مما فعلت ... وإنكم بالغون (تريناشيا) بعد هذا حيث ترعى الربتان الحسناوان : لمبتيا وفيتوزا ابنتا هيبريون من عروس الماء نيرا ، قطعان أبيهما السبعة التى يشمل كل

منها خمسين شاة ذوات صوف ناصع كالثلج ... وكل هذه الشاء يرعى ثمة باسم رب الشمس العظيم . فإذا كنتم حقاً تتشوفون لبلادكم ، وتتحرقون شوقاً إليها ، فاحذروا أن تصيبوا تلك القطعان بسوء ، فإنكم إن فعلتم غرقت بكم سفينتكم وذهب رجالك أباديد . أما أنت ، فتنجو بعد لأى و بعد نضال وأهوال ، فتصل إلى بلادك ملوماً محسوراً ! »

وتنفس الصبح الندى الرخي فذهبت تتبختر وتجرر أذيالها إلى قصرها المنيف ، وذهبت أنا إلى الشاطىء فأيقظت رجالى، وأمرتهم فجروا السفينة حتى استوت فى الماء ، ورفعت مراسيها ، ثم جلس كل إلى مقعده ، وأعملوا أيديهم فى مجاذيفهم فتدافعت الفلك فى البحر ، وما هى إلا لحظة حتى أرسلت سيرس ، الربة المقدسة ، نسيماً رُخاءً كان خير رفيق لنا ، إذ كفانا عناء التجديف ، فتطرحنا فى المركب ، واشتدت الريح فى غير عصف فأسرعت بنا دِرَاكا ... ثم كلمت رجالى وفى قلبى وجيب فقلت : « أيها الأصدقاء تعالوا أحدثكم عما تنبأت به سيرس لنا فى رحلتنا هذه، وإنه سيان إن أفلتنا من العذاب أو تردينا فيه ؛ بل أردت أن أطلعكم على ما خبأته المقادير لنا لتأخذوا حذركم ، وتبرموا أمركم ، ويكون كل على نفسه وكيلا . لقد حذرتنى أن يستمع أحدكم إلى غناء السيرينات الشاديات وحلو تطريبهن ، وأجازت لى وحدى أن أصغى إليهن؛ بيد أنها أوصتنى أن أخبركم أن تشدوا وثاقى بأمتن الأمراس فى سارية السفينة فلا تطلقوا سراحى حتى نبعد عن جزيرتهن . وكلما رجوتكم أن تحلوا عنى شددتم وثاقى أكثر فأكثر (هذا إن أردتم أن نكون بنجوة من الهلاك.

فى تلك الأرض الملعونة) » . وهكذا نبهت غافلهم بتحذيرى . ثم إننا انطلقنا فى اليم ، وأخذنا نقترب من جزيرة السيرينات ، وعرفت ذلك لما هدأت الريح فجأة ، ونام الموج ، وخفتت أنفاس الطبيعة ، وشمل الركود كل شىء حولنا ، كأنما مسحت يد مقدسة علوية كل هذا الوجود الرحب . ونشط الملاحون إلى مجاذيفهم فالتمع تحتها بساط الماء ، ثم نشطت أنا إلى قِدْر من الشمع فعالجته بسكين ، ثم قوّمته راحتى وتركته كى يلين قليلا فى أشعة الشمس ، ثم جعلت منه فى آذان رجالى واحداً فواحداً . واستسلمت لهم بعد هذا فشدوا وثاقى فى شراع السفينة شداً محكما ، وجلس كل إلى مجداوه ، وانسربت الفلك فى الماء تشقه وتجرجر فيه .. وصرنا على مدى مايبلغ الصوت من الجزيرة إلى آذاننا فأصغيت وأصغيت ، وإذا السيرينات الشاديات يتغنين هكذا :

« أودسيوس أيها الزعيم ! يامن لهج بذكره كل لسان »

« ألق فى جزيرتنا مراسيك يافخر اليونان »

« تلبّثْ عندنا أيها العزيز وشنف أذنيك بأغانينا »

« فما من أحد جاز بجزيرتنا حتى عرج يتزود من هذا الغناء »

« ثم يقلع أسعد ما يكون ، وأفطن ما يكون »

« ذلك ونحن نعلم من أنباء ما أصابك كل شىء »

« ما خضت من معمعان طروادة ، وما أصابتك الآلهة من مصيبة ، وما اتى قومك فى كل مكان »

« تعال تعال .. هلم نحدثك فعندنا علم كل شىء » .

وهكذا شرع العذارى يسكبن إرنانهن الجميل فى قلبى ، وكأنما كن ينفثن فيه السحر فيصغى ويصغى وتلح عليه الرغبة فى الإصغاء ، ورحت أنا أضرع إلى قومى أن يفكوا قيودى ويطلقوا سراحى ويخلوا بينى وبين السيرينات المطربات ، فلم يسمعوا لإشاراتى ولم يستجيبوا لتوسلاتى، بل هبّ يوريلوخوس وبرميديس فضاعفوا أغلالى وشدوا على حبالى . ثم بعدنا .. وظللنا نبعد ونبعد ، حتى إذا كنا حيث لا يصل إلينا من شدو السيرينات شىء ، نهض رجالى فأزالوا ما كنت قد جعلته فى آذانهم من الشمع ، ثم عمدوا إلى فأطلقوا سراحى ... وما كادوا يفعلون حتى أبصرت فى ظلام البعد موجاً كالجبال كأنه ظلمات بعضها فوق بعض ، ودخاناً كثيفاً ينعقد فى الجو ، ثم إذا بى أسمع رعداً قاصفاً يصم الآذان ! وقد ذهل رجالى عن أنفسهم ، وطارت المجاديف من أيديهم فلم تعد تجديهم نفعاً ، ووقفت السفينة كأنها الأرجوحة على أرؤس الموج؛ وذهبت أنا أشجعهم رجلا فرجلا: « أيها الرفاق ! ها نحن نلقى أولى عقباتنا ، وهى ليست على كل حال أشد هولا من مصيبتنا يوم حبسنا السكلوب فى كهفه السحيق ، وكيف احتلت لفرارنا من وجهه ؛ وسيأتى يوم نذكر تلك الشدة المفاجئة بمثل الغبطة التى نذكر بها الشدائد السوالف ... هلموا إذن فاثبتوا فى أماكنكم ، واعمدوا لهذا اللج المصطخب ، واضربوا فيه فى جلد وصبر ، عسى أن يكلأكم جوف ربكم فينجيكم منه وأنت أيها الربان أصغ إلى ، إنك تقبض على ناصية الحال فتحاش أن تقترب من هذا الدخان وتلك الأمواج الثائرة إبتعد ما استطعت عنها ، وحذ سبيل هذه الصخرة، ذلك أدنى ألا تقذف

بنا فى حمأة الخطر .. » وظللت أنفخ فيهم روح الصبر حتى فاءوا إلى أمرهم فاستقتلوا فى مجاهدة الأمواج استقتالا ... وتسلحت أنا بكل ما استطعت من عدة ، وجعلت فى يدى رمحين طويلين ، ووقفت أرقب سكيلا الهولة من بعد ، ولم أجسر أن أذكر كلمة عنها لرفاقى حتى لا تفرغ أفئدتهم فرقاً فيهربوا من عملهم ويكتظوا فى بطن السفينة مخافة أن يمسهم منها أذى .. وشرعنا نعبر البوغاز ، . . ولشد ما أفزعنى أن أرى سكيللا ترمقنا وتتلمظ ، وقد انتصبت كالموت على الشاطىء القريب ، ثم أرى فى الوقت نفسه خاربْديس على الشاطىء الآخر تحشرج فى حلقها الرحب الفظيع عباب الماء ثم تمجه ، فكأنما تقذف من جوفها ماء فائراً يعلو فى الجو كالحميم ، ثم ينهمر وبله فى كل فج ، وتعود فيفيض فى البحر من بلعومها ، ثم تقذفه ، وهكذا دواليك .. يا للروع ، ويا للفزع الأكبر ! تالله لقد كنا ننظر ما تبدئ خاربديس وما تعيد فى جزع وفى هلع ، بينما كانت سكيللا تتوثب وتتوثب ثم ترسل أرؤسها الستة فتلتقم ستة من رجالنا كانوا وا أسفاه أشجعهم جميعاً ، وكان قلبي يتمزق حين راحوا يهتفون بى ويناادوننى باسمي وأنا كالذى أسقط فى يديه ، ما أستطيع شيئاً فأصنعه ، بل أنظر إلى أذرعهم وأرجلهم تتقلب فى الهواء وهم يصيحون ويُعْوِلون ، وأنا ساكن ذاهل أقلب كفى ولا أفعل شيئاً آخر ! واحزناه ! ! ما كان أشبه سكيللا المتوحشة بصائد السمك الذى أطعم سناره وأرسلها من فوق صخرة تداعب السمكة المسكينة ، حتى إذا حان الحين جذبها إلى عل تترنح هنا وهناك . هكذا كانت هذه اللعينة التى جذبت إلى كهفها أشجع

رجالها وراحت تقتات بهم بين الصراخ والبكاء ، وبين التوجع والأنين ، وكلهم يمد إلى ذراعيه مستنجداً مستغيثاً فى قنوط ويأس!! أبداً ما وقعت عيناى فى جميع مخاطراتى ، على منظر أبعث للأسى ، وأمض للنفس ، وأجرح للفؤاد ، من ذلك المنظر الرهيب !

وما كدنا نفلت من سكيللا وخاربديس بعد تلك الفاجعة حتى اقترينا من أرض الشمس ، حيث ترعى قطعان هيبريون[1] الجميلة الكثيرة ذات الفراء الناصعة ... ولقد كنت أسمع ثغاءها ورغاءها إذ أنا على ظهر سفينتى فى عرض البحر. وسرعان ماذكرت ماقاله لى الكاهن الطيبى الأعمى ، تيرزياس فى هيدز ، عن هذه القطعان ، ثم ما أنذرتنى به سيرس سيدة إيايا من وجوب الابتعاد عن هذه الجزيرة التى كانت منذ الأبد غواية البشر ، حتى قمت فى رجالى فجعلت أحذرهم وأقول : «أيها الرفاق اسمعوا : هذه هى جزيرة الشمس الهائلة التى حذرنا تيرزياس الكاهن الطيبى من الرسو بها أو الاقتراب منها . وكذلك حذرتنى منها سيرس ربة إيايا ، وإن كان ما لقينا من أهوال ليس شيئاً إلى الهول الذى يحيق بنا إذا حللنا بها . فاسمعوا نصحى وسيروا بنا نذرع هذا البحر نسلم من شر مستطير ، وبلاء لا يجيرنا منه مجير» وكانوا يصغون إلى فى حيرة وذهول ، وما كدت أفرغ حتى انتصب يوريلوخوس يرد على فى جفوة وضيق : «أوديسيوس ، أيها القاسى الطاغية ، أما أوهنت كل تلك الشدائد جلدك ؟ أمخلوق أنت من حديد فما ترق وما تلين ؟ أتأبى على رجالك

---

(١) فى بعض المصادر أن الشمس غير هيبريون ، وفى بعضها أنها هو ، وفى بعضها أنه أحد سواس عربتها .

الموهونين المكدودين أن يرسوا بهذه الجزيرة الفيحاء المعشبة ليريعوا مما بها من آلاء ، وليطعموا من خيرها الكثير ؟ أتصرفنا عنها بنزقك وقلة صبرك فنخبط طول الليل فى هذا البحر الأجاج خبط عشواء مع ما تكون الريح عليه حينئذ من شدة وعنف ؟ خبرنا أيها الأحمق ماذا نصنع إذا عصفت بنا نكباء من الجنوب تحطم فلكنا ولا ينجينا من بطشها أحد حتى الآلهة ؟ أليس الأفضل لنا أن نرسو فى هذه الجزيرة فنقضى بها ليلنا ، حتى إذا انفلق الإصباح أقلعنا منها على هدى ؟ ! » .

وحمد الملاحون ما قال ، فدار فى خلدى أن لابد مما ليس منه بد ، وأن لابد من وقوع القارعة الكبرى بنا ، فقلت فى كلمات يائسات : « لا ضير يا يوريلوخوس ! وليس بى من بأس أن أخضع لما ترى الجماعة ؛ ولكن تعالوا جميعاً فأعطونى موثقكم ألا تذبحوا شاة ولا تجزروا نعمة مما هنا من هذه القطعان ، مهما ألح عليكم السَّغَبُ ، وأضواكم الجوع ... بل يكون حسبكم ما حملتم من آكال من عند سيرس » .

وأقسموا أغلظ الأقسام أن يفعلوا ، ثم يمموا بالفلك فى جون هادىء ترتمع فى وسطه نافورة رائعة ؛ فأرسوا ثَمَّ وتدفقوا الشاطىء ، وراحوا يعدون وجبة المساء ؛ بيد أنهم سرعان ما نسوا مسغبتهم حين تذكروا إخوانهم الذين غالتهم سكيللا ، وراحت تتغذى بهم أمام كهفها السحيق فأخذوا يبكونهم و يذرفون عليهم دموعهم حتى غلبهم النعاس ، فناموا ... وفى الهزيع الثالث من الليل ، حين عبرت النجوم فكانت فى كبد السماء ، ساق جوف رب السحاب الثقال ريحاً جابت البر والبحر ،

وغمرتهما بماء مبهر ، ثم عقد فى الكون ظلمات فوق ظلمات يتدحى بعضها فى بعض .. ثم أشرقت أورورا الوردية ، فنهضنا من مراقدنا ، وسحبنا الفلك إلى غار كان لبعض عرائس البحر يرقصن به أو يستروحن فيه ؛ وما كاد شملنا يجتمع ثمة حتى نهضت فى رجالى أقول : « أيها الرفاق إننا ما ينقصنا غذاء ، وما بنا من حاجة إلى أكل ، فمعنا من ذلك الشيء الكثير ، فإياكم أن تمسوا هذه القطعان بأذى ؛ وحسبكم أن تعلموا أنها ملك خالص لربة الشمس التى تراكم أينما كنتم » وهكذا أيقظت فى نفوسهم النخوة . ثم إنا لبثنا فى هذه الجزيرة شهراً ما نريم عنها وما كان لنا إلى غيرها متحول ؛ ذلك لأن الدّبور[1] ظلت تهب من الجنوب فى صرامة وشدة ، فإذا هدأت ، لم تهدأ إلا لتهب ريح شرقية أشد منها عنفاً . لم يمسوا قطعان الجزيرة السائمة بأذى ما دام لم ينفذ ما كان معهم من طعام . فلما تناقصت ميرتهم راحوا يتلمسون صيد البر والبحر ، أما أنا فكنت أجوس خلال الجزيرة عسى أن ألقى إلهاً أضرع إليه فيجعل لنا من أمرنا مخرجاً . . وبينا أنا أجوب الجزيرة إذا بى أبعد كثيراً عن رفاقى ، فبدا لى أن أسكن إلى منعطف دافىء هادئ على سيف البحر ، فأغسل[2] يدى مما علق بهما من قذر ، ثم جلست أصلى للآلهة ، وأدعو واحداً بعد واحد أن تهيىء لنا من شدتنا مرفقاً ، ولكنها جميعاً — وا أسفاه — أصمت آذانها عن دعائى ، ثم أرسلت علىّ طائفاً من الكرى ... فنمت نوماً عميقاً ... بينما كان يوريلوخوس التعس يوسوس إلى رفاقه فيقول : « أيها

(١) ريح الجنوب ضد الصبا

(٢) كان غسل اليدين كالوضوء عندنا شرطاً لا تصح الصلاة اليونانية بدونه .

الأخلاء ! أما أحوكم فى البلاء فاسمعوا وعوا . ليس أشنع من الموت إلى النفس ، ولكن الموت جوعاً هو أشنع ألوان المنايا التى يرتجف منها الإنسان ... هلموا . . لنذبح من هذا الشاءوالنعم ، ولنضح للآلهة أضخم ثيران الشمس ، ولننذر أن نبنى للرب المبارك هيبريون هيكلا عظيما حالما نصل سالمين إلى إيثاكا ، ولننذر أيضاً أن نجعل فى الهيكل من الطرف والتحف مايرضى الإله ويكفر عن سيئاتنا . أما إذا آثر أن يغرق فلكنا وتضافرت معه جميع الآلهة على ذلك ، لأننا ألحقنا أذى بعدد من قطعانه ، فإنى أول من يجاهر بقبول الموت مرة واحدة فى أعماق هذا اليم ، على أن أموت هـذا الموت البطىء جوعاً ! » وزين لهم ما قال ، فاستاقوا أسمن ما فى القطعان التى كانت ترعى العشب قريباً منهم ، ثم أطعموها أنضر أوراق الشجيرات الباسقة إذ فرغ كل ما لديهم من الشعير ، ثم صلوا للآلهة ، وجزروا الحيوانات البائسة ثم سلخوها ، وفصلوا الأفخاذ والشحم ، وقذفوا بها إلي النار تقدمة للآلهة وقربانا .. ولم يكن معهم خمر ليتموابها الشعائر القدسية ، فقذفوا فى النار بدلا منها ماء قراحاً ... وجلسوا بعد هذا يعدون شواءهم من الحوايا(١) والكبد وما إلى ذلك مما فى جوف البهيم ؛ حتى إذا طعموا ملء بطونهم انطرحوا فى مراقدهم بينما استيقظت فجأة من سباتى ونهضت لأنطلق فى طريقى صوبهم . وما كدت أشرف عليهم حتى ملأ خياشيمى قتار(٢) ما فعلوا ، فوجمت وجوماً شديداً ؛ ثم أجهشت ، ثم استخرطت فى بكاء طويل وضرعت إلى الآلهة وظللت أقول . « أهكذا

(١) الامعاء

(٢) ريح الشواء .

يا أرباب السماء تاقون عليَّ ذلك الطائف من الكرى فيفعل أصحابى ما فعلوا إذ أنا أغط فى نوم عميق ؟ » . وطارت لمتيا بالخبر المشئوم إلى إله الشمس فثار ثائره وطفق يصخب ويهتف بالآلهة ويقول : « يا چوف العلى ، وأنت يا آلهة السموات ! إثأرى لما فعل السفهاء من رجال أوديسيوس . لقد احتزأو فجزروا من نعمى وشائى التى هى بهجتى وأنسى والتى أرمقها أبداً من علياء السماء ؛ فإن لم تنتقمى لى فوعزتى لأهبطن بشمسى إلى إلى هيدز فأنير آفاقها وأصفى أضوائى على الأشباح ثمة (وأدع هـذا العالم المشرق الجميل يضرب فى دياجير ما مثلها دياجير » وأجابه رب السحاب الثقال فقال : « يا إله الشمس على هينتك ؛ بل ظل مشرقاً على بنى الموتى الدائبين فى تلك الأرض ، وإنى مسخر صواعقى على سفينتهم فى لج الدهر فتذهب بها وبهم أباديد » ... أما من أخبرنى هذا فقد حدث به هرمز رسول الآلهة . ثم وقفت فيهم أنتهرهم وأنعى عليهم ، ولكن ... وا أسفاه ! أى انتهار وأى نعى وقد سبق السيف العـذل ؟ ! ثم حدثت المعجزة !! وبدأت السماء تشهد آياتها فقد تحركت الجلود الملقاة على الأرض وزحمت بحونا ثم سمعنا مُضَغ اللحم الغريض سواء ما ظل منها دون أن يمس وماعاق منها بالسفافيد ، وقد أرسل ثغاء وخواراً كأنها لا تزال على قيد الحياة ! . . وهكذا ظل رفاقى يجزرون كل ثور حنيذ من ماشية إله الشمس ويغتذون بحواياها طوال ستة أيام ، حتى إذا كان السابع أمر چوف العاصفة فهدأت ، والبحر فتطامن ، فأهرعنا إلى الفلك فأنزلناها فى اليم ، ونشرنا الشراع ، وأقلعنا حيث لا ندرى ماذا يراد بنا ! ! ثم غابت الأرض

عن الأنظار ، ولم يكن إلا البحر من ورائنا وأمامنا وعن شمائلنا وأيمانا ... ثم السماء من فوقنا .. ثم شرع زفيروس(١) يهب ويهب ، ويقلب اللج من حولنا ، ثم اشتد واشتد ، وصار ريحا عاصفاً هوجاء ، كسرت قلاعنا وحطمت سكاننا ، وذهبت بقلب الربان المسكين فلم يعد له صبر ولا جلد .. ثم سلّط علينا جوف صواعقه فقصمنا ، وحطم سفينتنا فترنحت أول الأمر ، ثم غاصت إلى الأعماق ، وطفونا على سطح البحر الغاضب بلا أدنى أمل فى أى شىء ، بله العودة إلى بلادنا ... ولقد كنت أرقب حطام الفلك يطفو معنا ويغوص ، حتى عنّ لى أن أعلق بالهراب القريب منى ، فطويت عليه قطعة من الشراع الممزق وجعلته لى تماماً لصقت به ، بينما نامت الشمال لسوء حظى ، وأخذت الجنوب تهب فى عنفوان وبأس ، وتدفعنى بقسوة وقوة حتى خيل لى أنها ستنتهى بى إلى عين خاربديس الجمئة ... يا للهول ! لقد مضى على ليل أيما ليل ... حتى إذا أشرقت ذكاء ، رأيتنى ويا للأسف عند صخرة سكيللا ، وعلى مسافة من عين خاربديس . ولحسن حظى كانت اللعينة قد ابتلعت كل مياه الشاطىء ... ثم دفعتنى موجة من الأعماق فاستطعت أن أعلق بأحد أغصان التينة الهائلة النامية فوق صخرتها ، فبقيت لاصقاً به كالخفاش لا يمكننى أن أهبط أو أن أتسلق لعظم ما كانت الأغصان تبتعد من الأرض وتمتد من حولى ، ولأنها كانت تعرش من فوق خاربديس ، حتى كنت أرتعد من فزع وهلع عند ما كنت أبصر تحتى فأرى العين الحمئة الملعونة تبتلع الموجة إثر الموجة ؛ ثم

---

(١) إله الصبا .

رأيت الهراب وقطعة الشراع التي كنت عالقاً بهما يتقذفان نحوها ويكونان تحتى فطربت ولو أن هـذا جاء متأخراً حتى ريع قلبى ووهنت قواى ؛ وغمرنى شعور الذى انفرجت أزمته ، وكشفت عنه غمته ، فهويت إلى الماء ، وتعلقت بهما بقبضتين مستميتتين .. ويلاه علىّ !! أواه ! لو لمحتنى سكيللا الهائلة طافياً هنالك ! إذن ما استطاع إنقاذى رب الأرباب نفسه من مخالبها وأنيابها ! ! ثم بقيت هكذا تسعة أيام بلياليها . يصرعنى البحر وأصرعه ، ويناضلنى الموج وأناضله ، حتى رثت الآلهة لحالى فساقتنى فى العاشر إلى أوجيجيا ، جزيرة عروس الماء كليبسو ، فرسوت ثمة فى ليلة ليلاء ، مظلمة طخياء ... وقد نالنى من كرم العروس وجميل معروفها ما رد إلى قواى ، وأثابنى عما لقيت من شقوة وأرزاء ...

ولكن لم هذا ؟ لقد سمعتم قصتى مع كليبسو من قبل ، إذ رويتها الملك ولزوجه أمس ، وإنى لأكره الحديث المعاد » .



أوديسيوس يصل إلى إيثاكا

وفرغ أوديسيوس من حديثه ، وجلس القوم فى الردهة ذات الظُّلَلِ مسبوهين مشدوهين من روعة ما حدث ، ومن غريب ما روى ، حتى تكلم الملك فقال : « أوديسيوس ، يا أيها العزيز ! صفا بالك وطاب حالك واستذريت من ذرى هـذه القبة الشماء بركن ركين ، فلن ينالك أذى بعد اليوم ، ولن تقدر عليك الرياح الهوج فى رحلتك الآمنة إلى بلادك ، وإن يكن مثلك لا يبالى الحدثان ، ولا يأبه لصروف الزمان ، بعد إذ رضع لبانها ، وتقلب طويلا فى أحضانها . . وإنه والله ليس أحب إلينا من أن تقيم آخر الدهر عندنا فتتحسى معنا من أكرم هذه الخمر ، وتشنف أذنيك بمـا يتغنى مطربنا الحبيب الإلهى ؛ وإلا ، فذاك صندوقك العزيز وفيه أذخار الهدايا وأعز اللهى ، من مطارف الديباج ، ومكنون الذهب الوهاج ... ولـكن على رسلك ، هلموا يا معاشر الفياشيين فليحضر كل منكم للنازح الـكريم طُرْفةً من أبرّ الطرَف ، وتحفةً من أحل التحف ، ولتكن ركيزةً من الذهب وأصيصاً صغيراً للزهر ؛ وليساهم الشعب فى هذا ، ذلك أدنى ألا تطيقوا ثمنها[1] » .

وصادفت مقالة الملك هوى فى قلوب السادة زعماء الفياشيين ؛ ثم نهضوا فتفرقوا إلى منازلهم يلتمسون الراحة ، وينعمون بطيب المنـام ؛

(١) فى الأصـل : إنه سيكلف الشعب بعض الضرائب لسداد الثمن ولا يدرى كيف يسيغ ملك أن يقول ذلك

ونضرت أورورا ابنـة الفجر جبين المشرق بأفواف الورد وهب الزعماء العظام من مراقدهم ، وبادروا إلى السفينة بهداياهم التي وصف الملك . وقد كان ألـكينوس نفسه ينتظرهم ثمة ؛ وكان يتناول كل هدية بيديه فيضعها موضعها الأمين تحت مقاعد الجدفين حتى تكون بنجوة من ضرر يصيبها ، أو أذى يلحق بها ، حين يكون الملاحون مشغولين فيما هم بسبيله من عمل البحر ومصارعة الموج ... حتى إذا أسلموا تذكاراتهم عادوا مع الملك إلى قصره المنيف لوليمة الوداع الماحرة وقد قرّب إلى جوف الـكبير المتعال ، رب الأرباب ورب السحاب الثقال ، بثور جسدٍ عظيم ؛ وأُعدّ من نخذيه شواء شهى أقبـل عليه القوم يأكلون ويرّوغون[1] ، بينما يسكب فى آذانهم غناءه ديمودوكوس مطربهم الحذق الحبيب . وكان أوديسيوس يرنو بطرفه المشتاق إلى الشمس يود من أعماقه لو عجلت إلى خدرها ، وكان يضجره منها جريانها الوئيد ، فهو دائماً يرقب مغيبها بعيني الزارع الشقى الجوعان الذى أجهده طول النصب فى حرث حقله ، معلق بصره بالشمس يتمنى لو هبطت فجأة فى المغرب ليلوى أعنة بهائمه إلى كوخه ، وليتبلغ هناك بلقيمات ! وما كادت تتوارى بالحجاب حتى وجه الخطاب لزعماء الفياشيين فى شخص الملك ، فقال : « مولاى الملك الجليل ألـكينوس ! يا فخر شيرا وعماد الفياشيين ! تمنيتُ لو أديت الصلاة الخمرية يا مولاى وتفضلت فأذنت لى فى وداعكم ، ما دمتم قد أعددتم لى الهدايا واللهى ، والأبطال الصناديد من رجالـكم الملاحين ... وإنى لأضرع

(١) يدسمون اللقمة .

إلى الآلهة أن ترعانى فى رحلتى فى اليم ، وأن أصل إلى بلادى فألقى فيها آلى وعشيرتى سالمين ، كما أسأل أرباب الأولمب أن ترعاكم وأن تقر أعينكم جميعاً بذويكم ، وأن تفىء عليكم من نعمائها ، وتحفظ بلادكم من عاديات الزمان وملمات الحدثان » وسر الجميع من مقالته فهتفوا له ، ورجوا الملك أن يأذن له فى السفر ، فالتفت ألكينوس إلى مشيره وقال : « هلم يا بُنتُون فأدهق الزق واحمل الخمر إلى جميع أضيافنا ليريقوها خالصةً لوجه سيد الأولمب ، كي نتأذن لأوديسيوس بالرحيل إلى دياره » ولبى المشير ، وأخذ كل كأسه ، ولم ينتظر أوديسيوس حتى يصل الندمان إلى المملكة المبجلة الوقور ، بل هب مسرعاً وقدم إليها كأسه الهائلة ، وقال : « وداعاً يا مولاتى الملكة آخر الوداع ! وداعاً إلى آخر العمر ! وليكنْ عمراً موفوراً مُخفرَجاً تقرين فيه بمولاى الملك والسادة النجب أبنائك المحبو بين وشعبك » وحَيًّا و بَيًّا ، ثم أسرع إلى المرفأ ومشير الملك يسعى بين يديه ، وثلاث من وصيفات الملكة يتهادين فى إثره ؛ أما أولاهن فكانت تحمل الثوب الديباجىّ الموشّى ؛ وأما الثانية فكانت تحمل الصندوق الثمين ذا الأذخار ؛ وحملت الثالثة مئونةً حافلةً من أشهى الآكال وأطيب الشراب ... حتى إذا كن عند السفينة ، سلمن ما حملن الملاحين الشجعان وانثنين من حيث أقبلن ... واشتغل بعض البحارة بإعداد فراش وثير فى قمرة خلفية من أجل أوديسيوس ... الذى آوى إلى منامته واستغرق ثمة فى سبات لذيذ ، بينما كان الملاحون دائبين فى فك الحبال ورفع المرساة من صخور الشاطىء ، حتى إذا انتهوا توزعوا إلى مجاديفهم وأعملوا

ويها أيديهم ، فهمت الفلك واحتواها الماء ، وأقلعت تشق الأمواج ، وتأخذ سبيلها فى البحر سرباً ... هذا بينما كان النائم البرىء قد استسلم لطائف من السكرى يشبة ظائف المنون .

وعمرك الله هل رأيت أربعاً من صافنات الجياد تتبارى فى حلبة ، وقد أذن المؤذن فاندفعت تنهب الرحب ، وأرسلت فى الهواء أعرافها ؟ لقد كانت السفينة تتواثب على أعراف الموج مثلها ، والعباب الزاخر يصطخب من ورائها ، واللجة من بعد اللجة تجيش وتضطرب تحتها ، كأنما تتحدى اليم فى طمأنينة وثبات ، أو تسابق فى الجو البواشق البزاة ! ! وكيف لا ، وقد حملت رجلاً لا كالرجال ، و بطلا بز الأبطال ، وحكيما ترباً[1] للآلهة فى المكرمات وعظيم الفعال ، وقرناً ليس كمثله قرن فى يوم كريهة أو نزال ؛ لم يغف من قبل هذه الغفوة الناعمة التى باعدت بينه و بين ما تجشم من آلام وأحزان وأشجان ...

وتلألأت فى الأفق الشرقى نجمة الفجر الصادق ، حينما كانت الفلك قبالة الأرض الموعودة ... إيثاكا ... بعد إذ أتمت رحلتها الخاطفة فى جنح الليل ... وهناك فى شاطىء المدينة ، أنشىء مرفأ أمين باسم فوركيس رب الأعماق يُدخَل إليه بين حاجزى أمواج ممتدين على مدى الجون الجميل ، بين ذراعى الميناء ، فما تستطيع ريح أن تعبث بما فيه من سفين وقد بسقت أشجار الزيتون على الشاطىء وامتدت امتداداً هائلاً إلى كهف حريز تأوى إليه طائفة من عرائس البحار يقال لها النَّياد .

(١) الترب بالكسر اللدة أو الشبيه

وثمة ، أى فى هذا الكهف المقدس ، صفت أباريق من حجر وجرار كثيرة ، يأتى النحل فيودع فيها شهده ؛ وقامت فيه أيضاً عمد من حجر يقال إن عرائس الماء تنسج عليها أثوابها العجيبة . وفيها أيضاً عيون من ماء زلال تسقى ساكنيه . ويؤدى إلى الكهف طريقان عظيمان ، أحل أحدهما للناس يضربون فيه ما يشاءون ؛ أما الآخر فلا تطؤه إلا قدم إله كريم ، ويعرف بطريق الجنوب المقدس .

ويمم البحارة بفلكهم شطر الميناء ، ثم أرسوا فيه ، وجنحت السفينة بنصف حيزومها على رماله ... وحملوا أوديسيوس الزعيم دون أن يوقظوه ، ووسدوه على فراش[1] وطأوه على الشاطىء ، ثم حملوا كل متاعه وأذخاره فجعلوها إلى جانبه خلف زيتونة ضخمة تحجبها عن أنظار المارة ، حتى لا يعبث بها عيار إذ هو مستغرق فى نومه العميق ... وركبوا الفلك بعد هذا وعادوا أدراجهم إلى شيرا .. وأحس نبتيون الجبار رب البحار وعدو أوديسيوس الأكبر بما فعل الفياشيون فثار ثائره وقال يعتب على زيوس : « أيها الإله الأعظم الأبدى ، أبداً ما أحسبنى أنال نصيبى من التقديس والتبجيل بين الآلهة منذ اليوم ، ما دام شعب فياشيا لم يأبهوا أن يحقرونى أو يبالوا بى ، فقد كنت عولت على ابتلاء أوديسيوس بأروع صنوف البلايا قبل أن تطأ قدمه أرض بلاده ، ولم يكن فى تصميمى أن أحول بينه وبين العودة إليها لأنك كنت قد وعدت بتمهيد السبيل لهذه العودة ، ولكنهم حملوه على فلكهم غارًّا فى أحلى المنام ، ثم حملوه إلى

(١) فى نسخة أنهم حملوه بفراشه

الشاطىء الإيتاكى بما معه من العطايا والأذخار ، وطُرف النحاس ، وتحف النضار ، ومطارف الديباج ، وما حمل من كنوز لم يكن يحمل شيئاً منها حتى لو عاد بنصيبه من أسلاب طروادة ! وا أسفاه ! وا أسفاه! » وقال يجيبه رب السحاب الثقال : « ماذا تقول يامزلزل الشطئان والخلجان يا ذا الملكوت والجبروت ، يا أيها العظيم نبتيون ؟ ! لا عليك يا أخى ! لا عليك ، فإنه لن تحقرك الآلهة ولن تستخف بك ! وإذا استخف بك ملأ ضعيف من بنى الموتى — عبادنا البشر — فما يضيرك ؟ أليس فى يديك ألف فرصة للبطش بهم والانتقام منهم ؟ أربع عليك يانبتيون ، وصِلْ ملاذَّك ، فانك لست عبداً لأحد » قال نبتيون : « جوف يارب السحاب إنه ليس أحب إلى من أن أبطش بهم كما أشرت ، ولكنى لا أخشى إلا تحديك لى دائماً بغير حق ، وإنى أرجو أن أعصف بسفينتهم فى دأماء اللجىّ حتى لا يحملوا ضارباً فى البر والبحر مثل أوديسيوس مرة أخرى ، وإنى مقتف آثارهم الآن ، فضارب فلكهم اللعين ، فساحره فى الحال إلى طود عظيم ينهض بروقيه أمام مدينتهم حتى ليحجبها عن كل سارب فى البحر فلا يراها أحد أبداً ! » فقال جوف يجيبه : « هلم يا أخى فاصنع ما بدالك ، وافعل فعلتك التي رسمت ؛ وليكن ذلك حينما يقتربون من مدينتهم حتى يرى أهل شيرا ما يحل بسفينتهم لتكون لهم آية ! » . وانطلق مزلزل الأعماق فى أثر الفياشيين حتى إذا كانوا قاب قوسين من الشاطىء أرسل يده تحت فلكهم فضربها ضربة هائلة أرسلتها فى الهواء وهوت بها إلى اللج ، ثم تركت

مكانها جملا عالياً أشم ، ولوى عنانه إلى أرجاء ملسكه الرحب .

وقف الفياشيون — ملوك البحار — على شاطىء البحرمسبوهين دهشين يسأل بعضهم بعضا : من ذا الذى أرسى هذا الجبل الهائل مكان سفينتهم تلقاء المدينة حتى ليحجبها عن أنظار السفن العابرة فى اليم ؟ والتفت الملك وكان واقفاً بينهم فقال : « يا للآلهة ! لقد ذكرت نبوءة قصها علىّ والدى فيما غبر من الزمان ... فلقد ذكر لي أن شعبنا المجيد مأذون له من نبتيون أن يحمل الناس من كل فج ، من ضل سبيله منهم إلى بلادهم مهما تناءت . وقد ذكر أيضاً أن سفينة من سفننا بعد إذ ترتد من رحلة لها إلى بلد رجل غريب نازح ، ستغرق فى اليم ويبسق مكانها جبل عظيم شاهق يحجب شيرا عن البحر .. وها قد تحققت النبوءة ، فهلموا نقرب الإله البحار نبتيون باثنى عشر عجلا جسداً تكون أعظم عجولنا وأعلاها قيمة ، عسى أن يرثى لنا فيكشف عنا هذه الغمة ولا يحول بين البحر وبين مدينتنا بهذا الطود الكبير الراسى » وتهزّع زعماء الفياشيين ، وبادروا إلى عجولهم فجزروها باسم نبتيون ، وتكبكبوا حول مذبحه فصلوا له ، وسبحوا بذكره ... أما أوديسيوس فقد هب من نومه وهو لا يدرى أين هو ؛ ومع أنه كان ينام ألذ النوم فوق شاطىء بلاده ، فإنه لم يعرفها لطول ما شطت به النوى ولأن مينرفا الكريمه ، سليلة جوف العظيم ، كانت قد ألقت حوله ظلالاً تحجبه عن أعين المارة مخافة أن يعرفه أحد منهم قبل أن تلقنه من حكمتها ما هو ضرورى له فى حالته هذه ... كأنما أرادت ألا يستبينه أحد من مواطنيه ولا من أصدقائه

وذويه حتى يبطش البطشة الكبرى بأمشاق الفُسَّاق الذين استباحوا عرضه واستحلوا بغير الحق زاده وخيره ، وعمروا كالشياطين داره . لذلك موهت مينرفا كل شيء في عيني أوديسيوس ، فالطرق مستقيمة مستطيلة والموانيء رحبة مترامية ، والجبال ذاهبة في السماء ، والدوح باسق يطاول الجوزاء ، وكل شيء ليس مما عهده البطل في بلاده ... ووقف يقلب عينيه في المشاهد المحدقة به ، ثم تنهد من أعماقه ، وبسط كفيه إلى السماء ، وضرب بهما في بَرَم على فخذيه ، وأنشأ يقول : « ويلاه عليّ وألف ويل ! أي شعب من الشعوب يقيم بهذه الأرض يا ترى ؟ أأجلاف ظَلَمَة هم ، أم أطهار أخيار يخبتون الآلهة ؟ ليت شعري أين أخبيء هذه الكنوز والأحراز ؟ وَيْ ! بل أيان أذهب أنا ؟ لعمري لقد كنت أوثر ألا أنال شيئاً منها من هؤلاء الفياشيين على أن أكون قد حللت بأرض ذي نخوة وذي نجدة من ملوك الأرض غير ألكينوس هذا ، فكان يرسلني آمناً سالماً إلى بلادي ! ماذا أصنع يا ربي ؟ أأترك هذه الثروة الطائلة هنا ؟ أأدعها فريسة حلالاً لغيري من الناس ، وأهيم في هذه البطحاء على وجهي ؟ وا أسفاه ! أهكذا يغرر بي ميلقونني في شاطيء غير شاطيء بلادي ، وقد وعدوا أن يهبطوا بي صرفاً إيثاكا الأمين ؟ اللهم يا جوف العظيم ، يا من إليه يجأر أبناء السبيل والمهاجرون والمساكين ! إنتقم لي يا رب الأرباب من هؤلاء الخونة المبطلين ! ولكن ... يجدر بي قبل كل شيء أن أحصي أذخاري لأرى هل سلبني منها هؤلاء اللصوص شيئاً ؟ » ثم راح يحصر كنوزه ، فما وجد شيئاً منها ناقصاً أو غير موجود ، وزاد ذلك في أشجانه ، فأخذ يندب حظه ،

ويبكي على ما انقى من زمانه ، وينشج نشيجاً مؤلماً لهـذه الهجرة الظالمة عن أوطانه، وجعل يروح و يغدو على سيف البحر المضطرب، وحيداً مُعَنًّى، ويرسل دموعه وزفراته حتى بدت له آخر الأمر مينرفا فى صورة راع صغير غض الأهاب عجيب الثياب جميل المحيّا ، كأبناء الملوك ، ملتفعاً حول عنقه ومن فوق صدره بشفيف(١) صفيق طُوى حولها طيتين وفى قدميه نعلان متواضعتان ، وفى قبضته حربة ناعمة لامعة . وكانت مفاجأة سارة فوجىء بها أوديسيوس فخطا خطوات عاجلة إلى الشاب وراح يسائله : « مرحماً أيها الغُرانق الجميل ! لقد كنت أول إنسى ألقاها هنا ، فبحق هذا عليك أن تحمينى وتحمى أذخارى هـذه ، وألا تلحق بأيتما أذى ! إنى أتوسل إليك كما لو كنت أتوسل إلى أحد الآلهة أن تصدقنى فيما أسألك عنه : أية بلاد هذه ؟ وأى قوم يعيشون فيها ؟ أهى جزيرة آهلة ، أم حَدُور من بلاد مترامية ؟ أخبرنى بأربابك أيها الفتى » .

وقالت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين تجيبه : « أيها الغريب اللاجىء كم أنت ساذج ! كيف تسائل عن هذه البلاد كأنك لست من أهلها ؟ إنها بلاد ذات ذكر فى المشارق والمغارب ، ومنها وإليها تصدر الركبان إلى كل فج ، ثم هى ليست يهماء مجهولة ؛ بل هى جنة مأهولة ، زاخرة الخيرات موفورة البركات ، ففيها أنضر سهول القمح ، وأبهج عرائش الكروم ، وأخصب المراعى الخضر الحافلة بقطعان النَّعم والشاء ؛ تسقى من ماء معين ، وأنهار وعيون ... هـذه يا رجل إيثاكا ... إيثاكا

---

(١) الثوب الرقيق .

المباركة ، التى استطالت شهرتها ، واستطار ذكرها حتى ملأ الخافقين ، وجاوز طروادة ذات المجد ، التى لا تبعد شطئانها من أخايا » .

وشاع البشر فى نفس أوديسيوس لما سمع الراعى الجميل يؤكد فى لهجة قاطعة أنّ هذه البلاد هى إيثاكا الموعودة ، وهز السرور أعطافه لما رأى من زهو الشاب وافتخاره بها . بيد أنه مع ذلك راح يتجاهل ، ويُبدى عدم معرفته لهـذه البلاد ، ويحاول أن يخدع الفتى عن نفسه ، وما يخدع إلا نَفْسَه هو .. قال : « أجل .. لقد سمعت عن إيثاكا فى أقاصى البحار ... والناس يعرفونها حتى فى كريت التى وصلت منها اليوم معتادى هـذا ، تاركاً فيها أبنائى وذوى رحمى ، فاراً بنفسى من الفعلة الهائلة التى فعلت .. يا ويح لى ! ! لقد قتلت العدّاء المعروف أرسيلاو بن أيدومين العظيم الذى لم يكن يباريه فى سرعة عدوه أحد . لقد حدثته نفسه أن يسلبنى ما غنمت من كنوز طروادة وأسلابها وما حصلت عليها إلا بعد قتال شديد ولظى حرب ، وركوب أهوال فى ذلك اليم ... وذلك لأنى أبيت أن أقاتل تحت لوائه ، أو لواء سيده ومولاه ، بل قدت فيلقاً من الجند فظفرت وانتصرت ، فكبرت عليه هذا ، وحفظها لى ، وأضمر فى نفسه الغدر ، فلما عدنا أدراجنا إلى أرض الوطن ، حاول أن يسرقنى كنوزى ، فأقصدته[1] برمحى فأرديته ، وكان معه زميل له شرير فذبحته ، واستعنت عليهما بدجى الليـل ودُجُنّته ؛ ثم هربت تحت أستار الظلام بأحرازى إلى الشاطىء ، حيث حملتنى سفينة فياشية رجوت ملاحيها أن يبحروا بى إلى شاطىء بيليا ، أو إلى مرفأ إيليس ... لـكنهم وا أسفاه

اضطروا إلى الإرساء هنا لأن ريحاً عاصفاً قسرتهم على ذلك ، فوصلنا هنا برغمنا فى جنح الليل البهيم ، ولقينا عناء عظيما فى النزول بالمرفأ الأمين ؛ ومع شدة حاجتهم إلى الطعام ، فإنهم لم يستأنوا ، بل تركونى وحدى ، وأبحروا على عجل ، بعد إذ نمت على الشاطىء من الإعياء ، و بعد إذ حملوا إلى هنا متاعى ... وهم الآن فى طريقهم إلى سيدونيا ... وهأنذا وحدى هنا ، لا أعرف أيان أذهب ، ولا أين أمضي ! ! » .

وسكت أوديسيوس ... ولكن الراعى الشاب الجميل أخذ يتحول فى فتون وسحر إلى صورة حلابة أخرى .. لقد أصبح امرأة حسناء هيفاء ... وها هى ذى ... تلك المرأة الحسناء الهيفاء ... تبدو فى صورة مينرفا — ربة الحكمة — التى اقتربت من البطل فى تبسم وظرف ، وأخذت تعبث بلحيته الكثة الشعثاء فى دلال وسخرية ، وراحت بدورها تجيبه : « مرحى أوديسيوس ... مرحى مرحى ! ! ما أحسب أن أحداً — أحداً من الآلهة — يفوقك فى مكرك وبراعة حيلتك يا ابن ليرتيس ! ! أما آن تقلع عن مراوغاتك التى حذقتها مذ كنت يافعاً وعن توشية الأحاديث الملفقة التى حذقتها واشتهرت بها فى العالمين ؟ ! ولكن ... تعال ... ليدع كلانا ما يحاول أن يزوق به كلامه ، فكلانا بارع فى ذلك صناع ... أنت بمصاحتك . ودقة فهمك وطريف حيلتك بين الناس ؛ وأنا بحكمتى وقوة تدبيرى بين الآلهة ... وما أحسبك تجهل مينرفا ابنة جوف الأكبر ، التى كانت رائدك ورفيقك فى كل ما حاق بك من مكروه ... فقد كنت أقذف الشجاعة فى قلبك فى مواقف شدتك .

كما كنت أثير الحمية فى أفئدة الفياشيين الذين وصلوا بك إلى هنا ، وهأنذى طويت إليك فدافد الرحب لأخلو ساعة بك ، ولأن لى حديث نصح معك ، بودى أن أمحضك إياه ... وقبل هذا ينبغي أن تخبىء كنوزك التى أسبغت عليك بمشورتى ... ثم إنى محدثتك عما يتحيفك من أرزاء ، وما يدبر لك من كوارث تحت سقف بيتك ، ونصيحتى أن تحتمل ما يصيبك أول الأمر بقلب جليد وصبر ثابت وطيد ، واحذر أن يعلم أحد ، رجلا كان أو امرأة — بوصولك إلى إيثاكا وحيداً شريداً لا حول لك ، كما وصلت ، بل اصمت كلما حاول أحد أن يتعرفك ، واحتمل الأذى كلما امتدت به يد إليك » . وقال أوديسيوس ، وقد أسقط فى يده : « لله درك يا ربة ! ما أبرعك فى تغشية العيون وتضليل الأبصار ، والتشكل فى أى صورة شئت ! بيد أنك برغم ذلك حليمة رحيمة كعهدى بك دائماً ؛ ألا كم نصرت أبطال أخايا المداويد ، وأظفرتهم بأعدائهم في ميدان طروادة ... ولكنى لن أنسى منذ أقلع أسطولنا من مياه تلك المدينة ، بعد سقوطها فى أيدينا أنك لم تظهرى لنا قط ، ولم تبادرى مرة إلى إنقاذى من إحدى الرزايا التى كانت تحيق بى والتى كنت أحتملها بقلب جديد ، وصبر شديد ، حتى رثت الآلهة لحالى فجعلت لى منها مخرجاً وأنقذتنى إلى بر فياشيا ، حيث أثرت فى صدرى النخوة ، وأوليتنى الشجاعة ؛ وكنت دائماً دليلى ورائدى .. ولكن ... أصدقينى بأبيك يا ابنة جوف ، هل وصلت حقاً إلى إيثاكا ؟ أم أنا فى صقع سحيق عنها وإنما أنت تسخرين منى وتعبثين بى ؟ أصدقينى بأبيك يا ربة ، هل هذه

بلادى العزيزة إيثاكا ؟ هل هى حقاً ؟ » وقالت ذات العينين الزبرجديتين تجيبه : « دائماً حَذِرٌ يا أوديسوس ، وإلى الأبد يملأ الوسواس صدرك ، رغم ما أوتيت من حكمة وتبيان ورجاحة فكر وسلامة جنان ! بيد أنك معذور يا صاح ، إذ أى رجل يتشوف لرؤية زوجه وأبنائه ولا يتحرق شوقاً للقيام ، بعد هذا النوى الطويل ، والبعد الممض ، والأهوال الجسام الجمة ؟ غير أنه أفضل لك ألا تعلم شيئاً ولا تسأل عن شىء حتى تلمس بنفسك مقدار ما تكنه لك من الحب ، تلك الزوجة الوفية المخلصة التى ذهب شبابها عليك حسرات ، والتى ذرفت دموعها من أجلك آناء الليل وأطراف النهار طوال تلك السنين الباكية الحزينة الموحشة . إنى لم أتركك يا أوديسيوس كما تظن ، بل كنت أعلم أنك راجع دون مار يب إلى بلادك ، وإن فقدت كل رجالك ورفاق سفرك الطويل الشاق .. غير أنى أشفقت أن أثير حنق نبتيون ، عمى وشقيق أبى ، الذى يحز الأسى فى قلبه من فعلتك التى فعلت بعين ابنه السيكلوب ... ولكن هلم ... إنى سأقطع شكك باليقين ، وسأدلك على علائم تؤكد لك أنك فى إيثاكا ... فهذه هى ميناء فورسير حكيم البحار ، وها هى الزيتونة الكبرى عند رأس المرفأ وعلى مقربة منها ذلك الكهف المقدس الإلهى الذى تأوى إليه عرائس البحر المعروفة باسم النياد ، وقد طالما كنت تجزر القرابين والأضاحى باسمهن عند وصيده ، وهاك جبل نيريتوس وأولئك غاباته الشجراء ... »
ثم رفعت ربة الحكمة الغشاوة عن عينيه فعرف دياره ولم ينكر شيئاً منها ، وهكذا شاءت العناية أن يشهد البطل المكدود بلاده الحبيبة مرة أخرى ،

وهكذا خر أديسيوس جاثياً يقبل ثرى الأرض المقدسة ، ثم رفع يديه يصلي لعرائس الماء كسابق دأبه : « ياعرائس البحر ، يابنات جوف الأعظم ، لقد قنطت قبل هذا من أن أراكن ، فهأنذا أعود إليكن بألف نذر وألف تحية وسلام ... ولكنَّ القرابين الغوالي إذا مدت أختكن — مينرڤا الحكيمة — في أيامي وباركت رجولة ولدي ومعقد أحلامي » .

وقالت ابنة جوف تؤيده : « تشجع يا أوديسيوس لا طائل لهذه الوساوس التي تعذبك ! هلم ! البدار ، البدار ! لنخبئ هذه الكنوز في أغوار ذلك الكهف السحيق لتكون في مأمن من عبث عابث ، ثم هلم أدبر الأمر معك » وانطلقت الربة في ظلمات الكهف تتكشفه بينما حمل أوديسيوس أذخاره فوضعها حيث أشارت مينرڤا ، ثم حملت بيديها الجبارتين صخراً عظيما فأحكمت به غلق المدخل الرهيب . وجلسا عند أصل زيتونة باسقة ، وشرعا يرسمان الخطط ويحكمان التدبير لهلاك العشاق الفسّاق المعاميد ، فقالت مينرڤا : « أوديسيوس ، يا ابن ليرتيس المجيد ، هلم وأعمل فكرك الآن في الوسيلة التي تبيد بها أعداءك الذين لا يستحيون ، أولئك العشاق الذين استبدوا بأسرتك طوال أعوام ثلاثة ، واستباحوا حماك ، وتكالبوا حول زوجتك كل هذه السنين يغرونها بالوعود ، ويزخرفون لها الأماني ، ويعسلون لها كلمة الفسق ، وهي ما تزداد إليك إلا تحرقاً ، وما ترقأ دموعها من أجلك ، فتحتال لهم ، وتعد هذا وتوشي المنى لذاك ، معللة نفسها بعودتك لتسحقهم جميعاً ! » واستعبر أوديسيوس قليلا وقال : « أوه ! كأن القضاء الذي أسكت نأمة أجاممنون يكاد

يحيق بى أنا الآخر فى صميم دارى ! ولكن .. وَىْ ! أضرع إليك أيتها الربة أن تشيرى على وتنصحى لى وتلقنينى كيف أثأر من هؤلاء الطغاة ؛ وأتوسل إليك أن تقذفى فى قلبى الشجاعة كما قذفتها فيه تحت أسوار طروادة ، فإنى بعونك أدوخ المئين من أعدائى ، وما دامت يدك فوق يدى ، فإنى مستأصل شأفتهم جميعاً » قالت مينرفا : « اطمئن يا أودسيوس ، فسأكون معك وإن لم يمتد إلى طرفك حتى نغتالهم أجمعين ، وحتى تطيح رؤوس أكثرهم على أرض قصرك ... ولكن تعال ، ألق بالك إلى ، إنى سأغير من صورتك ، وأحور من شكالك حتى لا يعرفك منهم أحد ؛ فهاتان الوفرتان[1] تستطيلان حتى تغطيا كتفيك وحتى تتصلا باللمة[2] ، وسأدثرك بدثار مرقع رث يثير التقزز فى نفوسهم فلا يمدون أبصارهم إليك ، وسأحدث أوراماً حول عينيك تزيد فى تنكرك ، حتى ليحسب من يرى إليك من أعدائك أنك وأهلك بعض المساكين الذين لا يفتأون يضربون فى الأرض ... على أنه ينبغى أن تلقى راعيك الأمين (إيبومايوس) الرجل الوفى الذى لا يزال يخلص لك ، ويفى لابنك ، ويؤثر بأصفى وده زوجك ... فاذهب إذن إلى جُبيل كوراكس المطل على نبع أريثوزا ، تجد قطعانك ترعى العشب الحلو ثمة ، وتسقى من السلسبيل المجاور ؛ وتجد راعيك الشيخ يتشوف إلى رؤيتك ، فحيه واجلس إليه ، واسأله عن كل ما ترى أن تعرف من أنباء بيتك وأهلك وعقارك ، وتلبث معه حتى أعود إليك بابنك من أسبرطة ... إبنك تلماك الذى ذهب يذرع الرحب

(١ — ٢) الوفرة ما بلغ شحمة الأذن من الشعر واللمة ما ألم بالمنكب منه .

سائلا عنك ، متحسساً أخبارك حيث حل ضيفاً كريماً على الملك منلوس ، الذى أرسله إلى ليسديمون ليرى هل لا يزال أبوه حياً يرزق ؟ » قال أوديسوس : « وا أسماه عليك يا ولدى !! ولم أيتها الربة المحيطة بكل شيء لم تخبريه أنى حى أرزق وأنى لابد عائد إليه ، فكنت كفيته بلاء الرحلة فى تيه البحر ، بينما هؤلاء الكلاب يستنزفون ثروته وماله ؟ » فقالت تجيبه : « لا تأس على ولدك هكذا يا أوديسيوس ؛ لقد أرسلته أنا ثمة ينشد الشرف وينشر ذكره بين الناس ... إنه لا يلقى عنتاً هناك ، بل هو ينعم بالرعاية فى قصر أتريدس ! واعلم أن فريقاً من عشاق بنلوب يتربصون به ، ويترصدونه فى طريقه ابتغاء أن يقتلوه قبل أن يبلغ أرض الوطن .. ولكن لا .. خاب فألهم ... إنهم لن يمسوه بأذى حتى تكون الأرض قد رويت من دمائهم ، وغيبوا جميعاً فى بطونها ؛ أولئك السّفلة الذين يستحلون زادك وعتادك الآن » . ثم مَسَّته بعصاها السحرية فبدت عليه بدوات الكبر ؛ فهذا جلده قد تغضن ، وهاتان وفرتاه ولمته قد استطالت حتى بلغ شعرها قدميه ، وها هى ذى تضفى عليه الدثار المرقع الرث ، وها هى ذى تحدث الأورام حول عينيه وتزوده بمزق قذرة علق بها التراب والسخام[١] وها هى تضفى عليه بعد ذلك جلد ظبى قديم غليظ وتدفع إليه بمكازة طويلة يتوكأ عليها ، وتمده بمزود[٢] تدلت منه أوشية قبيحة ، وأحيط بسيور من جلد عتيق ...

وافترقا ... فهو إلى حيث يلقى راعيه ... وهى إلى حيث تلقى تليماك فى مملكة ليسديمون .

---

(١) الفحم أو ما يعرف بالعامية بالهباب .

(٢) خرج .

وسلك سبيله فى طريق وعر محفوف بالأشجار الباسقة إلى مثوى صديقه الراعى الشيخ الأمين ، فوجده جالساً وحده فى مدخل الحظيرة الشاسعة القائمة وسط المرج المعشوشب النصير . ولقد سورها يومايوس ، إذ سيده غائب فى أقصى الأرض ، بسور عظيم ضخم من حجارة قوية نحتها من محجر قريب ، وجعل على السور فروعاً من قتاد وشوك وجذوعاً من سنديان ، حتى صارت أمنع من عقاب الجو . . كل ذلك دون أن يساعده أحد ... ثم قسمها اثنى عشر زَرْباً[1] جعل فى كل منها خمسين خنزيرة كنازاً ... أما ذُكران الخنازير فقد تركها سائبة فى الخارج ليرسل منها إلى العشاق المعاميد ما يأكلون منه وما يريغون .. وقد بقى منها بعد تلك الأعوام الطوال ستون وثلثمائه . وربضت لدى الباب كلاب أربعة كسباع البرية ، تلحظ الحظيرة بأعين كالجمر ؛ وجلس الراعى يعمل لنفسه نعالا من جلد ثور مدبوغ ، بينما انطلق خدمه ومعاونوه الأربعة يعملون ويدأبون هنا وهناك . وكان رابعهم على وشك أن يترك الحظائر إلى المدينة ، حاملا لحم خنزير حنيذ يذهب به برغمه إلى العشاق الفساق . ولمحت الكلاب أودسيوس فأهرعت إليه ، وظلت تعوى وتنبح ، وترغى وتزبد ، وأوشكت أن تفتك به ، لولا أن هب يومايوس فكسر شرتها

(١) الزرب : الزريبة للغنم .

بما رماها به من الحجارة ، ولولا أن ترك أوديسيوس عكاره يسـقط من يده لأن الـكلاب لا يغيظها إلا أن يُمْسِك لها أحد عكازاً ... قال الراعى : «أيها اللاجىء العجوز سلمت ! خطوة واحدة ، وكانت هذه الـكلاب قد مزقتك إرباً ، وكانت قد لحقت بى سبة لاتبيد! ألا كم ترسل علىّ الآلهة من كروب ! وكم ترميني به من آلام ! أنا ، هـذا العجوز الهالك ، الذى أمضني الحزن ، وشفني الأسى من أجل سيدى ومولاى ! هأنذا أُسمّنُ قطعانه وأرعاها لينعم بها غيره ، بينما هو نازح غريب يجوب الآفاق ويشتهى كسرة يتبلغ بها ، إن كان لا يزال حياً يرزق ! أوه ! تعال أيها الصديق ، هلم فاتبعنى إلى دارى أطعمك ما تيسر ، وأسقك كفايتك من الخمر ، وتخبرنى بعدها من أنت ، ومن أين أقبلت وماذا وراءك ! » وانطلقا ، وقدم إليه الراعي الـكريم حَشِيَّتَه التى كان يجلس عليها ، والتى اتخذها من جلد عنز حشاه بالقش؛ فشكره أوديسيوس ، ودعا له بما يحب و بكل ما تصبو إليه نفسه . فقال الراعى يجيبه : « أيها الصديق ليس أمقت إلى من أن أذود لاجئاً إلى دارى و إن يكن أرث منك حالا ، لأن أبناء السبيل جميعا هم ضيوف زيوس رب الأرباب وأنا مع ذاك أعتذر إليك إذا لحظت أن زادى قليل وأن حالى رقيقة ، فلقد مضى زمن العز والعيش الواسع المخفرج وأصبحنا نعاني القُلّ والفاقة والعيش النكد تحت إمرة هؤلاء الرؤساء الأصاغر . آه يا مولاى يا زين الحياة ومؤدب الناس أين أنت وأين أيامك وخيرك الوفر؟ ليتها دامت ، وليتك ظللت فعشنا فى كنفك ... وليت هيلين وكل من فى بيت هيلين فداؤك ... هيلين

التي قتلت سادات هيلاس[١] مِمَّن أبحروا مع أجاممنون لينيلوه النصر في ميدان طروادة ! » . ثم لَمَّ دثاره وذهب إلى الزرب الأول فجاء بخنزيرتين سمينتين فذبحهما وسلخ جلديهما ، وجعلهما إرْباً إرْباً ؛ ثم أشعل ناراً عظيمة فسوَّى على جمرها السفافيد المثقلة باللحم ، وجاء بالشواء فوضعه أمام أوديسيوس ، ثم نثر عليه من الدقيق ، وأحضر زق الخمر ، وجلس قبالته وقال : « هلم يا ضيفي العزيز فكل وارْوَ ... لا تؤاخذني إذا رأيت الشواء لا سميناً ولا حنيذاً ، فكل سمين وحنيذ يذبح أولا فأولا ويرسل إلى العشاق السفلة الذين لا يرعون في الآلهة إلاًّ ولا ذمة ، ولا يخافون سماء ولا بَشراً ... يا لله من هؤلاء الفجرة .. ألا يلمون شعثهم ويغيرون بخيلهم ورجلهم على بلد قاص فيثوبوا بأسلاب الغزو وسخط الآلهة ؟ أم تراهم أوحي إليهم بموت مولاهم فهم هُنا قائمون ما يريمون ، ولزاده آكلون ومن خمره شاربون ، حتى فرغت الجرار ، وخَوَت الدار ، وصَوَّل الزرع وجف الضرع !! أبداً ما ملك أحد مثل ما ملك مولاي ! لقد كانت ثروته تعدل ما يملك عشرة أو عشرون أميراً ؛ ولا أزال أذكر مما ملكت يداه اثني عشر قطيعاً من الأنعام كانت ترعى العشب في مروج الشاطىء[٢] المقابل ، وكثيراً من قطعان الأغنام وأرعال[٣] الخنازير وأسراب الماعز ، عليها أُجراء وخدم ورعاة لا يحصون ، ورجال مخلصون يزرعون في حقوله الشاسعة ويحصدون ، ورجال يحلبون من قطعانه كل كناز للذبح ...

---

(١) اليونان وتسمى أخايا أيضا .
(٢) لعله شاطىء آسيا .
(٣) جمع رعيل ويجمع على رعال أو أراعيل وهو في الأصل للخيل والبقر .

أما أنا .. فقد عهد إليّ بهذه الأرعال التي ترى ، أطعمها وأعني بها ، و ... وا أسفاه ؛ وأرسل إلى العشاق كل يوم بخيارها » .

وصمت الراعي بينما كان أودسيوس يصغي ويلتهم طعامه ويفكر ألف فكرة ، ويدبر ألف تدبير لسحق هؤلاء العشاق المفاليك . حتى إذا انتهى ، قدم إليه يومايوس كأسه دهاقا ، فتقبلها وشرب ما فيها وقال : « ترى ما ذا كان اسم سيدك أيها الصديق ؟ لا بد أنه كان مشهوراً ذا ذكر ، لما وصفت من واسع ثرائه وسمو جاهه وبسطة ملكه . لقد قلت إنه ذهب إلى طروادة مع أجاممنون ، فهل تتفضل فتذكر لي اسمه عسى أن أقص عليك من أنبائه ؟ لقد ذهبت أنا الآخر ثمة ، وسافرت في بلاد شتى ، ومحال ألا أعرف العظماء الذين جاهدوا مع أجاممنون . »

فأجابه الراعي : « وا أسفاه أيها الأخ العجوز ! أبداً لا تنطلي الأنباء الملفقة عن مولاي على زوجه أو ولده ؛ فكم من جوّاب آفاق مثلك ، محتاج إلى لقمات أو سروال ، قد لقي الزوجة المسكينة فلفق لها قصصاً مكذوباً عن رجلها ثم دلت الأيام على كذبه وزخرفه ، والزوجة في كل ما تسمع تذرف الدموع وتصعد الآهات كأحسن ما تصنع زوجة وفية من أجل روجها الذي قضى في بلد بعيد . وأكبر ظني أنك تطمع في كساء تخلعه عليك هذه الزوجة المفئودة الرءوم ، فأربع عليك ، فالرجل قد قضى ، وليس بعيداً أن تكون كلاب البرية وسباعها قد اغتذت به أو أنه قد غرق فأكله السمك ، ولفظت عظامه على سيف البحر اتذروها الرياح ، تاركاً وراءه قلوباً تأسى عليه ، أحزنها عليه قلبي .

تالله ما وددت أن أرى أبوى اللذين غادرتهما منـذ أحقاب كما أتشوف اليوم إلى رؤية هذا الرجل .. آه يا أودسيوس ! أين أنت .. إنك مهما شطت النوى وشحطت الدار فلن أبرح أذكرك وأسبح باسمك وأوقرك بما أحسنت إلى وعنيت بشأنى ، يا من فراقك عندى آلم لى من فراق أعز إخوتى وأشقائى ! »

وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق لم تيأس من عودة مولاك هكذا ؟ ولم يخامرك الشك فى أن رجوعه محتوم لا ريب فيه ؟ إذن فأنا أقسم لك قسما لا أحنث فيه أنه عائد لا محالة ، ومعاذ الآلهة أن أقسم وأؤكد الأيمان لأنال القميص الذى ذكرت أو الدثار الذى أنا فى شـدة الحاجة إليـه ، بل ليبق القميص والدثار حتى يتحقق قسمى وتبر يمينى فأتسلمهما منك ، فإنى أمقت الـكاذب الحانث فى يمينه كما أمقت أبواب الجحيم ، والله على ما أقول وكيل ... إطمئن إذن يا صاح ، وثق أن أوديسيوس لا بد عائد هذه السنة إلى إيثاكا بل ربما عاد هذا الشهر ، ولن يمضى شهر آخر حتى يكون قد ثأر لعرضه من أعدائه وبطش بهم جميعاً ... أولئك الفجرة الأشرار الذين جسروا على استباحة حماه ، وإهانة زوجه ، وعدم المبالاة بولده ! » وسخر الراعى وقال : « أهكذا تقسم وتؤكد القسم يا صاح ؟ أبداً لن تنال الرهان أبداً ، فقـــد أودى أوديسيوس ولن يعود بعد ... هلم هلم، تحَسَّ كأسك الروية ودع هذا الحديث فإنه يحزننى ويثير شجونى ... خل قسمك ، وليقدم أوديسيوس فى خيالك أو فى الحقيقة ، فأنا وزوجه وأبوه وولده ... كلنا نشتهى ذلك

ونتمناه على الآلهة .. ياويح لك يا تليماك الحبيب ! لقد كنت أرقص طرباً كلما رأيتك تنبت كما نبت أبوك ، وتشب على الفضائل التى شب عليها ! أين أنت ؟ لقد ذهبت إلى ملك بيلوس تتحسس أخبار أبيك ، وهاهم العشاق يترصدونك ويتربصون بك ليغتالوك فى الطريق . ألا طاشت أحلامهم ، وحماك جوف الأعظم من مكرهم ، وحفظك لبيت أرسسياس يا أعز الناس ... ؟ ولكن تعال أيها الضيف الكريم ... قل لى بربك واصدقنى فى كل ما تقول : من أنت ، ومن أين أقبلت ، وفيم قدمت ؟ وما بلدك ؟ وأين يقيم أبواك ؟ وأى سفينة حملتك إلى شاطئنا ؟ فلعمرى إنك لن تدعى أنك وصلت إلينا سائراً على قدميك !! »

فقال أوديسيوس يجيبه : « سأقص عليك من أنبائى التى لا يأتيها الباطل مالو لبثت عندك عاماً بين هذه الخمر وذاك الطعام ، بينما يكد الآخرون من أجلنا ويجهدون ، ما فرغت من قصها عليك ... وهى أنباء باكية وآلام متصلة ، شاءت السماء أن أقاسيها ، وأن أجرع غصصها . إذن فأنا ابن كاستور هيلاسيد أحد سراة كريت ، من سرّيته المحبوبة التى كان يعزها كزوجه . ولم يكن أبى يفرق بينى و بين إخوتى من زوجه ، بل كان يولينا حبه على السواء ، وكان الناس يبجلونه كأحد آلهتهم لثرائه الواسع ، وحسبه الضخم ، ولأعماله الناجحة ؛ فلما مات اقتسم أبناؤه كل ما ترك ، وكان نصيبى منزلاً متواضعاً ، ومالا كثيراً ، وزوجة غنية ذات مال وجمال . ولم يحاول إخوتى أن يَدَّعُونى أو يأكلوا تراثى ، لما كنت عليه من كريم الخصال وحميد الفعال ، وجمال المنظر ووسامة المظهر — لا كما

ترانى الآن — وا أسفا على ما فات من نضارة الشباب ! تالله لن تستطيع ، ولن يستطيع أحد ، أن يحدس كم شقيت وكم بُليت ، وكم من الآلام والضنك وأوضار الحياة تحملت ؟ فلقد كنت لا أرهب الردى ، وكنت دائماً أخوض غبار المعامع فى حمى مارس ومينرفا فأشك قلوب الأعادى وأبهر القادة والزعماء بجلائل الأعمال ... ولم يكن من دأبى أن أشغل نفسى بأكلاف البيوت ومشاغل الحياة المعيشيه الدنيا ، التى هى بالأحداث والغلمان أولى ، بل كنت مشغوفاً أبداً بركوب البحار وخوض غمار الوغى ، وملاعبة الأسنة ، وما إلى ذلك مما جعلته السماء غراماً وفرحاً لى ، وضراماً وفزعاً فى فؤاد سواى — والناس كما تعلم فيما يعشقون مذاهب .. ولست أرسل القول على عواهنه ، فلقد قدت إلى طروادة تسعة جيوش ظَفَرَتْ بمبالقها قبل هذه الحرب الضروس الأخيرة بينها وبين هيلاس .. ولقد حزت الثراء الجم والغنى الوافر من جراء هذه الحروب ، فأصبحت بين شعب كريت المفضل المبجل ... ثم كانت الحرب الأخيرة التى قتل بسببها مئات من السادة الصناديد من رجال الإغريق ، فاختارونى أنا وصاحبى إيدومين قائدين للأساطيل ... ثم جار بناحول طروادة تسع سنين حافلات مُثقلات ، وفى العاشرة سقطت المدينة فى أيدينا ، وعدنا أدراجنا نطوى اليم لا ندرى ماذا خبأت لنا المقادير ؛ ومن ثمة بدأ جوف يرسل صَيِّباً من الرزايا فوق رأسى ، حتى إذا وصلت إلى كريت سالماً لم ألبث طويلا هناك ، ولم أمتع النفس بالأهل والوطن إلا شهراً واحداً ؛ ثم أقلعت فى نخبة من رفاقى بأسطولنا إلى مصر بعد أن أولمت لهم وقربت القرابين .

وقد أرسلت العناية لنا ريحاً جرت بسفننا رخاء ، كأنما أبحرنا مع تيار نهر لا جبار ولا عنيد ، ولم يحدث لأى من جوارينا سوء حتى بلغنا شطئان مصر فى اليوم الخامس ، واتخذت سفننا سبيلها فى النيل عجباً ... ثم حدث ما لم أود أن يحدث ، إذ سطا رجالى بعد خُلْفٍ فى الرأى وشجار بينهم عنيف على حقول الفلاحين فاستاقوا أنعامهم وسبوا نساءهم ، واسترقوا أطفالهم ثم ذبحوا رجالهم .. بيد أنهم لم يسلموا مع ذلك من شر المصريين ! إذ استيقظت المدينة على صراخ الجرحى وأنين القتلى ونصويت النساء فأقبل أهلها كالجراد ، بين فارس وراجل ، وكل يحمل السيف البتار أو الرمح السمهرى ، فأعملوا فينا ضرباً وتقتيلا واستنقذوا السبي كله ، وشفوا حرد صدورهم منا .. أما أنا ... فيا ليتنى قتلت فيمن قتل واسترحت من هذه الدنيا التى جرعتنى ضعف هذه الآلام بعد ! لقد كنت أشهـــد رجالى يهوون إلى الأرض ، وأعلم أن جوف قد أنزل هذا البلاء بهم جزاء لهم وفاقاً ؛ فلما رأيت أنى لا محالة شارب بالكأس التى شرب بها رفاقى ، ألقيت سيفى ، وجريت أعزل من السلاح إلى حيث الملك الكريم ، فركعت بين يديه ، وقبلت الأرض إجلالا له ، وبكيت ما شاء جوف أن أبكى ، ثم سألته العفو والمغفرة ، فرق لى ، ورثى لحالى ، وأمر بى فأحذنى فى جملة خدمه وخوله إلى المدينة . وقد رام رجاله أن يقصدونى برماحهم لولا أن صدهم مخافة من الله الذى أمّن اللائذين به ، المستذرين بظله . ثم لبثت فى أهل مصر سبع سنين هانئاً سعيداً محبوباً من الجميع . وحدث فى السنة الثامنة أن قدم إلى المدينـــة رجل فينيقى جواب آفاق ، ما زال بى حتى

أقنعني بالفرار معه إلى بلاده ، وأغراني بأن له ضياعاً وأملاكاً ومالا ، ففعلت ، ولبثت معه حولا بأكمله ، ثم حدث أن كلبي بعد هذا الحول في رحله لا أعرف إلى أين ، كانت أكبر الظن للسطو والقرصنة ، أو على الأقل لأباع في بلد قصي بيع الرقيق ، فينتفع شمي ... ورحلنا .. ولكن عاصفة جبارة هبت علينا وتلاعبت بنا ؛ وعبست السماء ، وكلح الدأماء(١) وتمرد من تحتنا الماء ، ثم أرسل جوف صواعقه على السفينة فقصمها ... وغرق الملاحون جميعاً ! ... وأكرمني الله العلي اللطيف فبعث إلى بقلع السفينة الأكبر فتعلقت به ، ولبثت الصبا تقذف بي نحو الجنوب أياماً تسعة ، وفي ظلام الليلة العاشرة ، دفعتني على شطئان تسبروتيا حيث أكرم مثواي ملكها العظيم البطل فيدون ، وعنى بشأني . وذلك أن ولده رآني طريحاً على الشاطىء أكاد أموت من البرد والجوع ، فحملني إلى قصر الملك حيث ردت إلى الحياة وأعطيت دثاراً وصداراً ، وخصصت لي غرفة فسيحة ذات أرائك ... وهناك سمعت عن مولاك النازح ، البطل أوديسيوس ، ورأيته بعيني رأسي وقد ذكر لي عن فضل الملك وإكرامه مثواه ، ما برهنت عليه أعماله ؛ ثم أراني أوديسيوس كنوزه من الذهب والنحاس وطرف الحديد التي جمعها في أسفاره ، والتي تكفي للنفقة على أسرته عشرة أحقاب ... وكان الملك يحفظها له في غرف كثيرة في قصره إعزازاً له وتكريما ؛ وذكر لي أنه ذهب إلى ددونا النائمة بين أحضان الحور والسنديان ليستوحي كاهن جوف الأكبر عما إذا

---

(١) عبس البحر .

كان خيراً له أن يذهب إلى بلاده متنكراً ، أو فى صورته الصريحة الحقيقية بعد هذا الغياب الطويل عن أهله . وقد أكد لى الملك أن المركب الذى سيحمل أوديسيوس إلى بلاده — إيثاكا — معد فى المرفأ ولولا أنى أبحرت قبله لشهدته بعينى يركب الفلك ، ذلك أن فلكا آخر لملاحين من جزيرة دلشيوم كان راسياً فى الميناء ، فأمرهم الملك أن يحملونى معهم ويذهبوا بى بأقصى ما يمكنهم من السرعة إلى الملك أكاستوس . ولكنهم ـ وا أسماه تألبوا على فى عرض البحر ، وتآمروا بى ونزعوا صدارى ، ونضدوا دثارى ثم انتهزوا فرصة المد فأرسلوا بى إلى شاطىء إيثاكا ، بعد أن ألبسونى تلك البزة القبيحة التى ترى . ولكي لا أقاوم أدنى مقـــــــــاومة ربطوا ذراعى وساقى وشدوا وثاقى فى السارية فلم أبد حراكا . بيد أن الآلهة رأفت بي وحلت وثاقى فقذفت بنفسى فى الماء وسبحت الى الشاطىء حيث وجدتهم يعدون عشاءهم ويلتهمونه سراعاً .. وقد اختبأت فى الأدغال الكثيفة فلم يرونى ... وهالهم ألا يجدونى حيث شدوا وثاقى ، فذهبوا يبحثون عنى حتى إذا لم يقفوا لى على أثر ، أقلعوا عجلين ، ونجانى الله منهم ، وساقنى الى الرجل الصالح الطيب الذى وصل حياتى وأكرم مثواى ... »

فتبسم يومايوس وقال : « تالله لقد أثرت فى فؤادى مقالتك أيها الضيف الكريم ، وأشجانى ما لقيت من أهوال ! ولكنك كما يبدو لى لم تكن جاداً فيما رويت من أنباء أوديسيوس فلم أيها الأخ وعليك من سيما النبل ومخايل الفضل ما عليك ، تلفق مثل هذه الترهات المضحكات ؟ أما والله إنه إن يكن قد نجا من الموت فى ساحة طرواده مما ألب عليه من سخط

الآلهة أجمعين ، فأكبر ظني أنه قد غدا جزر السباع وكل نسر قشعم ... وا أسفاه عليه ! ألا ليته قتل في سبيل بلاده في حرب عوان يحمى في وغاها بيضة الوطن ! إذن لبكاه جميع الإغريق ، ولاجتمعت هيلاس كلها تتنافس في صنع لبنات قبره ، وتخليد ذكره ، ولأورث ولده المجد والخلود ! هأنذا يا صاح ثاو في هذا المكان ، لاصق بذلك البيت العتيق ، يفد على في كل آنة غرباء مثلك ، يروون لي القصص ، ويلفقون الأحاديث عن مولاي ، فبعضهم يبكيه ويتحسر عليه ، وبعضهم يوشي الأكاذيب ليغنم بعض الرفد وينال بعض العطاء ، حين أقدمه للملكة الحزينة الكاسفة ، بنلوب ! ولعمري ما انطلت على يوماً أحاديثهم ، ولا خدعت مرة بما روّقوا وزوقوا ! ! أفتحسبني أصدق ما زخرفت أنت الآخر عن أوبة مولاي مثقلا بأحمال الذهب من كريت ، واهماً أنني بهذا أبالغ في إكرامك ، وأحرص على التلطف بك ؟ لم تصنع هذا أيها الرفيق بعد أن ترفقت بك الآلهة ، وهدتك إلى شاطئنا ؟ أما والله إني إنما أكرمتك حباً لجوف ورهبة من بطشه ولما جاش في صدري من الشفقة عليك والرثاء لك ، والتألم من أجلك . » وقال أودسيوس يجيبه : « اشد ما أوتيت قلبا أفعمته الوساوس ، ونفسا ساورتها الشكوك أيها الشيخ ! هبها أنباء ملفقة ، فما يميني التي أقسمتها لك إذن ؟ تعال ! هلم نتقاسم يميناً تكون آلهة الأولمب عليها شهداء ، إنه إن آب مولاك إلى بيتك هذا في أقرب ما تظن من الزمان ، فيكون لي عليك صدار ودثار أصلح بهما شأني حين أعود أدراجي إلى دلشيوم ... فإن لم يؤب كما عاهدتك فتجتمع أنت ورجالك وعمالك

وتقذفوا بي من رأس قلة عالية سامقة يخشى أحقر الآفاقيين أن يتربع عليها
وأجابه راعي الخنازير : جميل والله أيها الغريب اللاجىء ! تكون ضيفي ،
وتؤاكلني وأؤاكلك على ما نُدّتي ، وتطمئن إلي ، وتأتمنني ، ثم أقذف
بك من حالق ؟ جميل والله هذا ! وتضيع صلواتي ونسكي لدى جوف العلى !
صه ! هلم هلم ، العشاء ياصاح ! لقد آن وقت العشاء ... البدار قبل أن يدهمنا
عمالنا فيزحموا المائدة ولا تجد لك مكاناً بينهم »

وهكذا تشقق الحديث بين الرجلين ؛ ثم وصلت رعال الخنازير
وأهرعت إلى حظائرها حيث ارتفع قُباعها[١] وعلت ضوضاؤها ... وهتف
الراعي بأحد غلمانه فأمره أن يحضر واحداً من أسمنها لعشاء الضيف ولعشاء
الرعاة ... « ... أفما نستحق واحداً منهـا مما تلتهم بطون غيرنا الذين
ينعمون بثمار كدنا ونصبنا ؟ »

وجيء بخنزير جسد ، وأججت النيران واتقد الجمر ، وصلى يومايوس
للآلهة ، ودعا لمولاه بالخير ! وتمنى له العود أحمد العود ، ثم أهوى بشاطوره
على عنق الحيوان فخر يتلبط في دمه ؛ وسلخوه بعد ذلك ، وهم به يومايوس
فقطعه ، ووضع إرب اللحم على صبغ الشحم ، ونثر من الدقيق على كل
ذلك ، ووضع الجميع في الجمر ، وكلما نضج شيء وضعه الغلمان على المائدة ،
حتى إذا فرغوا تولى الراعي العجوز توزيع الأنصبة ، فجعل لابن مايا[٢]
سبعة أسهم ، ولعرائس الماء سهما واحداً ؛ وجعل لكل من عماله نصيبه
بعد أن أتحف أوديسيوس بأجزل الأنصبة جميعاً ، ثم كان يعده بعد ذلك

(١) القباع بالضم صوت الخنازير .
(٢) هرمز .

بإمدادات جمة ! ! مما أطلق لسانه له بالشكر وعليه بالثناء … ورد عليه الراعي في أدب وافر : « إن الله هو مانح كل شيء يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويعطي ويسلب ، له الملك ، لا شريك له » . ثم أدوا صلاتهم الخمرية فهراقوا المدامة للآلهة ، وكذلك صنع أوديسيوس ؛ وهم ميسولوس مولى يومايوس وخادمه الذي اشتراه بماله — فوزع الخبز ، ولبث يخدم ويسقي ، ويجيء ويروح ، حتى إذا فرغوا نظف المائدة وأعاد كل شيء إلى مكانه ؛ وانصرف القوم إلى مضاجعهم لينامو ليلة ليلاء ممطرة شديدة القر ، عظيمة البرد ؛ ونام أوديسيوس قريباً من مضيفه ، ولم يكن عليه من الغطاء ما يقيه هول القرس[١] فلفق هذا الحديث للراعي الشيخ ولمن نام معه من عماله : « لله ما تصنع خمركم بالألباب ياقوم ! لقد أوشكت أهذي وانتفض وأملأ شدقي بالضحك … ولولا هذا القر لقمت فرقصت ، ولكنني محدثكم حديثاً من أحاديث الشباب فيه هذيان وفيه ثرثرة ، وفيه من حميا سلافكم ما فيه . ألا ما أحلى أيام الشباب وما أروعها لو رجعت ! ! إن لها اصدى في نفسي يتردد ، وإني ما عشت لن أنسى تلك الليلة القارسة الشاتية التي قضيتها في صدر الشباب وريعان الصبي مع صديقي أودسيوس ومنلوس في كمين تحت أسوار طروادة ، في مستنقع آسن ذي قصب ، نرقب من عدونا فرصة تظفرنا به وتنصرنا عليه ، مقنعين في الحديد والزرد ، صابرين لما يصفعنا به بوريس[٢] من ريح عاتية وبرد ، ويسفعنا به من قر وبرد ، حتى انعقد الصقيع على دروعنا ، وكدت أنا

---

(١) القرس البرد الشديد جداً .
(٢) ريح الشمال أو الصبا .

أجمد ويجمد الدم فى عروق ؛ لأنى والأسفاه استهنت أول الأمر بما أنذرت به الحال من هذا المآل ، فخرجت فى عدتى وسلاحى ، ولم ألبس معطفى ولم ألتفع ريطتى[1] ، بينا قد احترز رفاقى فتدثروا بكل ثقيل... وخفت أن أصبر لهذا البرد فتكون القاضية ، فهتفت بأخى أوديسيوس : « أدركنى يا ابن ليرتس النبيل فقد أشفيت على الهلاك من ذلك الزمهرير ! أدركنى بأربابك فإنى قد استخففت بالفصل الذى نحن فيه فلم أحضر معى معطفاً ويكاد يقتلنى البرد ويهرؤنى الصقيع » . وأسكتنى أوديسيوس خشية أن يسمعنا أحد فلا نفلت من الموت ، وقال لرفاقه : « أيها الإخوان ! رأيت رؤيا وبودى لو يذهب أحد إلى أجاممنون فيطلب لنا مدداً فلقد بعدنا عن الأساطيل ، ولسنا بخير لما ترون من قلتنا ! » ، وانبرى لها أندريمون ، فخلع معطفه وأطلق ساقيه للريح ... وأشار أوديسيوس الخبيث إلىّ ، فلبست المعطف واستدفأت به ، وحمدت الآلهة « أفليس فيكم أيها الأجاويد رجل رشيد ، فينزل لى عن معطفه أتقى به هذا البرد الشديد وأنا فى مثل سنى وأنتم فى ميعة شبابكم ؟ ألا تفعلون ! لتكن لكم هذه اليد علىّ تفضلا أو تأدباً ! » وقال يومايوس يجيبه : « لا عليك يا ضيفنا العزيز ... إنك لن تشكو برداً ولا تقصيراً عندنا ... وليس لدى كل منا إلا دثاره وصداره ومعطفه ، وليس لدينا منها كثير نباهى به ، ولسوف يعود تليماك بن سيدنا ومولانا فيخلع عليك من الملابس ما يسرك ويبهجك ؛ ولكن رويداً فسأ كفيك عادية القر برغم هذا ... وبرغم ما غمزت فى

(١) الريطة تشبه الكوفية .

حديثك ولزت ! ! » . ثم نهض فجمع شيئاً كثيراً من فراء الغنم وجلد الماعز فجعله ركاماً بالقرب من المدفأ ، ثم جعل عليها ظهارة[١] من الصوف ، فصلحت بذلك أن تكون لأوديسيوس وسادة وثيرة ليس بها من بأس ، نام فيها فاستراح ، والتحف بفراء أخر ، وبات ليلته والابتهاج يغمر نفسه لما رأى من حرص راعيه على ذكراه ، وحنينه للقياه ، وعنايته بقطعانه … أما الراعى العجوز الشيخ ، فكأنما أثرت فيه مقالة أوديسيوس فهب فألقى عليه سلاحه ، وأضفى على كاهله دروعه ، بعد أن خلع معطفه ، وأتزر بجلد عنز ؛ ثم أجلس بازيه الباشق على كتفه الضعيف ، وحمل حربته التى يذود بها الناس والسباع عن رعاله ، وانطلق فى العراء ، حيث جلس على صخرة مشرفة على السهل ، وذلك ليحرس القطيع النائم .. غير عابىء بقرس الريح ولا وحشة الليلة الليلاء …

(١) ظهارة الفراش ونمطه ما يفرش عليه كالملاءة .

ثم رفت مينرفا رفتين أو نحوهما ، فكانت فى وادى ليسديمون الخصيب حيث حل تليماك ضيفاً كريماً على الملك مناوس ، وحيث وجدته يتقلب على فراش السهد والأرق ، لا يستطيع أن يغمض عينيه من هول ما يفكر فى أبيه ... بينما نام ابن الملك نسطور ملء عينيه نوماً هادئاً عميقاً على سرير مقابل لسرير الفتى المحزون .

ووقفت الربة عند رأس تليماك وأنشأت تقول له : « إلام تظل هنا فى مهاجرك بأقصى الأرض نائياً عن وطنك يا تليماخوس ؟ أو هكذا رضيت أن يأكل العشاق الفساق تراثك ويذهبوا بنعماء السماء عليك ، ثم لا تلبث أن تثوب إليهم من تطوافك بالآفاق بقبضة من هواء ، وخيبة من رجاء ! هلم هلم ! سل الملك أن يأذن لك فى السفر من فورك فقد ألح جدك وأخوالك على أمك أن تتزوج من الأمير يوريم ، لما اتفق عليه من مهر ضخم ، وتقدمات وافرة ، أضعاف ماوعد الآخرون ... هذا فضلا عما يوشك أن يسلب من القنى العزيزة عليك من بيتك ، التى تنقص من هنا لتزيد فيما هناك ، فإنه ليس أحب من هذا إلى فؤاد المرأة ، وهى سرعان ما تنسى أطفالها من زوج شبابها ورفيق صباها من أجل زوجها الثانى الذى تود لو تهبه كل شىء . فالبدارَ البدارَ إذن ، وعد أدراجك إلى بلادك لتحفظ تراث أبيك ينفعك حين تكون لك زوجة صالحة

وذرارٍ أنجاب ببركة السماء ورعاية الآلهة ... ثم خذ حذرك يا تليماك ، فلقد اختبأ زعيم العشاق فى ثلة من رجاله بين ساموس وإيثاكا يترصبون بك ويترصدونك ليغتالوك قبل أن تصل إلى شاطئ الوطن ... وإن فألم تخائب ، ولن يفعلوه حتى يهـال تراب الموت عليهم جميعاً ... ألا فارحل يا بنى فى ظلام الليل ، واجْنُبْ سفينتك أن تسلك سبيل ساموس ، وابعد ما استطعت عن الجزائر القريبة منها ، وسيرعاك بعض الآلهة ، ويسخرلك ريحاً رخاء تسارع بك إلى بلادك فإذا بلغت أول الشاطئ الإيثاكى فانزل إلى البر ، ولتسـلك الفلك سبيلها من دونك ، ولتذهب أنت إلى يومايوس راعى قطعانك الذى يحبك فأرسله إلى أمك كى تقر عينها بأوبتك » وما كادت تفرغ حتى زفّت(١) إلى الأولمب . وهب تليماك فأيقظ رفيقه من نومه قائلا : « هلم بيزاستروس ! هلم فأسرج الخيـل ولنرحل من فورنا ! » وقال له ابن نسطور يجيبه : « هلم إلى أين ياصاحبى ؟ كيف نخبط فى هذا الليل الدامس ؟ ألا نصبر حتى تشرق ذكاء ، وحتى يلقاك الملك فيخلع عليك ويحسن وداعك ، لتظل ذكراه الحسنة ماثلة إلى الأبد فى روعك ؟ »

وانبلج الصبح ، فنهض منلوس الملك من حصن هيلين الدافئ ، ويمم شطر الغرفة التى نام فيها تليماك ورفيقه . وما كاد تليماك يلمح فى غبشة الفجر صورة الملك حتى هب مسرعاً ، وأضفى عليه طيلسانه الفاخر ، وأتزر فوقه بمئزر آخر ، ثم دلف نحو الباب فلقى الملك ثمة وقال له : « بورك الملك

---

(١) زف الطائر أسرع فى طيرانه ورفرف بجناحيه .

وتعالى جده ! تالله لقد آن لى أن أعود إلى إيثاكا ، و بودى لو أذن الملك بذلك »
فقال الملك : « إنا لا نستطيع أن نحجزك إذا كانت رغبتك أن تشد رحلك يا تليماخوس ؛ وإنه ليس أشق علينا أن يقيم ضيف لدينا برغمه ، أو أن نعجله على الرحيل من عندنا ... بيد أنه يحسن أن تنتظر قليلا حتى نهيئ لك أفخر الهدايا وأعز اللهى ، وحتى نعدها لك فى عربتك ؛ وسآمر ندامای فيعدون لنا فطوراً يليق بوداع ضيف كريم عزيز مثلك ، لا بد له من أكلة حافلة تصبر لسفر طويل يزمعه . فلو أن سفرك هذا كان خلال هيلاس ، وكنت من أجله ستجتاز آرجوس شرقاً لغرب ، إذن لسافرت معك ، ولجزت لك مدائن شتى ، ولأهرع إلينا عمال الأقاليم يقدمون إلينا الهدايا والتحف ، من صحائف الذهب وركائز الإبريز وكل كأس ثمينة ، ومن كل دابة مطهمة وجواد كريم » وأجاب تليماك فى أسلوب الفطين الحذر : « مولاى أتريدس ، منلوس العظيم ! تالله إنه لآثر إلى أن أرحل لساعتى ، فلقد تركت ورائى بيتاً لم أدعه فى صيانة أحد ، وحطاماً لست آمن عليه أحداً . وأخشى يا مولاى أن أمضى فى رحلتى هذه وراء أبى ، فلا أكون قد أبقيت على نفسى ، ولا رعيت تراثه الذى تركه لى » وأمر الملك حدمه فهيأوا الخوان ، وزودوه عما بقى من عشاء أمس ، بعد أن أضرم رئيسهم إيتون ناراً أسخن عليها ما ينبغى أن يكون منها حاراً ... وتوجه الملك إلى غرفته ، فلقى فيها زوجه وولده ؛ فتناول كأساً من الذهب الخالص ، ودفع لولده بدلها من الفضة ؛ أما

الملكة فنهضت إلى خزانتها فأحضرت ساجاً[1] عملت فيه يدها الصناع فزخرفته وزركشته حتى بدا كسماء التمعت فيها نجوم ... وعاد ثلاثتهم إلى حيث ينتظرهم تليماك وكله الملك فقال : « ذاك تذكارى إليك يا ابن أودسيوس بودى لو تقبلته ؛ وهو كأس عجيبة من صنع فلكان أهداها إليّ البطل فيديم ملك سيدون حين حللتُ عليه ضيفاً ؛ هذا وأنا أدعو لك أن يكلأك جوف فى رحلتك بعين الرعاية ، وأن يكتب لك السلامة والتوفيق » ثم قدم إليه الكأس العظيمة وكذلك فعل ابنه ؛ أما هيلين فقدمت إليه الساج ، وتبسمت عن فم ألذ من أقحوانة ، وقالت له : « وأنا أيضاً أدعو لك يا بنى ، وأقدم إليك سدوساً[2] من أنفس الديباج حبذا لو جعلته قنية تذخره لك أمه حتى تقدمه بدورك لعروسك ليلة زفافها إليك » وكان لكلماتها فى نفسه نشوة ، فأخذ الطيلسان وناوله ابن نسطور ، الذى عنى به ووضعه بمكانه من العربة . ثم يمموا المائدة الكبرى ، وصبت الماء على أيديهم جارية ذات حسن وأناقة وظرف ، وأخذوا بعد ذلك فى فطورهم ، بينا وقف ابن الملك يدهق الكؤوس ويشرب الخمر ، حتى إذا فرغوا نهض تليماك ورفيقه فسلما وودعا ، وركبا العربة الفخمة المثقلة بأثمن الهدايا ؛ وتناول الملك كأساً من الخمر وسار حتى دنا من الخيل ؛ فصبها صلاة للآلهة من أجل الراحلين وقال : « لكما الصحة والصفاء أيها الشابان اليافعان . تحياتى إلى نسطور أخى الذى كان يرعانى كأحد أبنائه تحت أسوار طروادة » فأجابه تليماك : « لا غرو أيها الملك ، فسنقص عليه آية

(١) الساج الطيلسان .
(٢) هو الساج أيضاً .

كرمك وعظيم سـخائك ... وأرجو لو وصلت إلى إيثاكا فلقيت أبى أودسيوس ثمة ! إذن لقصصت عليـه هو الآخر ما غمرتنا به من حفاوة وكرم وعطف ! » وما كاد ينتهى من كلمته حتى بدا عن يمينه نسر عظيم يحمل فى مخالبه إوزة كبيرة بيضـاء ، وقد حلق فى الهواء ، وجرى حوله الخدم والحشم من أهل المدينة ، بيد أن النسر فاتهم جميعاً ... وقد زُعزع الملأ الواقف لتوديع تلياك ، وبدا الهلع فى وجه بيزاستراتوس ، فسأل الملك فقال : « ليتفضل الملك فيحدثنا عن هذه العلامة إذا كانت من أجلنا أو من أجل مولانا » ولـكن الملك لم يحر جواباً لفرط دهشه . فلما لحظت حيرته هيلين زوجته ، تكلمت فقالت : « أيها الملأ اسمعوا وعوا ، فإنى أحدثـكم كما علمتنى الآلهة ... تالله إن هذه لآية ، فكما غلب ذاك النسر أولئك الناس ، وذهب بتلك الإوزة البيضاء ، فهى له ، فـكذلك يعود أودسيوس من تجواله وطويل ترحاله إلى إيثاكا ، فيبطش بأعدائه الذين استباحوا عرضه وعشقوا زوجه ، ويخلو له وجه بنلوب » وانتفض تلياك من شدة ما أثرت فيه كلمات الملـكة فقال : « ألا حبذا أن يتم هذا ! اللهم يا جوف المتعال حقق النبوءة أعبدك ، واكتب لأبى السلامة أخبت لك ، واكتب لى أن أعود إلى بلادى فألقاه ثمة تـكن لك صلاة دائمة وذكر متصل يا إله السموات ! » ثم حيّا الملك ، وألهب الجياد فانطلقت تنهب الرحب ...

ولم يزالا على سفر طوال يومهما ، حتى بلغا قصر ديوكليس مع مغيب الشمس ، فضيّفهما وباتا ليلتهما عنـده ؛ وما كادت أورورا تنضر جبين

الشرق بالورد حتى هبا مسرعين ، وودعا مضيفهما الكريم ، وواصلا رحلتهما ... وكان ابن نسطور قد أخذ بأعنة الخيل فجعلها تنساب حتى لكأنها تسابق الريح ... ولما بلغا أبواب بيلوس قال تلماك لصاحبه وهو يحدثه : « أنت عذيرى يا أعز الأصدقاء إذا سألتك أن تصل بى إلى السفينة من غير أن تتوجه إلى بيتكم للقاء أبيك ، فقد يكبر علىّ أن أرفض نُزُله ، وأستأنى بذلك عنده ، فى وقت أنا فى أشد الحاجة إلى العودة إلى الوطن ... على أنى سأحفظ لك فى أعماق ذكرى خالدة لا تمحى ، زادتها هذه الرحلة الحزينة جمالا ، وعقد أواصرها مابين أبوينا من الود ، وما بيننا من اتفاق السن ، وصفو المودة وجميل الإخاء » وتردد ابن نسطور أول الأمر ، بيد أنه لم يستطع إلا أن يلبى رجيّة تلماك ، فثنى أعنة الخيل إلى الشاطئ حيث كانت تنتظره الفلك ، فنقل فيها متاعه ، ثم ودعه صديقه وعقرت القرابين باسم مينرفا ، وصلى لها الجميع وسبّحوا سبحاً طويلا ... وإنهم لكذلك ، إذا شاب طويل مفتول العضل يتقدم إلى تلماك ، فيخبره أنه قاتل آبق[1] ، وأنه يلوذ به ، وأن اسمه تيوكليمين ، وأنه يرجوه فى أن يسافر معه . فهش له وبش ، وأخذ سلاحه فألقاه فى السفينة ، وأذن له فى الركوب ، وجلس الرجل مع تلماك عند مؤخر السفينة ، فى حين كان الملاحون يهيئون القلاع ، وينشرون الشراع ، ثم أقلعت الفلك ، وأرسلت مينرفا بين يديها ستجسجاً تدفعها فى رفق ، وتطوى تحتها الماء فى حدَب . وكانت الشمس تتوارى بالحجاب ، وكان الليل

(١) أضرب صفحاً عن قصة هذا الرجل لبعدها عن الموضوع .

يلقى سدوله فوق الكون . . وما هى إلا عشية حتى مرت السفينة بهيريا ، ثم باء بليس ، وچوف فى كل ذلك يحرسها و يرعاها

هذا ما كان من أمر تلياخوس الفتى . . أما ما كان من أمر أودسيوس وراعيه ، فقد كانا يلتهمان فى هذا الوقت طعامهما ، وما كادا يفرغان من ذلك حتى أحب أودسيوس أن يرى لنفسه إذا كان الراعى قد ضاق به ذرعا فينطلق من لدنه ، أو هو كريم ذو نخوة ومحبزة ميبقى عنده ، فنهض يقول : « أيها الراعى يومايوس .. وأنتم أيها الأصدقاء الرعاة اسمعوا وعوا .. تالله إنى لأخشى أن أرهقكم بضيافتى أو أثقل عليكم بلبثى عندكم طويلا ، فرجائى إذا انفلق الإصباح أن يقودنى أحدكم إلى المدينة لأستجدى وأتكفف ، فلن أعدم فيهم من يتفضل على ببلغة أو كسرة أو جرعة ماء . . ولسوف أيمم شطر بنلوب ، وعسى أن أستطيع لقاءها لأبلغها أنباء أودسيوس ، فإذا لم أستطع فلن أعدم عملا فى خدمة العشاق ، لأنى والله المحمود ولى من أولياء هرمز رسول السماء ونصير الضعفاء ، ولن أضيق بتكسير الخشب ، أو إضرام الحطب ، أو حمل الكاس والطاس ، أو القيام على الشواء ... أو ما إلى هذا وذاك من عمل الفقراء البائسين » واهتز يومايوس إشفاقاً وقال : « أيها الرجل ماذا تقول ؟ أتجازف بنفسك فتلقى بها إلى التهلكة وسط هؤلاء الناس ؟ من أنت أيها الفقير حتى تحسبك تقدم الخمر لهم أو تخدمهم ، ولهم خدم شباب غُرَانيق ، وندامى كالكواكب نضرةً وجمالاً ... وحَشَم يلبسون أحسن الوشى وأفخر الحرير والديباج ... لتبق معنا أيها الشيخ فلن نضيق بك ،

وحين يعود سـيدى تلياك فإنه يكسوك و يسبغ عليك ، و يبعثك مكرماً معززاً أنى شئت » . وشاع البشر فى أعطاف أوديسيوس فقال : « شكراً لك يا يومايوس ألف شكر ، وجزاك الله عنى أجزل الخير ، بمـا كفيتنى شر السؤال وذل الاسـتجداء ، وليس شراً منهما على نفس أبية قاست الأهوال ولا تزال تقاسى ... بيد أن لى مسألة عندك بودى لو جلوتها لى : ألا يزال والد أوديسيوس حياً يرزق ؟ وهل لا تزال أمه بخير ؟ أم أنهما اليوم من أهل الدار الآخرة ؟ لقد غادرهما أوديسيوس يوشكان أن يطرقا باب هيدز ، فهل عندك من أخبارهما شيء ؟ » . قال الراعى : « ومالى لا أصدق أيها الشيخ ؟ إن ليرتيس — أبا مولاى — لا يزال على قيد الحياة ... لـكنها حياة شاقة أنقضت ظهره ، وأنفدت صبره ، وهو ما يفتأ يضرع للآلهة أن تخلصه منها بالموت ... إنه قد فقد أحسن آماله حين فقد حامى شيبته الذائد عن شيخوخته ، ولده أوديسيوس ، وقد عجل له الشقاء موته ، وحياته هو من بعده ، فهو ما ينى يبكيه ، وما ينفك يُساقط نفسـه حسرات عليه .. أما أمه فقد قضت من أسى وحزن وطول بكاء ، قضاء ما قضى مثله صـديق ولا عدو ! إنى حزين عليها يا صاح ، بل أنا أفتقدها كأعز من أمى لأنها نشأتنى صغيراً ، ورعتنى كبيراً ، وكانت تحبنى كمحبة ابنتها ستيمينا التى تزوجت أحسن زيجة فى ساموس من كفء مهرها أحسن مهر وأعلاه ... أبداً لا أنسى أنهم ألبسونى أحسن اللباس ، وأعطونى نعلين جديدتين ، فرحاً بزواجها ، ثم أرسلونى إلى الحقل ، ولـكنهم لم ينقصوا من محبتى ... لقد عاشت

مولاتى بعد أوديسيوس معيشةً شقية كلها آلام ، وكنت أواسيها وأعزيها ، ولكنها ما انتفعت قط بعزاء ، ولا استروحت إلى سلوة ، حتى ماتت وهأنذا أبكيها كلما ذكرتها ، وقلَّ أن أنساها ، على أنى أحمد السماء على ما أولتنى من خير ، وأسبغت علىّ من نعم ، هى حسبى وحسب الضيف الذى يغشانى ... على أنى أعذر مولاتى وسيدتى پنلوپ إذا لم أر منها عطفا علىّ ، لأنها فى شغل بحالها وسط هؤلاء الأوغاد المعاميد ... وهى بالرغم من ذلك تولى خدمها المقربين منها نصائح غاليةً تنفعنا جميعاً ... ثم هى لا تنسى أن تنفح الكثيرين منهم ما يفرحون به من آلاء وأعطيات ، غير ما يأكلون وما يشربون » . وكأنما أراد أوديسيوس أن يتهكم عليه ويسخر به فسأله عن بلده ووالديه ، وعن القوم الذين أخذوه عنوةً ، وفى أى سفينة جاءوا به ، وبكم باعوه لأهل أوديسيوس ، فقال الرجل : « أيها الصديق أعرنى أذنيك ، وارشف خمرك ، أقص عليك قصتى ، فالليل طويل ، وفى جنحه يحلو السمر ، وليس أشهى من أن يروى ذو أشجان ، وأنتم أيها الإخوان ، من كان منكم فى حاجة إلى النوم ليصحو مبكراً فليذهب ولينعم بالكرى ... ثم أحسبك سمعت أو عرفت جزيرة سيريا التى عند أورتيجيا ... إنها جزيرة صغيرة ، لكنها غنية بأغنامها وماشيتها وقمحها وأعنابها ، كما اشتهرت بهوائها العليل ، ومناخها الجميل ، وصفوها وطيب رياها ... لذلك لا تعرف أبدان أصحابها الأوصاب ، بل يعمّرون حتى يأتيهم أپوللو [1] فيصميهم بسهامه ، وتعجل أرواحهم إلى هيدز ،

---

(١) تضيف بعض النسخ ديانا — وهذه أول مرة نرى فيها أبوللو يقوم بوظيفة عزرائيل فى الأدب اليونانى ، لأنها وظيفة هرمز (مركيورى) خاصة (المترجم)

ويقتسم أرض الجزيرة أهل مدينتين عظيمتين ، كانتا تخضعان لسيطرة أبي الزعيم العظيم ستزيوس أورمنيد ... وحدث أن أرست فى شاطئنا سفينة فينيقية محملة بالطرف والتحف وبلعب الأطفال ، من صناعة الفينيقيين ؛ وحدث أن كانت فى بيت أبى جارية قسيمة وسيمة ذات حسن وذات دلال ، كانت تقف على سيف البحر لبعض شئون المنزل ، فرآها بعض ملاحى المركب واستطاع أن يخدعها بكلام معسول ذى طنين وذى رنين ؛ ثم سألها من هى ، ومن أى البلاد أقبلت إلى هذه الجزيرة .. وكان الخبيث يمزج ألفاظه بنظرات الأبالسة ، وغمزات الشياطين ، وابتسامات الغزل ، فانقادت له ، ضعيفة كبنى جنسها إذا نصبت لهن شراك الهوى ، وجذبتهن أحابيل الغرام ، وقد أخبرته الغادة أنها من سيدون المشهورة بصناعة الصلب والنحاس ، وأن أباها أربياس الفلاح ، وأن بعض القرصان قد اختطفها حين كانت عائدة أدراجها من حقله ، وباعها لصاحب تلك الجزيرة بأبخس الأثمان ، وقد أغراها الملاح بالعودة معه إلى بلدها على فلكه ، وبالفرار من حياة الرق والعبودية للقاء الأهل والأحباب والأبوين الثريين اللذين كانا لا يزالان حيين يرزقان .. فاستحلفته المسكينة إذا كان جاداً فيما قال ، لحلف لها ، واستقسمته إذا كان أميناً غير ذى غرض أو لبانة ، فأقسم لها ؛ ثم تعاهدا على ذلك وقالت له : « والآن فلا يذكر أحد من أمرى معكم شيئاً لأى من أهل المدينة ، حتى لا يفشو السر ويعلم به صاحبي ، فيكون فى ذلك وبالى ووبالكم وهلاكى وهلاككم . . بل امضوا فى بيع بضاعتكم وشراء ما يلزمكم ، ثم إذا

عزمتم أن تفعلوا فابعثوا أحدكم إلىّ بقصر صاحب الجزيرة ، فأنى مرضع ابنه ، وهو الآن يحبو ، بل يدرج ، وإني محضرته معي فانه سينفعكم ، بل تستطيعون بيعه فى أحد البلاد ببعض المال ، وسأحضر معه كل ما أستطيع يدى أن تحمل من آنية وأكواب من خالص الذهب وغالى الفضة ، مما يخف حمله ويعلو ثمنه » وعادت البائسة إلى قصر أبى ... ولبث الملاحون عامهم كله فى مرفئنا يبيعون ويشترون ، حتى إذا حال الحول أو كاد ، حضر واحد منهم إلى بيتنا يبيع بنيقة[1] من ذهب وكهرمان ، فالتف حوله وصيفات القصر ثم حضرت أمى فاشترت بضاعة الرجل الخبيث ؛ الذى استطاع أن يومىء إيماءته المتفق عليها إلى مرضعى فلما انصرف من فى القصر من أضياف ، وذهب الخدم إلى شغلهن قادتنى مرضعى التاعسة من يدى فمرت بى فى غرفة الزائرين ، حيث كانت أكواب الشراب لا تزال على المائدة فدست منها ثلاثة فى ثيابها ثم ذهبت بى — وأنا طفل لا أدرك — إلى المرفأ ، حيث ركبت معها فى سفينة الفينيقيين ، فأقلعوا ساعة الغروب ... ودفعتنا ريح عاصف طيلة ستة أيام ، وفى صبيحة اليوم السابع ، أرسلت ديانا سهامها مسمومة إلى صـــدر المرأة — مرضعى الآبقة — فماتت لساعتها — ووضعوا جسمانها فى سَأْبٍ[2] ثم قذفوا بها فى اليم ، طعمة غير سائغة للأسماك ، ورحت أنا ، لفرط حبى لها ، أبكيها وأعول من أجلها ... ثم دفعتهم الريح والموج إلى شاطىء إيثاكا ، حيث

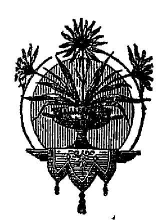
---

(١) بوزن سفينة ولا تشدد ، هى (الياقة أو الـكولة) .

(٢) السأب والمسأب وعاء كبير للزيت أو الخل وهو الزق ولم نجد مرادفاً لـكلمة (برميل) المعروفة فاستعملناه .

ابتاعنى صاحبها العظيم ليرتيس ، و بقيت فيها إلى اليوم » وألم أودسيوس لما قص الرعى وتوجع، وواساه بكلمات طيبات ... « ؤلقد وصلت فى رعاية چوف إلى سيد رحيم ورجل بر ، كفل لك الهناءة والحياة الهادئة ... أما أنا ، فلا أزال موكلا بنضاء الأرض أذرعه ، وببلد ألبسه وآخر أقلعه » ... ولما يناما طويلا ، فقد قطع حديثهما حبل الليل ... أما ما كان من أمر تليماك ورجاله ، فقد وصل ملاحوه سالمين إلى الشاطيء الإيثاكى ، وأرسوا ثمــة ، وربطوا حبالهم فى أوتاد المرفأ ، ثم اجتمعوا إلى فطورهم فأكلوا وشربوا ... فلما فرغوا أمرهم تليماك أن يذهبوا هم إلى المدينة ، « ... أما أنا ، فذاهب لبعض شأنى فى المراعى القريبة وسأعود قبيل الغروب ؛ وفى الغد ، سأسقيكم سلافة الأوبة التى تذهب عنــكم وعثاء هذا السفر » . ونهض تيوكلين (الشاب الآبق) فاستأذن فى الذهاب بالبشرى إلى والدة تليماك ، ولــكن تليماك قال : « كلا يانيوكلين ، لا أريد أن تعلم أمى بقدومى اليوم ، فابق مع رجالى هؤلاء حتى لا تقع أبصار العشاق المناكيد عليك ؛ وإن شئت فاذهب إلى أحدهم ، يوريماخوس ، فهو أعظمهم قدراً وأنبههم ذكراً ، وهو الذى يحاول جاهداً الزواج من والدتى ، والجلوس على عرش أبى ، فاربط حبالك بحباله ... أواه ياأرباب السماء ! حنانيك يا چوف ! بعداً لهذا الزواج ، وبعداً لمن يحلمون به ! » وما كاد يفرغ من حديثه حتى بدا إلى يمينه بازى باشق — هو من غير ريب رسول أبوللو الأمين — وقد أمسك فى مخالبه حمامة بيضاء ، فظل يدوّم ويرنق حتى إذا كان بين الفلك فى البحر وتليماك فى البر نثر خوافيها فى الجو ، فنزلن

بالقرب من تلماك — وهنا — تكلم تيوكلمين فقال : « تالله إنها لآية من السماء ياسيدى ، إنك ابن أعظم من فى هذه الأرض ، و إن بيتك أعرق بيوتها ، وستظفر كما ظفر آباؤك » وشكره تلماك ، وتمنى لو صدقت نبوءته ، ثم أوصى به أعظم رجاله وأخلصهم له — كليتوس — فاهتزت أريحية الرجل ، ووعد أن يكون له كسيده(تلماك) حتى يثوب ... وسلم تلماك — ومضى للقاء يومايوس ثم أقلعت السفينة بمن عليها إلى المدينة .



أودسيوس يلقى تليماك

لقد كانت هدأة الفجر الساكنة الجميلة حينما هب يومايوس وضيفه من نومهما ليلبسا ثيابهما ويعدا فطورهما ، وليرسل الراعى عماله وراء قطعانه النائمة فى السهل الصامت الوديع ... وحينما أقبل تلياخوس أهرعت إليه الكلاب تلحس ثيابه وتعلق قدميه ، وتهتز من نشوة وطرب لأنها رأته بعد طول الغياب ... وقد لحظ أودسيوس ذلك فقال يتحدث إلى الراعى : « يومايوس ! هذا أحد معارفك أو الأوداء إليك مقبل ... لشد ما تملقه الكلاب التى أوشكت من قبل أن تعقرنى ! إنها لا تنبح ولا تكشر ، بل تقعى فى إثره ذليلة ! » وما كاد يفرغ من حديثه حتى كان ولده واقفاً أمامه فى رحبة الدار . وما كاد يومايوس يلمحه ، حتى هب من مقامه مسبوها مرتبكا ، وحتى انقذفت الأكؤس التى كان يمزج فيها الخمر من يديه ... بيد أنه ذهب إليه يقبله ثم يقبله ، و يبالغ فى تقبيله ، كأب مشوق لقى ولده فجأة بعد بضع سنين من مرارة البعد وألم الفراق ! ثم قال يكلمه : « أواه تلياخوس ؟ أهو أنت يانور عينى ؟ أنت نفسك ؟ أو قد عدت ؟ تالله ما كان يخطر بخلدى أنك عائد من سفرك بعد الذى دبروا لك ! هلم يا حبيبى ! تعال يا بنى ! فلقد عادت روحى من سفر سحيق برؤيتك ... تعال تلياخوس فما أندر ما تزورنا هنا لطول اشتغالك بالمعاميد المناكيد !! » وقال تليماك يجيبه : « أجل أيها الصديق ؛ غير أننى أتيت

لأسألك عن أمي ! ألا تزال مخلصة لذكرى أودسيوس ، قائمة على عهده ، أم أنها هجرت مهاده لتقع فى شرك من شراك العناكب المحدقة بها ؟ ! » وأجابه الراعى فوصف له ما تلقاه الأم المحزونة من الضنى والحَزَن ، وما تذرف من الدموع فى جنح الليل لما يرميها به الحدثان ... ثم دخل تلياك بعد أن أخذ الراعى حربته ، فنهض أودسيوس ليخلى لولده مقعده ، فأبى تلياك ... « لأن المكان فسيح ، ولأن يومايوس يستطيع أن يعد لنا مقعداً آخر ... فوالله لتجلسنّ أيها اللاجىء الكريم ! » . وهيأ الراعى لسيده مقعداً من الحشائش الغضة والحلفاء الرطبة جعل عليها فروة كبيرة مما عنده ؛ وجلس تلياك .. وأحضر يومايوس فطوره فى أطباق من أطباق أمس وشيئاً من الخبز والخمر ؛ ونشر الصحاف على الخوان أمام مولاه ، وأخذ الثلاثة يلتهمونها أكلة مريئة هانئة ... حتى إذا فرغوا ، توجه تلياك بالحديث إلى راعيه فقال : « ممن ضيفك يا أبتاه ؟ ومتى وصل إلى إبثاكا وكيف ؟ وأى الملاحين حملوه إلى شاطئنا ؟ » . قال الراعى : « والله يابنى ما أستطيع أن أخفى عنك ما قال ؛ فهو يدعى أنه من نسل الأماثل الأمجاد من أمراء كريت ، وأنه طوف فى الآفاق ، وسافر فى البلاد ورأى من المدن ما لا عين رأت ... وهو يقول إن فلكاً قبرسيا قد حمله إلى شاطئنا قبل أن تحمله رجلاه إلى كوخى هذا ... ولكن .. لم هذا ؟ ولم أتولى أنا الإجابة ؟ إنه أمامك وأنا أدع أمره لك ، فاصنع به ما تشاء إنه لائذ بك ، قاصد بابك ، وأحسب أن له حاجة عندك ! » وبدا الألم فى محيا الشاب فأجاب : تالله لقد آلمنى حديثك أيها الأب يومايوس ! أنت

تجعله لائذاً بي قاصداً بابي ، وأنت تعرف من حالى ما تعرف ، وتعلم أنى مُمرزَّأ بهذه الطغمة ، مشغول بوالدتى التى لا أستطيع أن أدفع عنها إصر هؤلاء الأنجاس المناكيد ، الذين طال لبثهم حولها ، وتوقحهم بسببها ، حتى لأخشى أن تضيق بهم فتختار مرغمة ، أفضلهم بعلا لها ، أو أكثرهم عطاء ، وأوسعهم ثراء ... بيد أنى أوثر أن أمنحه دثاراً وصداراً ، ونعلين ، وسيفاً ُجرزاً ، ثم أرسله إلى أى أقاليم العالم شاء ، فى حمايتى ... وإن أَحبَّ ، فليبق فى ضيافتك أنت ، وسأرسل إليه ما هو حَسْبُهُ من طعام وشراب خشية أن يرهقك ، أو أن تضيق به ... أما أن يصحبنى إلى القصر الذى تعلم من أمره ما لا تعلم ، فذاك ما لا أرضاه له ... فقد يغمزه أحد بكلمة فيجرحه ، وأُجرح أنا بسببه ، وأنت لا يخفى عليك أنى صغير لا أستطيع مهما أوتيت من الشجاعة أن أرد عادية هؤلاء الأوغاد » ، وتولى أودسيوس الإجابة فقال : « أوه أيها الحبيب الطيب القلب ! لشد ما تتمزق نياط قلبى لما سمعت من أمر هؤلاء العشاق الأشقياء الذين يستبيحون منزل فتى كريم مثلك ! ولكن قل لى ، إذا أذنت أن أتكلم فى هذا الشأن : هل عن رضى منك لصقوا بمنزلك فما يريمون ؟ أم برغمك أيها العزيز ؟ أليس لك إخوة يسندونك ويشدون أزرك فتطردهم من بيتك ؟ أواه لو عاد لى شبابى الآن أواه ! وآه لو عاد الآن أودسيوس ! تالله لو أننى فى حالك هذه لآثرت أن أمتشق سيفى فى وجوههم فإما أن أطهر بيتى منهم ، وإما أن أخر قتيلا بينهم فلا تقع عينى على ما يصنعون ، ولا أرى إلى عيثهم وعبثهم بكل ما فى منزل أبى من خير

وَمَـيْر ، السنين الطوال ! » فقال تلماك « ليس سراً أيها اللاحىء الكريم ما بينى وبين قومى ، وليس منهم من يضمر لى عداوة أو يطوى جوانحه لى على حقد ... أما الإخوة والأشقاء فليس فى أسرتنا من رزق هذه النعمة ، بل هذا دأب عائلتنا منذ القدم ؛ ذلك أَرْسسْيَاس لم ينجب غير ليرتيس ولم ينجب ليرتيس غير أودسيوس ، وهذا لم ينجب غيرى ... أنا ... هذا المرزأ المحزون الموجع القلب ... من أجل ذلك طمع هؤلاء الطامعون فينا وتكالبوا على بيتنا من كل فج ، فأقبلوا من ساموس ودلشيوم وزاكنتوس وأطراف إيثاكا ، ومن الجزر الكثيرة المنتثرة فى هذا البحر .. كل يرغب فى أن تكون أمى له من دون العالمين زوجة برغمها ، فهم مقيمون لا يريمون ، آكلين ناعمين ، يستنفدون غلة ما ترك أودسيوس ، آتين على كل ما فى بيته وخزائنه ، ويوشكون أن يأتوا على أنا الآخر ! » ثم أمر يومايوس أن يذهب إلى القصر فيخبر أمه بعودته سالماً من بيلوس ؛ فذكره يومايوس بجده الضعيف الشيخ الذى امتنع عن الأكل والشراب منذ أن رحل تلماك يسائل عن أبيه ... وذلك مما أضواه من الهم ، واستأذنه فى أن يمر عليه فيخبره بعودة مولاه حتى يطمئن هو الآخر . ولكن تلماك أمره بأن يذهب من فوره إلى القصر فيخبره ... وانطلق يومايوس ... وكانت مينرفا تنتظر ذهابه لتبدو لأودسيوس فى صورة حسناء ذات وقار وحسن سمت ، وقد أخذت الكلاب بروعة مرآها فتكبكبت فى أحد أركان الحظيرة ، وراحت توقوق وتهر[1] مما شدهها

(١) الوقوقة صوت الكلاب إذا خافت والهرير صوتها إذا أنكرت شيئا

من منظر مينرفا ، وقد لفت فعلها أودسيوس فهب مسرعاً إلى ربة الحكمة التي قالت له : الآن ينبغي لك أن تكشف نفسك لولدك فتقفه على حقيقة الأمر ، ثم تذهب معه إلى المدينة وفي قبضتك الموت الزؤام تجرّعه صاباً ومحموماً للعشاق . وسأكون دائماً معك ، وسأشرف على المعركة بنفسي » ولمسته بعصاها السحرية فارتد إلى صورته الحقيقية ، وعاد إلى الكوخ في حلته الضافية التي كانت عليه من قبل … فلما رآه تليماك شُده وفَرق وقال له : « أيها النازح الغريب ما ذا أصابك ؟ لقد تبدلت أيما تبدل ! خبرني أرجوك وأتوسل اليك ، أأنت إله كريم فنعقر لك القرابين وندبح من أجلك الأضاحي ؟ » قال أودسيوس : « ليفرخ روعك يابني فما أنا إله إن أنا إلا بشر ، وإن أنا إلا أبوك الذي ذهبت تذرع الدنيا من أجله والذي بسببه غصصت بكل هذه الآلام ، وصبرت للؤم هؤلاء الناس ! » ثم ضم إليه ولده وطفق يقبله ويذرف دموعه على خديه ! ! بيد أن تليماك لم يصدق وراح بدوره يقول : « أبي ؟ لن تكون مطلقاً أبي ! بل أنت إله تنزل من السماء ليعبث بي ، وليزيدني شقوة وأشجاناً ! أي بشر يستطيع أن يصنع ما صنعت ، وكنت منذ لحظة عجوزاً محدودب الظهر مجعد الوجه غائر العينين ، تلوح في مِزَقٍ وأسمال ، ثم تخرج هنيهة وتعود في هذا البدن الفينان وذاك المظهر الفتان الذي لا يكون إلا للآلهة ؟ فقال أبوه : « أي بني أنا أودسيوس ، ولن يرجع إليك أودسيوس آخر سواي ! اطمئن فقد صنعت مينرفا ما رأيت بأبيك ، وما صنعته أنا بنفسي إنها ربة ولها القدرة على كل شيء ، ففي وسعها أن تظهر من تشاء في صور شتى ، وليس هذا

على أثينا بعزيز » وأحس تلماك ما كان يشيع فى كلمات أبيه من حرارة وإخلاص لا يصدران إلا عن قلب أب ، فانطلق يبادل والده عناقاً بعناق ، ودمعاً بدمع ، وقبلات بقبلات ! ثم سأله كيف عاد إلى الوطن بعد كل تلك السنين الطوال ، فقص عليه قصته ثم قال له : « ولكن حدثنى أنت عن أمر أولئك العشاق الأوغاد ما عددهم ، وهل نستطيع كلانا أن نقف لهم فنظفر بهم ؟ » فأجاب تلماك : « أبتاه ! لقد سمعت الثناء على شجاعتك وسعة حيلتك وجليل حكمتك فى كل ملحمة وبكل نقع ... ثناء يلهج به فم الدنيا جميعاً ! بيد أنه ينبغى ألا نجازف هذه المجازفة التى لا نعرف ما ذا وراءها ... إذ ماذا يصنع اثنان بعشرين ومائة من خيرة صناديد إيثاكا وما حولها ؟ الرأى أن نفكر فى أنصار يشدون أزرنا ويكونون عوناً لنا » فقال أودسيوس وهو يبتسم : « وما قولك يابنى فى اثنين الله — جوف العلى — ثالثهما ، ومينرفا نصيرتهما على القوم الظالمين ؟ أإذا كان هذان معنا ، أفنحتاج إلى عون آخر ؟ » فقال تلماك « بلى ... تعالى چوف وجلت مينرفا ... إن لها لأيدياً فوق أيدى الناس لأنهما يحكمان من فوق عرشهما المرد فوق السحاب ، فى الأرض وفى السماء على السواء . » وقال أبوه يزيده طمأنينة : « وسيكونان معنا فى الحلبة حين يجد جدها ... فإذا كان الصباح فاذهب إلى القصر واختلط بالعشاق وسيقودنى راعينا الأمين إلى هنالك ، متنكراً فى صورة الشحاذ الفقير الذى رأيت ، فإذا فرطوا علىّ فلا تأس ، حتى ولو كان فرطهم بالضرب والسباب ... ويسرنى أن تحتمل وتصطبر ، فإذا زادوا فاصرف عنى أذاهم

بكلمة طيبة حتى يحكم الله بينى و بينهم حين يحين حينهم ... واحذر أن تخبر أحداً بعودتى حتى ولا أبى ... بل على الأخص أمك بنلوپ أو هذا الراعى يومايوس ... إذ ينبغى أن نستعين على أمرنا بالكتمان حتى نعرف أصدقاءنا ونختبر أعداءنا ! » وطمأنه تلياك وأكد له كل شىء ... ثم وصل يومايوس إلى بنلوب فأخبرها بعودة تلياك ، وذاع النبأ بين العشاق فذعروا ، لفشل مؤامرتهم ضده ، وانتشروا خارج القصر ، واعتزموا أن يبعثوا نفراً منهم بهذا النبأ إلى الطغمة التى ذهبت تتربص بالفتى لتغتاله إذ هو عائد من بيلوس ... ثم اجتمعوا يمكرون السيئات ، و يدبرون قتل تلياك حين تتيح فرصة أخرى . وكان ميدون قريباً منهم فاسترق سمعهم وطار به إلى بنلوپ التى هالها ما مكروا وما دبروا ، فذهبت فى جميع وصيفاتها إلى رحبة القصر ، حيث اجتمع أعداؤها إلى شياطينهم ، فصاحت بزعيمهم أنطونيوس من وراء حجابها قائلة : « أنطونيوس تبت يداك يا ألأم الناس ! أنت يا من يدعونك التقى الصالح وأنت أسفل مما يظنون طوية وأخبث سريرة ! كيف حدثتك نفسك بهذا التدبير السيء فترسم لأشرارك قتل ولدى الذى لم يعد لى فى الحياة رجاء غيره ؟ ألِأنه ضعيف بنفسه ؟ ألا فاعلم أنه قوى بالله الذى ينتقم لعباده من الظالمين ! أيها اللئيم ، أبمثل هذا تجزى جميل أودسيوس الذى حال مرة بين أبيك و بين أعدائه معرضاً بنفسه للتهلكة ، ولولاه لظفروا به ، ولولا أن قتل منهم من قتل وصرع من صرع لعجلت روحه إلى نيران هيدز و بئس القرار ؟ أفلم يكفك ما تأكل بغير حق من زاده ، وتعبث غير عابىء بعتاده ، فترسم

لأشرارك غيلة ابنه ؟ » وانبرى يوريماخوس يهدىء من ثورتها ويطمئنها أن أحداً من العالمين لا يستطيع أن ينال تليماك بأذى ما دام هو حياً يدب على قدمين ... وكان يتكلم رغم ما كان ينطوى عليه قلبه ... لأنه كان من أكبر المتآمرين على حياة ابنها العزيز الحبيب ... ! وبعد أن توارت أورورا عاد الراعى إلى حظائره يدب على عكازه ؛ وكانت مينرفا قد لمست أودسيوس بعصاها السحرية فعاد إلى صورة الفقير الشحاذ وعادت إليه مزقه وأسماله ، ووجد سيده وضيفه الفقير يعدان عشاءهما. ولما لمحه تليماك قال له : « ما وراءك يا يومايوس الصالح ؟ أعلمت عن الطغمة التى استأنت فى ساموس تتربص بى شيئاً ! » فأجابه الراعى : « تالله لا علم لى بشىء يا مولاى ، فأنا لم أنتظر طويلا فى المدينة لأتسقط الأنباء ، لأنك أمرتنى أن أرتد على عجل ؛ بيد أننى لمحت مركبا يطوى البحر إذ أنا عائد ، ويدخل المرفأ ، وفيه من العدة والعدد ما يبهر النظر ويخطف البصر ، وأحسب أنهم هم الأمراء الذين تعنى ، غير أننى لا أجزم بهذا » .

ونظر تليماك إلى والده مبتسما ، محاذراً أن ينتبه الراعى إلى شىء .

* * *

أوديسيوس فى قصره

ونضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، وخضبته بالشفق ، فهب تليماخوس من نومه الهانىء الهادىء الموشى بالأحلام ، فلبس وانتعل ،

واخترط سيفه ثم قال لراعيه : « أيها الأب الصديق ، إنى متوجه إلى المدينة لألقى أمى ، فأكبر الظن أنها لن يرقأ لها دمع ولن تخفت لها آهة حتى ترانى ... أما هذا اللاجىء ... فرأيى أن ينطلق إلى المدينة فليسأل الناس وليطرق الأبواب ، ولن يعدم إذا تكففهم أن ينال رزقه و يحصل على لقمات يتبلغ بها ... إن لدى من المتاعب والمشاق ما يشغلنى عن كل جوّاب آفاق ... إمض به إلى المدينة إذن ؛ فإذا آلمه هذا ، فهو حر ... إنى رجل لا أعبأ أن أقول الحق ! » فنهض أودسيوس ليقول : « سيدى ! إنى لم أبغ أن أتلبث هنا ، فليس لشحاذ فقير مثلى أن يلتمس رزقه فى الحقول والغيطان ! بل إنى منطلق إلى المدينة ولست مقعداً أو ضعفاناً فلا أقوى على عمل يؤجرنى عليه أحد أمرائها ... تفضل أنت فاذهب لطيتك ، وسأمضى أنا مع خادمك حين تمتع الشمس قليلا ، فأنا كما ترى رجل شيخ ، وأخشى أن يقتلنى برد الصباح وصقيعه ، وليس ما يحفظنى منهما إلا ما ترى من مزق مضى أصلها و بقى رقعها ! » ... وانطلق تلماك فبلغ القصر ، ولقى أول من لقى مرضعه يوريكليا ، حيث كانت وأترابها ينشرن فراء على كراسى وحمالات مبعثرة فى الردهة ... فلما رأته عجلت إليه ورحبت به وسلمت عليه ، وانطلقت الدموع من عينيها فانعقد لسانها واحتبس منطقهـا ، ثم اجتمع الجوارى يقبلن تلماك و يحدقن به حتى لفتن نظر الأم المعذبة المحزونة المطلة من إحدى شرفات القصر ، فأهرعت من عل وأخذت فى حضنها المحب الرحيم أعز الأبناء ، وأمطرت جبينه وخديه بالدموع والقبل ، ثم جعلت تقول له : « أوقد عدت إلى الوطن يا نور

عيني ! تلياك ! تالله لقد وقر في قلبي أنني لن أراك بعد إذا أبحرت إلى بيلوس برغمي ، وعلى غير علم مني ، لتتسقط أنباء أبيك ... ولكن ... حدثني يا بني ماذا عساك سمعت . » فقال الفتى : « أماه ! لم تعودين بذاكرتي إلى عبوس الحياة وقد أفلتُّ من الموت ؟ أولى لك ثم أولى أن تصفي عليك من أفخر أثوابك ، ثم تصلي للآلهة أن تهيىء لنا يوم انتقام عادل لا يبقي ولا يذر ! ! بيد أنه ينبغي أن أذهب الآن لآتي ضيفاً كريماً عزيزاً جداً علي — عزيزاً جداً علي يا أماه ! — حضر معي في سفينتي أمس ، وقد أرسلته مع من يضيفه عني حتى أعود فأضيفه أنا نفسي » وذهبت بنلوب فصلت طويلا للآلهة ، وانطلق تلياك فلقي تيوكامنوس وعاد معه إلى القصر ، وجلسا يتحدثان ، بينا أحضر أحد الخدم مائدة حافلة بألوان الطعام وأطيب صنوف الشراب ، فوضعها أمامهما ... وأقبلت بنلوب فجلست لدى الباب تنسج ثوبها الذي لا ينتهي فلما فرغا من طعامهما أقبلت فقالت تخاطب تلياخوس : « يبدو لي أنك لن تقص علي الآن ما سمعت من أنباء أبيك يا تلياخوس ، وأوثر إذن أن أصعد فأضطجع في فراشي الذي أبلله دائماً بدموعي منذ فارق أودسيوس ، فإذا انصرف الأوغاد المعاميد وفرغت من شغلك بهم فاحضر إلي لتقص علي من أنبائه . » ولكن تلياك قال : « أماه ! لم لا أقص عليك ما سمعت وما سافرت إلا لأطمئنك وأطمئن نفسي ؟ لقد سافرت إلى بيلوس وحظيت بلقاء نسطور الذي هش لي وبش وفرح بي كأنما أنا ابنه الذي افتقده طويلا وعاد فجأة إليه ؛ غير أنه لم يذكر لي عن أبي قليلا

أو كثيراً لعدم علمه بشيء من أنبائه ، ولذلك بعثني مع واحد من أبنائه إلى ملك أسبرطه لأسأله عن أبي ... وقد لقيني منلوس فأحسن لقائي وأكرم مثواى ، ورأيت زوجه هيلين الحُسَّان المفتان التي شبت بسببها حروب طروادة ، والتي لقي من أجلها أبطال الإغريق أنكى ألوان العذاب ... ولما سألني الملك فيم قدمت ، نبأته بأنباء العشاق المعاميد ، ووصفت له ما يجرون على بيت أبي من الخراب ، فأرغى وأزبد ولعنهم أشد اللعن ، وتوسل إلى الآلهة أن ترد إليهم أودسيوس فيبطش بهم ، ويعيد إليهم صوابهم ، ثم قص على ما سمعه من أحد أرباب الماء — پروتيوس — الذى أخبره أن أبي لا يزال حياً يرزق فى إحدى الجزر النائية ، وأن عروساً من عرائس الماء تحجزه عندها فى تلك الجزيرة برغمه ، لأنها تحبه وتهواه ، وأنه لايجد سفينة يثوب عليها إلى الوطن . . هذا يا أماه كل ماعلمته عن أبي من الملك منلوس ، وقد أذن لى فى العودة فأُبت فى رعاية السماء وحفظ الآلهة » . وكانت پنلوب تصغى وثورة من الحزن تجتاح نفسها ، ولظى من الوجد يفتك بقلبها . فلما فرغ تليماك ، التفت تيوكليمنوس المتنبي إلى السيدة الرؤوم فقال : « يازوج أودسيوس أعيريني سمعك ! إصغى إلى فسأتنبأ لك ! إن ابنك هذا لم يسمع عن أبيه أى نبأ يقين ... أما أنا ، فقد بدت لى أمارات وشهدت فى السماء علامات ... ومحال أن تكذب علامات السماء .. أقسم لك بجوف العلى رب الأرباب ، وأقسم بهذا البيت بيت أودسيوس ، أن زوجك هنا ، وفى إيثاكا ... وهو يعلم كل صغيرة وكبيرة من أنباء العشاق وخباثاتهم ،

و إنه ليدبر لهم عقاباً هائلا لن يفلت أحداً منهم ! ! » وسكت المتنبي ...
وأقبل العشاق من لعمهم فخلعوا عباءاتهم ، ثم نشطوا إلى الشاء والخنازير فجزروا لطعامهم ...

هذا ما كان من أمر تليماك وأمه ، وما كان من أمر العشاق . أما ما كان من أمر أودسيوس فقد مضى فى الطريق إلى المدينة بخطى متعثرة والراعي بين يديه ، وعلى كاهله حقيبته ، وفى يده عكازه ، وكلما لقيهما أحد صعّر خده ، وشمخ بأنفه ، تقززا من منظر هذا الشحاذ الفقير القذر .. ثم أتيا إلى نبع يتفجر فى الطريق فيستقى الناس منه ، وقد بسقت من حوله أشجار الحور والسنديان ، وترقرق الماء فوق الحصباء كاللجين يتدحرج من حيد أكمة هناك ، أقام الصالحون فوقها مذبحاً لعرائس الغاب حيث يتقدم الناس بنذورهم ويعقرون إضحياتهم ... وقد لقيا هناك راعى ماعز الملك — ملانتيوس — يسوق قطيعاً من أسمن ما يرعى لأجل ولائم العشاق ... ولقد كان ملانتيوس هذا من أذنابهم ومتملقيهم . وكان يصنع كل ما يحببه إليهم ويضمن له عطفهم ، فلما رأى الفقيرين وأحدهما زميل له ، انطلق يهوى ويصخب ، ويسب ويسخر ، ويغمز الرجلين غمزاً شديداً موجعاً ، حتى غلى الدم فى رأس أودسيوس : « إنشَملا أيهذان المسخان ! طاعون يجتاحك يا راعى الخنازير القذر ! حقاً إن الطيور على أشكالها تقع ! كلب يقود آخر ... إلى أين ؟ إلى حيث يلتقط فتات موائدنا ! عجباً ؟ ألا تطلقه معى إلى المزارع ينظف الزرائب ويحمل العلف ويحرس الغلة ويشرب ما شاء من اللبن الحازر[1] والمخيض ،

(١) شديد الحموضة والمخيض الذى استخرجت زبدته .

ويكسو عظامه المعروقة بإهاب من اللحم ؟ ! ولـكن هيهات ! فقد بلدت طباعه فلا يصلح لعمل شريف ! » . وهكذا ظل الراعي الشرير يتقيء من هذا البذاء ، وركل أودسيوس آخر الأمر ركلة قوية فى ساقه ، فلولا ما حرص الملك عليه من كتمان أمره لحطمه بسببها ، ولمسح به ظاهر الأرض ! ولقد هاج هائج يومايوس فدعا آلهته لتنتقم لرفيقه الضعيف وطفق يقول : « يا عرائس هـذا النبع المقدس اسمعى بحق ما عقر لك أودسيوس وباسم ما ضحى أن ترديه إلى بلاده لينتقم من أمثال هذا الوغد الزنيم الذى لا يحسن إلا أن يملق أعداء مولاه ، و إلا أن يغشى رحابهم ، بينما قطعانه سائمة فى المرج لا راعى لها ولا حفيظ ! » فصاح الراعى الوقح : « هاه ! أجيبى يا عرائس دعاء كلبك الأمين ؟ أواه لو أستطيع أن أحملك فى فلك أحد هؤلاء السادة فأبيعك بيع الرقيق فى بلد سحيق ! أودسيوس ماذا أيها البهيم ! لقد أودى أودسيوس ولن يعود إلى الحياة قط . و يودى لو لحق به ابنه تليماك ! ! » ... قالها ... وانطلق حتى بلغ القصر وغشى مجلس العشاق يطرفهم بما حدث له مع راعى الخنازير ... أما أودسيوس وأمينه فقد سارا رويداً حتى أتيا بوابة القصر فتلبثا عندها ... وتنـاول أودسيوس يد الراعى وقال : « يومايوس ! لاريب أن هذه سراى الملك ، أنظر ! ها هى ذى الحجرات يتـلو بعضها بعضاً ، وهاك الرحبة الـكبرى ذات العماد وذات الأبواب ... وإنى أحدس أن هناك أضيافاً اجتمعوا لوليمة ، وهذا قتار اللحم يملأ خياشيمى ، وإرنان القيثار يجلجل فى أذنى » فقال يومايوس يجيبه : « أنت ذكى شديد الذكاء ! إنه هو المكان بعينه

والآن ، هل تذهب أنت وحـدك فتستعرض الأمراء وتعود ، أم تنتظر حتى أذهب أنا فأخطف نظرة إليهم ؟ على أنك يجب ألا تتلبث هنا طويلا فقد يراك بعضهم فيؤذيك ويطردك من هنا شر طردة » وقال أودسيوس « بل انطلق أنت وإني منتظرك هنا ، فإذا لـكمنى أحـد أو لـكزنى أو ركلنى ، فلشد ما احتمل هذا وذاك ، وهل هو إلا بعض ما احتملت فى حروبى الطويلة ؟ » وبينا هما يتحدثان ، إذا كلب كبير رابض يقف فجأة فيبصبص بذنبه وينصب أذنيه ، ويحدق بصره فى أودسيوس ، ويظل مسحوراً ذاهلا ! ! آه ! إنه الكلب العزيز آرجوس الذى رباه الملك قبل أن يرحل إلي طروادة ... لقد أهمل أمره ، فهو رابض هكذا فى حمأة من الروث والقذر والقمل أمام بوابة القصر ، كالشاعر العجوز الذى يجترّ ذكرياته ! ! لقد عرف صوت مولاه برغم السنين الطوال ، فبكي ، وهر ، وأرسل الدموع حراراً تسقى صدغيه ! وقد تأججت فى قلبه الحيوانى ثورة من الحزن الطارىء المفاجىء فلم يقو أن يزحف ليمسح بلسانه قدمى مولاه ... وقد لحظ أودسيوس ما أصاب كلبه العزيز فبكى هو الآخر تأثراً ، وسجل هذه الآية من الوفاء للحيوان على الإنسان ! وأشاح بوجهه عن الراعى حتى لا يدرك ما بعينيه من دموع . فلما مسحها بكمه قال يحدث يومايوس : « أليس عجيباً ومؤلما معا يا صديقى أن يتركوا هذا الـكلب الذى تبدو عليه سيماء النبل فوق هذه الـكومة من الروث قد يكون أقعده الضعف عن متابعة الصيد وقد يكون إبقاؤهم عليـه من أجل منظره وحسن سمته !؟ » فأجابه الراعى : « أوه ، بلى أيها الرفيق !

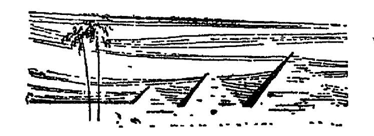
أما والله لو شهدته فى إثر مولاه أودسيوس لعجبت لعظم قوته وشـــدة جبروته ! أبداً لم يخلق الله وقتئذ كلباً أتبع لصيد ، أو أقوى حاسة شم منه وأبداً لم يكن عندنا كلب كآرجس هذا الرابض يساقط نفسه أنفساً ! ! إنه يبكى مولاه الذى قضى وتركه من ورائه لإهمال الوصيفات وقـلة اكتراثهن ...أما عبيد هذا القصر فهم كالوصيفات حذوك النعل بالنعل ، فهم لا ينشطون لعمل كما ينشطون وسيدهم بينهم ، ثم هم قد فقدوا بالعبودية وذلة الرق نصف آدميتهم ورجولتهم ! ! » ثم مضى أودسيوس نحو صديقه وخدن صباه ، فبكى وذرف دموعه ، وكذلك فعل الـكلب ... حتى مات ... ولـكن بعد أن رأى سيده تارة أخرى ! !

ولمح تلياك راعيه فأومأ إليه ، وأخذه جانباً ، ثم أمده بنصيب جزيل من طعام الوليمة ... وبعد لحظات أقمل أودسيوس فى صورة الشحاذ الفقير ، وجلس على الأرض . فأرسل إليه ولده شيئاً من اللحم والخبز مع يومايوس ، وأسر إليه أن يرسله بين الأمراء يتكفف ، وبالأحرى ليتعرف؛ فلما فرغ من طعامه نهض فسار بينهم يسأل هذا ويحدق فيه ، وينصرف إلى ذاك ويحدجه ، ويمد يده من أجل لقمة كما يصنع الشحاذون ، وقد رثى له كثيرون فأمدوه بلقات ومضغ من اللحم ، إلا أنطونيوس ، فقد استهزأ به وبمن أحسن من الأمراء إليه ، وعيرهم بأنهم يتصدقون بما ليس لهم ، ثم هاج وماج ، ورفع كرسياً وشك أن يحطم به رأس أودسيوس ، وأمره أن ينصرف فلا يعكر عليهم صفوهم أكثر مما فعل !! ولـكن الـكرسى صدع كتف الملك ، وأعفى رأسه ، ووقف أودسيوس كالصخرة

لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة ... ولكن ألف ألف فكرة سوداء كانت تكظ فؤاده وتزحم تفكيره ... ثم مضى فجلس حيث كان من قبل ، وهتف بالعشاق فى صوت جهورى فقال : « سادتى الأمراء اسمعوا ! تالله لو أنها ضربة فى حرب بين كفئين لما حملت لها موجدة فى نفسى ... ولكن أنطونيوس رأى من سلطان الجوع والضعف ما جرّأه وأثار نحيزته ... وأنا مع ذاك أترك جزاءه لله ، وأضرع إليه جل ثناؤه أن يقبضه قبل أن تزف إليه عرسه ! » وكأنما خجل العشاق مما فعل أنطونيوس فجعلوا يلومونه ويتلاومون فيما بينهم . قال قائلهم : « من يدرى ؟ ألا يحتمل أن يكون أحد آلهة السماء جاء ليبلونا ... والويل لك يا أنطونيوس إذا صدق حدْسنا ... ألا تعلم أنهم طالما يتنزلون فيغشون مدننا فى صور الشحاذين ليروا بأعينهم ما نأفك وما نمين ؟ » ولم يبال بهم ولم يأبه لما قالوا ... وكان تلماخوس يتميز من الغيظ ، ويُسر فى نفسه أوجع الألم لما نال أباه من الضرب ، بيد أنه غلب غضبه ، وحبسه فى أعماقه ، كما حبس فى عينيه وابلا من الدموع ... وكانت بنلوپ تطلع من شرفتها وترى ما حل بالرجل من إيذاء ، فهتفت بيومايوس أن يرسله إليها كيما تسأله عن أودسيوس ، لما يبدو عليه من أثر السفر وجوب الآفاق . قال الراعى : « أجل يا مولاتى ، إنه رجل من كريت ، وقد خاض ألف مكروه قبل أن تحمله الصدفة إلى بلادنا ؛ ثم هو محدث ساحر الحديث طلى الرواية ، حتى ليخلب سمع من يصغى إليه بأشد مما يستطيع منشد مطرب أن يفعل !

وكلما طال حديثه لذت طلاوته ، وكثرت حلاوته ، فلا تمله أذنان ، ولا يضيق به مصغ إليه ... وأعجب ما ذكره مرة لى أنه رأى أودسيوس وعرفه فى أپيروس ... بل يزيد فيؤكد أن مولاى عائد أدراجه إلينا ، حاملا معه كنوزاً من الذهب ، وأذخاراً لم تر العين مثلها ولم تخطر على قلب بشر ! ! » فتنهدت بنلوپ وقالت : « انطلق إذن فأحضره ، ودعه يحدثنى بما روى وجهاً لوجه ، وسأهبه صداراً ودثاراً إذا توسمت فى قوله الحق ، وآنست فى روايته الصدق » .

وادعى أودسيوس أنه يخشى أن يجوز وسط الأمراء مرة أخرى ، وفضّل أن يلقى الملكة فيتحدث إليها إذا جَنّ الليل بجانب المدفأ ... ووافقت الملكة ، وصوّبت رأى الرجل ؛ وكان الوقت أصيلا فقصد الراعى إلى تلماك وأستأذنه فى الانصراف إلى حظائره ، فأذن له ، ولكن بعد أن أمره بالتزود لعشائه ، ففعل يومايوس ، ثم مضى ليسهر على خنازيره.



أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ

وبينما كان أودسيوس جالساً يزدرد طعامه ، إذا شحاذ ضخم الجسم شائه المنظر يدخل فجأة ، فيلتفت إليه جمهور العشاق . ويعرفون فيه الفقير إيروس ، المشهور بنهمه الذى لا يوصف ، وبإقباله الشديد على أردأ ألوان الشراب ... وكانت له عليهم دالة ، وليس فى الجزيرة كلها من يجهله ... فلما لمح أودسيوس جالساً يتبلغ بلقماته ، نظر إليه نظرات المغيظ المحنق وقال له : « انحرف عن الباب أيها العجوز القذر وإلا جررتك من عقبيك ... ولو أننى أترفع عن مقارعة أمثالك !! » وحدجه أودسيوس وقال : « أيها الصديق إنى ما آذيتك ، وإن فى المكان متسعاً لكلينا ... أرجو ألا تثيرنى أكثر مما فعلت وإلا فلا يغرنك هرمى وتقدم سنى ، فتالله لأرينك كيف أضربك ضرباً تقول منه الهامةُ اسقونى ! إجنح للسلم هو خير لك ! وأصغ إلى نصحي ، وإلا فلن تدخل قصر الملك أودسيوس بعد اليوم ... ! » وغيظ الشحاذ إيروس وقال : « اسمعوا ماذا يهرف هذا الشره المخرف ! ألا ما أشبهه بزوجة حمقاء تثرثر أمام كانون ! تالله ليخيل إلىّ أن أنقض عليه فأنقض ثناياه ! هلم أيها الرجل ! استعد للقاء ، وليشهد السادة كيف أمثل بك ؟ » وقهقه أنطونيوس وقال : « أيها الأصدقاء اشهدوا ! إن إيروس يتحدى هذا الفقير ، والفقير بدوره يتحداه ، فهلم نجعل حولها حلقة لنرى إلى هذا العراك المضحك ! » وسكت

أنطونيوس ، وتكبكب الأمراء حول الرجلين ضاحكين عابثين ، ثم التفت إليهما أنطونيوس وقال : « إسمعا إذن ؛ ههنا كعكات ليس أجود منها ... وإنها خالصة لمن يتفوق منكما على قِرنه ... ولمن فاز أجر عندنا عظيم ... إنه سيجلس معنا فى جميع ولائمنا منذ غد ، ولن ندع أحداً من الشحاذين يضايقنا بعد هذا اليوم » وتخابث أودسيوس وقال: «ياسادة ! من الظلم أن يتبارى رجل عجوز ضعيف مثلى مع هذا الهولة ... ولـكن الجوع يدفعنى إلى البطش به مع ذاك ... بيد أن لى رجاء ألا يساعده أحد على ، فيلكمنى مثلا أو يلكزنى حيما أكون مشغولا به » فقاسموه ألا يفعلوا . وتقدم تليماخوس ابنه فقال : « أيها الرجل ، إذا وسعك أن تناضل هـذا الزميل فلن تخشى من هؤلاء رهقاً ... إنى أنا مضيفك ، وليس أحب إلى أنطونيوس ويوريماخوس من أن يشهدا هذا اللقاء الفذ بينكما ! » ثم إن أودسيوس شمر عن ساعديه وفخذيه ، وكشف قليلا عن صدره ، عامداً ليظهر الأمراء على عضله المكتنز وقوته الخارقة ... وقد صدق حدسه ، فقد بهت العشاق ونظر بعضهم إلى بعض يقولون : «واعجباً ! أى عضل وأى ساعدين وفخذين يخفى هذا الرجل تحت أسماله ومِزَقه البالية ؟ مسكين إيروس ! ماذا يبقى منه بعد هذا اللقاء ؟ ! » أما إيروس فقد انتفض واقشعرّ بدنه مما عراه من الذعر ، ولـكن الخدم لم يتركوا له أن يفر من اللقاء الذى دعا هو إليه ، بل شمروا له عن ساعديه وفخذيه كما فعل غريمه ، ثم جروه إلى الحلقة برغمه ... وود أودسيوس أن يبطش بالرجل فيحطمه بأول لكمة ؛ غير أنه آثر ألا يفعل خشية أن يكتشف

العشاق من هو ... فلما امتدت الأيدى تصنع الدفاع ، وأقبل وأدبر ، وكر وفر ، ثم أهوى على أذن الرجل بضربة سحقت عظامه ، وطرحته على الأرض ... ولبث المسكين لا يبدى حراكا من هول ما حل به ؛ بيد أن أودسيوس جره من عقبيه إلى ساحة القصر ، ثم عرج به نحو جدار كبير حيث سنده إليه ، وجعل فى يده عكازه وقال : « إلبث هنا ولا تغش منازل الملوك بعد ، وذد بعصاك الخنازير السائبة ، فذلك خير من أن تصيب بها الغرباء أمثالى ... فإن عدت إلى مثل حماقتك فلن يصيبك إلا شر مما رأيت ! » وتركه وانثنى إلى حيث كان ، فوجد العشاق يضحكون حتى كاد يقتلهم الضحك ... وهتفوا له ثم قالوا : « حقق الله آمالك ، وأنالك أمانيك أيها الغريب اللاجئ ، بما خلصتنا من هذا الشحاذ النهم الملحاح ! » وسمع أودسيوس دعاءهم ، وابتهل إلى الآلهة أن تستجيب !! ثم وضع بين يديه أنطونيوس كعكة كبيرة ، وزوده أمفينوموس بخبز وخمر صبها له فى كأس كبيرة من ذهب ، ودعا له بخير . وآنس فيه أودسيوس طيبة ودماثة خلق فقال له : « هيه ! هلم أيها العزيز أمحضك نصيحتى وأحدثك عن تجاريبى ... ألا ما أضعف الإنسان ! إنه إذا ما مسه ضر دعا الله فإذا كشف عنه الضر فهو مقتصد ناء بجانبه كأن لم يمسسه ضر ... وأنا مثلا ، لقد كنت فى عنفوان صباى أعيث فى الأرض مغتراً بقوتى وفتوتى ، حتى أسقط الكبر فى يدى فَفِئْتُ إلى أمر السماء ، ولكن بعد أن كتب علىّ الشقاء ، وهكذا أولئك الأمراء الذين غرتهم الأمانى وأضلهم جبروتهم فأقاموا بهذا القصر غارّين آمنين لا يظنون أن له صاحباً قد يفجأهم بعودته

فيستأصل شأفتهم ويذهب بريحهم ... وإنى والله أيها السيد لأرى أنه عائد ليس من هذا بد ، وأنه عائد قريباً ؛ فتقبل أنت نصيحتى ولا تقم معهم ، بل انطلق إلى بيتك وأهلك ولا تستأنِ حتى يدهمك معهم فيحطمنكم أجمعين ... » وشرب أودسيوس ، ودفع الكأس إلى الأمير الشاب الذى بدت عليه أمارات الهمّ مما قال الرجل ، ولكن .. وا أسفاه ! لقد كتب عليه الشقاء ، فلم يصغ لنصيحة أودسيوس .

وبدا لبنلوب أن تذهب فى بعض وصيفاتها فتخطر بين العشاق ليروها ، ولترى ماذا يكون ... وقبل أن تفعل ألقت عليها مينرفا نعاساً وأمَنة ، وبدت لها فى الرؤيا كأنما تعطيها هى عجيبة ؛ ثم إن الربة أضفت عليها رواء كرواء الآلهة ، ونضرتها بنضرة الشباب والجمال ، فربا جسمها واستطال ، وزانته لمعة عاجية وسناء ... ولما هبت من نومها ، مرست عينيها متعجبة ، وشدهتها تلك الغفوة الطارئة التى جلبت لها السعادة فى دنيا من الهموم ... وتمنت لو أراحها الموت من حياة اتصلت أشجانها وباعدت بينها وبين إلفها بمفاوز من الآلام والأحزان ... وانطلقت فى سرب من وصيفاتها فأشرفت على العشاق وقد ضربت بخمارها الشف على وجهها المتألق الناصع ، فذهل الملأ ، وراغت أبصارهم ، وأحسوا أن شيئاً يخلع قلوبهم ، فما منهم إلا مَنْ تمنى أن يكون صاحب هذا الجمال الرائع والحسن الباهر ، والفتنة المتقدة ... ونهض يوريماخوس فقال يخاطبها : « يا إبنة إيكاروس بوركت ! تالله لو رآك كل من فى هيلاس لاجتمعت حولك قلوب غيرنا من العاشقين ، ولأقبلوا من كل فج فازدحموا

حولك ههنا ... فى ذلك القصر العتيد !» فقالت بنلوب : « يوريماخوس ! تالله لقد ذهب الآلهة بجمالى الذى تصف يوم رحل عنى زوجى أودسيوس فيمن رحل إلى طروادة ... وما أنس لا أنس ما قال لى وهو قابض على يمينى يودعنى : « زوجتى ! إن أكثر من ترين من هذا الجيش لن يعودوا إلى ديارهم ... فنى طروادة محاربون صناديد ، وملاعبو أسنة لا يشق لهم غبار ، وذادة ورماة ! وإنى لا أدرى ماذا يكون من أمرى هنالك ، ولذا ، أكل إليك كل ما أودع ورائى ، وإنى موصيك أول ما أوصيك بأبى وأمى ، فاعنى بهما كأحسن ما كنت تعنين وولدهما معك ، فإذا شب ولدى وترعرع ، فلك أن تتركى هذا القصر إن شئت ، وتتزوجى ممن تختارين من الأكفاء الأنداد » هذا وإنى أرى أن هذا اليوم العصيب قد حان ! ولكن وا أسفاه ! إنكم اجتمعتم هنا لتأكلوا وتشربوا وتعيثوا وتعبثوا بكل ما ترك صاحب القصر ... وكنت أظنكم تقيمون فى منازلكم وترسلون إلى هداياكم لتكبروا عندى ولا تهزل مكانتكم لدى ... ألا ساء ما تزرون » .

وتبسم أوديسيوس من قولها ، ووثق من إخلاصها ، وعجب من شدة ما سحرت ألباب العشاق ومما أخذتهم به من حزم ... أما أنطونيوس فقد أجابها بقوله : « أما هدايانا يا ابنة إيكاريوس فلا أحب إلينا من تقديمها إليك ... على أننا لن نريم عن هذا القصر حتى تختارى لنفسك بعلاً يكون كفئاً لك » وأيد العشاق ما قال قائلهم ، فنهضوا ليحضروا هداياهم ، وسرعان ما عادوا يحملونها ... وتقدموا بها إلى بنلوب ؛ فهذا

ثوب ثمين من قاقم موشى بالذهب تزينه اثنا عشر زراراً ذهبياً ... وهذا عِقْدٌ حُليت خرزاته بقطع من الكهرمان الحر؛ وتلك أساور من ذهب وشُنُوف كثيرة وأقراط(١) . وعادت بنلوب ومن خلفها وصيفاتها يحملن الهدايا واللهى ... وأخذ العشاق كدأبهم فى القصف واللهو والعبث والغناء ... حتى أقبل الليل ، فقدم الندامى بمجامر من نحاس بها وقود يشتعل ، وطفقن يلقين فيها من الند والرند والعودْ ذى العرف ، وطفق البْخور يعبق فى أرجاء البهو الكبير ... وهنا ... نهض أودسيوس وتوجه إلى البنات يقول : « أيها العذارى أولى بكن ثم أولى بكن أن تذهبن إلى سيدتكن فتسلينها وتواسينها ، وسأقوم بالنيابة عنكن على هذه النار حتى ينصرف العشاق ... ولن يئودنى أن أقوم عليها حتى مطلع الفجر ؛ ولن أضيق بجمعهم مهما عبثوا بى ، فأنا رجل ذو تجاريب » . فتضاحكن به ، وقالت ميلانثو التى هى أجملهن وأقلهن احتشاماً ، تعبث به : ماذا أصابك الليلة أيهذا النازح الغريب ؟ انطلق إلى حداد المدينة فنم فى دكانه ، فهو خير لك من أن تسهر هٰهنا وتثرثر ... هل غاب صوابك يا شيخ لأنك ظفرت بالشحاذ إيروس ؟ اربع عليك ، فقد تبتليك السماء بمن يبطش بك كما بطشت به ، ويطردك من هنا ! ؟ » ... ورشقها أودسيوس بعينه وقال : أسكتى يا هناه(٢) والله لأحدثن بما حدثت الأمير تلماخوس فليقطعن لسانك ، وليمزقن جسدك ! » . وذعر العذارى وولين هاربات ، وقام

---

(١) الشنوف والأقراط (الحلقان) لأذن المرأة .

(٢) الهناة الداهية .

أودسيوس على النار وجعل يلحظ العشاق وفى قلبه ضرام ، وما فتىء يفكر فى ألف خطة للانتقام منهم والبطش بهم ... ولم تشأ مينرفا أن تنهى هذا الشقاء الذى ضربته على أودسيوس ، بل تركته يستهزىء به العشاق ، ويسخر به يوريماخوس ، فيضحك العشاق إذ يقول : « ما أظن إلا أن الآلهة قد أرسلت إلينا هذا الرجل ليكون حامل مشاعلنا وحامى قبسنا ... أنظروا إلى رأسه النحاسى ، أليس يصلح أن يكون مشعالا يضىء لنا ؟ » ثم التفت إلى أودسيوس وهو يقول : « أإذا استأجرتك لتسوّج مزرعة لى بعيدة من هنا وتغرس بها أشجاراً ، على أن أطعمك وأكسوك وأنقدك مالا ، فإنك ترضى ؟ ولكن لا ... إنى لأظنك تنسرق منها طواعية لغرائزك وخَبث جِبلّتك فتنطلق إلى المــــدينة لتستجدى وتتكفف ... » .

وتخابث أوديسيوس وقال يجيبه : « يوريماخوس ! تالله إنه ليس أحب إليّ من إن أباريك فى فلاحةٍ فى يوم من أيام الربيع ، حين يطول النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ، على ألا يذوق أحدنا طعاماً ولا يسيغ شراباً .. أو أن يعهد إلى كل منـا بأربعة أفدنة فى أرض جَبوب ، وثورين حصيذين ذَوَى خوار ، فى ذلك اليوم ، لترى أينا يصمد لحرثه ويفلح أرضه ... بل إنى لأتمنى ، إذ نحن فى هـذه الأرض ، أن يدهمنا عدو بخيله ورجله ، وتكون لى درع سابغة ، وخوذة من من نحاس ، ورمح فى يدى ، لترى كيف لا يحول الجوع بينى و بين أقرانى ، وكيف أضرج بدمائهم الأرض ، وأتركهم فى البرية جَزَرَ السباع وكل

نسر قشعم ... أيها الأكمُ الوقح ... والله لو أن أودسيوس رب هـذا البيت قد فجأك الآن لضاقت عليك الأرض بما رحبت ... أنت أيها المغرور المتعاظل الذى غره أن يكون شجاعاً بين نَوْ كي لا حول لهم ! » .

وجُنَّ جنون يوريماخوس ، وأخذ مُتكأً ثقيلا وقذفه شطر أودسيوس ، ولكن البطل انفتل بعيداً وسقط المتكأ على الساق المسكين ، فخر إلى الأرض يئن ويتوجع ... وغيظ العُشاق أيما غيظ ؟ وعلا لغطهم ، وودوا لو يسحقون أودسيوس ، لولا أن تقدم تلماخوس وحال بينه و بينهم وهو يقول :

« يا سادة ! إنى كصاحب هذا القصر ، لا أستطيع أن أطرد الرجل منه بعد إذ آويته وضيَّفته ... والرأى أن تقطعوا سمركم هذا وتذهبوا من فوركم إلى منازلكم حتى يتصرم الليل » ... وأيده الأمير أمفينوس ، ووقفوا جميعاً فاحتسوا الكأس الأخيرة ثم انقلبوا إلى منازلهم ... وفى نفس يوريماخوس من الهم ما تنوء بحمله الجبال ...

المرضع العجوز تعرف أوديسيوس

وهكذا خلا الجو لأودسيوس وولده ، فقال ، يحدث تلماك : « أى بنى : ينبغى أن نخبئ أسلحة القوم فى مكان حريز ، فإذا سألوك عنها فقل لهم إنك تحفظها لهم حتى لا تتأثر بالدخان والغبار وتقلبات الجو . وامتثل تلماك ، ودعا المرضع العجوز يوريكليا فقال لها : أماه ليقرَّ الوصيفات فى مضاجعهن حتى أنقل أسلحة أبى إلى مكان حريز فقد تراكم عليها الوسخ وأتلفها الدخان » وقالت يوريكليا معجبة : « أجل يا بنى ، إنه ينبغى أن

تعنى بكل ما يتعلق بأبيك و بكل ماملـكت يداك ... ولكن قل لى ... من يحمل لك المصباح حتى تنقلها إلى حرزها ؟ ألا أدعوهن فيحملنه لك !». وشكرها تلماك ، وذكر لهـا أن الرجل الغريب سيحمله ، وأهرعت يوريكليا إلى داخل القصر ، وهب أودسيوس وولده يحملان الخوذ والدروع والرماح ، و بدت مينرفا الـكريمة تحمل بين أيديهما مصباحاً ذهبياً كان يشع سناء عجيباً ، ونوراً لم تقع عينا تلماك على مثله . فقال لأبيه وقد أخذه العجب « أبتاه ! ما هذا النور المنعكس على الجدران والعمد والقوائم والعوارض حتى ليكاد يجعلها تلتهب ! أبداً ما رأيت مثل هذا أبداً .. لا بد يا أبى أن إلـٰهاً معنا هنا ! » وقال أبوه : « أحزن عليك لسانك يا بنى ، واملأ قلبك بمـا ترى ، فإنه من نور السماء وهذا دَأْبُ الآلهة ... والآن ، لتصعد أنت فلتنم ملء عينيك كى تستريح ... أما أنا ، فباق هنا ، لأنه لا بد لى من أن أكلم أمك وخدمها » .

وانطلق تلماك إلى مخدعه ، وأقبلت بنلوب وأقبل فى إثرها سرب من خدمها فأعددن لها عرشاً ممرداً من ذهب وعاج استوت عليه وأسندت قدميها العاجيتين إلى متكأ جميل ، فبدت كإحدى الآلهة . وجلس أودسيوس على كرسى صغير بُثَّتْ عليه فروة غليظة ، ثم كلمته الملـكة فقالت : « والآن أيها الغريب الـكريم قص على من أنبائك وخبرنى من أنت ، ومن أى البلاد قدمت » فقال أودسيوس : « أيتها الملـكة تعالى جدك وصلح حالك .. إن لك فى العالمين لذكراً يعبق كالعطر ، واسماً كريماً ليس لملك عظيم يحكم أمة عظيمة بالعدل وتجزيه بالمحبة ...

إننى يا مولاتى رجل كرثه الزمان ، وعسفت به يد الحدثان ، فإذا سألتنى ما اسمي وما بلادى ، فإنك تثيرين فى أعماقى ذكريات عنيفة تدمى فؤادى ، وتفجر الدموع فى مآقىّ ، فأعفينى أيتها الملكة من ذكر ذلك ، فإنه ليحزننى أن أجلس بين يديك باكياً متصدعاً مهموماً ... » وبدا الألم على وجه بنلوب وقالت : « أواه أيها الغريب ما أقسى ما ذبلت حياتى وذوت زهرتى مذ رحل زوجى المحبوب إلى طروادة ، تاركا لى الهم ، ومخلفاً لى الحسرة ! ألا ما أقسى ما يحن قلبي إليه ، ولشد ما يخفق من أجله ! لقد أسلمنى بعاده لليل أليل من الآلام ، فما أدرى منذ فارق كيف أهش لضيف مسكين مثلك ، ولا كيف أبش لأحد من العالمين ... وهؤلاء الأمراء اللؤماء الذين تكبكبوا حولى يريدون ليرغمونى على اختيار أحدهم بعلا لى من دون أودسيوس لا أدرى كيف أذودهم ، ولا أعرف السبيل لدفع أذاهم ... لقد مكرت بهم طويلا ، ولكنهم مكروا بى السيئات ، فلا أدرى كيف أنقذ نفسى منهم ؛ وهذان أبواى يريداننى على هذا الزواج البغيض إلىّ ، وهذا ابني قد شب ، وهو يضيق بعشاقى ذرعاً ، وإن فى صدره حرجاً منهم لأنهم يهلكون ثروته ، ويعيثون فى قصره ، ويخوضون فى عرض أبيه ... ولكن ... حدثنى بأربابك من تكون ، ومن قومك ، وأى بلاء من الدهر شردك عن وطنك ... تكلم أيها العزيز ولا تحزن » . وأرسل أودسيوس آهة عميقة ثم تكلم فزخرف حديثاً طويلا مُوشّى ، ولفّق قصة حزينة متقنة ، وذكر للملكة أنه رجل مُعرَّزاً من جزيرة كريت كانت له نعمة وكانت له سعة من العيش ، وذكر

أبويه وأهله والحياة الواسعة المخفرجة التى كانا يحييانها ، ودكر أنه عرف أودسيوس أول ما عرفه حين غرقت به الفلك وقذفه الموج على الشاطئ الكريتى ، فهرول إليه وتلطف به وأخذه إلى داره حيث أكرم مثواه واحتفى به أبواه ... ولم يكد أودسيوس يفرغ من حديثه حتى ترقرقت الدموع فى عينى بنلوب ، وانطلقت تبكى على زوجها الذى لم تدر أنه جالس إليها يحدثها ويوشى لها أطراف الكلام . وتأثر هو من بكائها فكادت عيناه تفيضان بالدمع ، لولا أن ملك حاله ، وهيمن على عواطفه ، فحبس العبرات التى أوشكت تنهمل بأجفان من حديد ... ثم أرادت الملكة أن تمتحنه إن كان صادقاً فقالت : « وهل تذكر أيها العزيز ماذا كان يلبس يوم لقيته ؟ أتستطيع أن تصفه لى ، وتصف رفاقه الذين صحبوه فى هذه الرحلة المشئومة ؟ وتخابث أودسيوس فقال : « مولاتى ! ليس من اليسير على شيخ كبير مثلى أن يذكر أحداث ما قبل عشرين عاماً ... بيد أننى سأحاول أن أرسم لك الظلال الضئيلة التى لا تزال تنطبع من صورته فى رأسى ... أذكر يا مولاتى أنه كان يلتفع بثوب أرجوانى موشى بالذهب ، وقد رسم فيه بالذهب أيضاً كلب صيد معروق يحمل فى بِرْطيله[1] ظبياً مرقّطاً . وأذكر أننى رأيت قميصه ولمسته ، فلا أذكر أننى لمست فى حياتى أنعم ولا أرق ولا أثمن ... وكان يسعى بين يديه مشير أكبر منه جسماً وسناً ، ذو كتفين مستديرتين وبشرة سنجابية

(١) عن ثعلب عن ابن الأعرابى أنه فم الكلب أو شفته ولم يذكره صاحب القاموس .

وشعر مُفَلْفل ... وكان أودسيوس يوقره ويبجله أكثر مما كان يبجل سائر أصحابه »

وصمت أودسيوس ، وبكت بنلوب فاستخرطت فى البكاء ، ثم قالت : « لشد ما كنت أرثي لك أيها الغريب النازح الجوّاب ؛ أما الآن فإنى أحترمك وأعطف عليك ، بل أحبك ؛ تالله لقد صنعت له هذا الثوب بيدى ، وأنا التى وشيته بالذهب ! وا أسفاه عليك أودسيوس ! إنك لن تعود إلى يا حبيبى ! بُعْداً ليوم نزحت فيه عن وطنك إلى هذا البلد اللعين المشئوم ... طروادة ! » وهش أودسيوس وقال : « خفف عنك يامولاتى ، ولا تتلفى قلبك بطول هذا البكاء . ثم لماذا تيأسين من أوبته وقد سمعت عنه أخباراً سارة حين كنت فى أبيروس ؟ لقد مات عنه كل أصحابه ، ولقد غرقت سفينته فى أعماق اليم لغضب صبته الآلهة عليه ؛ بيد أنه نجا مع ذلك . وهو الآن سليم معافى يوشك أن يصل إلى إيثاكا بخير . وأنا لا أرسل ما أقول حديثاً ملفقاً ، بل أحلف عليه وأقسم بأغلظ الأيمان أنه سيصل إليكم فى عامكم هذا ... بل ربما كان بينكم قبل أن يتم القمر دورة هذا الشهر !! » . فتأوهت بنلوب وقالت : « ويك أيها الضيف ! تالله إن قلبى ليكذب ما تسمع أذناى ، وإنه لا يصدق أن صاحبى عائد يوماً إلى إيثاكا ... ولكن هلم ... إنى سآمر وصيفاتى فيغسلن قدميك ويعطينك ثياباً وكسوة ويهيئن لك فراشاً وثيراً هنا . فإذا كان الغد فستجلس مع تلمياك على مائدة الأمراء ولن يجسر أحـــد منهم أن يكلمك كلمة أو أن يمد يده إليك بأذى » وشكر لها أودسيوس

وقال : « مولاى لقد اعتدت أن ألتحف السماء إذا نمت ، وأن أفترش الغبراء ، ولن تمسنى وصيفاتك ، فقد يذعرن من خشونة قدمى ... ولكن إذا كان فيهن واحدة مخلصة شربت من كؤوس الزمان مثل ما شربت من محن وآلام ، فلا بأس أن تغسل لى قدمى ، على أن تكون عجوزاً حيزبوناً ! ؟ » . وسرت پنلوب وقالت تجيبه : « أبداً ما علمت أحزم منك ولا أوفر ذكاء وعقلا أيها الضيف الكريم . لك ما سألت ، فإن عندنا خادماً أمينة طاعنة فى السن كانت موكلة بمولاى أودسيوس إذ هو طفل تغسله وتسهر عليه ، وهى التى ستغسل لك قدميك ... يوريكليا ... يوريكليا ... أقبلى فاسهرى على هذا الرجل العجوز الذى له مثل سنك وتجاريبك ... إن له سحنة كسحنة أودسيوس وسيماء كسيمائه ... إغسلى قدميه وقدمى له كسوة تليق بضيف حل ببيتنا » وكأنما هاجت ذكرى أودسيوس شجون المرأة فترقرق الدمع فى عينيها الملوزتين وقالت : آه يا أودسيوس لشد ما ينزع فؤادى إليك ويخفق لذكراك ! تالله لم أر رجلا أخبت للآلهة كما أخبت وضحى لها كما ضحى ... ومع ذلك فقد ناموا جميعاً عنه فلم يتأذنوا برجوعه إلى وطنه ! ومن يدرى ؟ فقد يكون غريباً كهذا الغريب ، جواب آفاق فى بلاد نائية ، ومن يدرى ؟ فقد تكون نسوة تعبث به كما عبث نسوة هذا القصر بهذا الرجل ... هلم أيها الضيف الكريم ، لا أحب إلى من أن أغسل قدميك كما أمرت مولاتى ... أوه ! يا للعجب ؟ ! لماذا ينجذب إليك قلبى هكذا ! يا للآلهة ! ! أبداً ما رأيت من أضياف هذا البيت العتيق أشبه بأودسيوس منك صورة وصوتاً وخَطَراناً ... » .

وتأثر الملك وأنشأ يقول : « ربما يا أماه ! لقد قال مثل ما قلت كثيرون ممن رأونى ورأوا أودسيوس » وذهبت يوريكليا فأحضرت طَسًّا(١) به ماء وانتهز أودسيوس انشغالها عنه فابتعد عن الوقد ، لأنه ظن أن المرأة قد ترى الندوب التى بقدميه ، الباقية ثمة من عضة خنزير برى كان قد بطش به فى حداثته فتكشف ما حرص هو عليه من كتمان أمره ... بيد أنها لمست النَّدَبة (٢) الكبرى فى ساق سيدها إذ هى تغسلها ... وكانت الظنون قد ساورتها لما سمعت من صوته ، واستذكرت من صورته . فلما تحسست الندبة زاغ بصرها ، وحملقت فجأة فى وجه مولاها وسقطت يداها من غير وعى فانقلب الطس النحاسى محدثاً صوتاً مرناً مُدَوياً ... وسال الماء ... وانحبس الدمع والمنطق فى عينى العجوز ولسانها ، ثم عالجت المفاجأة السارة المحزنة فى صدرها ... وصرخت تقول : «أنت ! هو أنت ! والله إنك لأودسيوس ... لقد عرفتك ... هذه هى النَّدبة التى أحدثها الخنزير بساقك ! لقد لمستها بيدى ! » وأهرعت العجوز مذهولة نحو بنلوب لتزف إليها البشرى الهائلة ... ولكن مينرفا كانت أسبق منها ... فقد سحرت عينى بنلوب وسمعها ... وعجل أودسيوس إلى العجوز فأطبق بكفه على فمها وقال : « يوريكليا ! أصمتى ! أنا هو ! ولكن أصمتى ! إن كلمة واحدةً منك تقضى على ! لقد غذوتنى ونشأتنى فى حضنك صغيراً ، فهل تكونين نكبتى وشاحذة سكينى كبيراً ، و بعد أن وصلت إليكم بعد يأس وقنوط من عودتى ؟ أصمتى ! غُلِّى لسانك بسلاسل وأصفاد فلست أريد أن

(١) الطس بالفتح والطست والعامة (الطشت) الذى يغسل فيه (قاموس) .
(٢) أثر الجرح القديم .

يعلم أحد أننى هنا .. وإلا ... فتالله لن أرحمك — ولو أنك مرضعى — يوم يجد الجد ! » .

وارتعدت يوريكليا ، وقالت تجيبه : « أى بنى ! لم تكلمنى هكذا ؟ أتشك فى ثباتى وحفاظى ! إطمئن يا بني ، فسأكون أصمت من الحجر الصلد ، وأستر لسرك من الحديد ! » فحدجها أودسيوس وقال أصمتى إذن ، ولا تفسدى تدبيرنا ، ولنتوكل جميعاً على الله! وذهبت فأحضرت ماءآخر؛ وأخذت فى غسل رجليه العظيمتين ، فلما فرغت ضمختهما بأفخر الطيوب ، ووقفت تقلب عينيها فى مولاها بينما كان هو يربط لفائف على ندوب ساقيه وأخذ أودسيوس كرسيه وجلس قريباً من الموقد تلقاء پنلوب التى شرعت تحدثه وتقول: « أيها الضيف ، ما أرى بأساً فى أن أسألك إذا كنت أبقى هنا مع ولدى أو أختار أحداً من أولئك الأمراء فيكون لى بعلا ... على أن رؤيا رأيتها لا تزال تضطرب فى خلدى ولا أعرف كيف أعبرها . ذلك أننى كنت أقتنى عشرين إوزة بيضاء ، وكنت أحبها وأرعاها بنفسى ، فرأيت فيما يرى النائم نسراً قشعماً انقض عليها من الجو فافترسها جميعاً بينما كانت تأكل طعامها من المعلف الذى أعددته لها ... ولما رأى النسر شدة حزنى والتياعى على أوزى ، وقف على نتوء قريب ثم أنشأ يكلمنى ويقول : لا تحزنى يا ابنة إيكاريوس على الأوز فإنه يمثل عشاقك الفُسّاق ... أما أنا فأمثل زوجك النازح الذى سيعود من سفره فجأة فيبطش بالطغمة العاتية التى استباحت قصره ، وولغت كالكلاب فى عرضه ... ألا يا ابنة

إيكاريوس اسعدى ! » واستيقظت من نومى مسبوهة ونظرت إلى إوزى لأطمئن عليه فوجدته سالماً ... فهل تستطيع أن تعبر عن تلك الرؤيا أيها العزيز ؟ » .

فقال أودسيوس : « أيتها السيدة الفاضلة ... لقد فسر لك الرؤيا زوجك بلسانه ... وهى تعنى غير ما قال ... إنه قادم وشيكا لا ريب ... وإنه حامل إلى العشاق مناياهم » .

واثاقلت بنلوب ثم قالت : « أبداً ... إن هى إلا أضغاث أحلام ! إذا كان غد فإنى ذاهبة إليهم مذاكرة لهم شرطياً إن استطاعوه نالنى أقواهم فذهبت من فورى إلى بيتى ، وتركت كل هذا القصر الذى دخلته زوجة لخير زوج ، ليكون حلماً جميلا يزخرفه لى الماضى ... وذلك أننى شارطة عليهم أن يحملوا قوس أودسيوس فيصيبوا بها غرضاً يخترق السهم إليه اثنى عشر (دنجلا)[1] فإن أصابه أحدهم فإنى له » . وهش أودسيوس وأيد فكرتها « لأن واحداً منهم لن يستطيع أن يوتر قوس أودسيوس قبل أن يحضر أودسيوس فيحطمهم جميعاً ! ! » وأشارت بنلوب إلى خدمها وأعددن لأودسيوس مُتّكأً وفراشاً وثيراً ... وذهبت بنلوب لتذرف فى مخدعها دموعاً من بلور .

(١) لم نجد في العربية — أو لم نعرف — مرادفاً لمحور القرص أو العجلة ، فأجزنا هذه اللفظة لشيوعها بين الصناع .

نذير من السماء

طفق أودسيوس يتقلب فى فراشه على أحر من الجمر ، وطفق رأسه يغلى كالقدر ، بل يفور كالتنور بطائفة ثائرة صاخبة من الأفكار والوساوس ، وهو لا يدرى ماذا يصنع بهذه العصبة أولى القوة من أولئك العشاق المفاليك ، وهو وحده ، ومهما يكن شجاعاً صنديداً فقد يتكاثر الذباب على الأسد فيقتله ...

وهبطت من السماء مينرڤا اللطيفة فى صورة حسناء هيفاء ممشوقة القد بارعة القسمات ، فجعلت تواسيه وتطمئنه ، وتبشره بأن الأولمب كله من ورائه فلا يخاف ولا يأسى ...

— «هذا حسن أن يكون الأولمب ، وتكونين أنت يا ربة الحكمة ، من ورائى حتى أنتصر على أولئك الجبارين ... فكيف لا أخشى أن يهب من ورائهم قبائلهم وذراريهم واللائذون بهم يثأرون لهم فيحل بى بطش شديد ؟؟ » فتقول مينرڤا : « الذى يحفظك منهم غداً يحفظك من غيرهم بعد غد ، ولو جمعوا لك جحفلا أضعافاً ... فلا عليك أيها العزيز ... خلِّ عنك الوساوس إذن ... ونم ملء جفنيك ... واترك للسماء قيادك فهى حسبك ... » قالت هذا وزفّت فى الأثير اللانهائى إلى أولمب ، تاركة وراءها القصر العتيد بمن فيه من نُوّام وغير نوام ...

مسكينة بنلوب ! لقد كانت هى الأخرى شاردة اللب ، موزعة

القلب ، ما ترقأ لها عبرة ، ولا تغفى لها عين ، ولا يقر لها قرار .. لقد لبثت ليلها كله تتشوف إلى أودسيوس وتبكى عليه ، وتستذكر أيامه ، وترثى لهذا الفتى اليافع تلماك ؛ ثم تدعو الموت كى يخمد أنفاسها ، ويوفر عليها أحزانها ... ولكن المنايا نوافر لا تستجيب لدعاء أحد .. وهب أودسيوس عند مطلع الفجر فانطلق إلى المذبح الكبير حيث جثا متضرعاً لهفاناً ، يسبح باسم زيوس العلى ويصلى له ، ويهتف به أن يجعل له علامة يطمئن قلبه بها ، وليعلم أن كبير الآلهة لا يزال يحميه ويكلؤه ، كما كلأه فى شدائده فى كلا البر والبحر ... وكان أودسيوس يزكى صلاته بأطهر الدموع وأحرها ، وكان سيد الأولمب يصغى لدعائه من علياء السماء ، فما إن فرغ الملك المحزون حتى أرسل زيوس فى الأرجاء زلزلة عظيمة مدوية رجعت أصداءها جنبات القصر الساكن ، وأحياد الجبال الشامخة ... وكانت خادم بائسة تسهر طوال ليلها عاملة فى طاحونها ناصبة ، فلما وقرت في سمعها الزلزلة ذعرت وروعت ، وأزاحت طرف الستر لتنظر إلى السماء فلم تجد فيها سحابة واحدة ، بل وجدتها مشرقة بتباشير الصباح ، مضيئة بنور ربها .. فجعلت تجأر إلى الله وتقول : « زلزال وليس فى الأفق سحاب ! ! أما والله إنه لنذير ، أما والله إنها لغضبة السماء على هؤلاء المناكيد ... القساة ... الذين يقسروننى على هذا العناء وذاك النصب طوال الليل كأننى من حديد ... يا جوف العلى ... إن يكن ما سمعت حقاً ؛ فإنى أسألك بحق أسمائك أن يكون هذا الدقيق آخر ما يأكلون من زاد هذه الدنيا ! ! » .

وتبسم أودسيوس من قولها ، وتوسم فيه وفى تلبية السماء خيراً له ، وشاع فى أعطافه شعور قدسى بما دنت ساعة الانتقام ... وكانت الوصيفات الأخريات يوقدن نار المدفأ فى الردهة الكبرى ، بينما برز تلياخوس من مخدعه مخترطاً سيفه ، ورمحه يختال من خلفه ، حتى إذا بلغ وصيد الباب الكبير هتف بالمرضع العجوز يوريكليا يقول : « كيف حال الغريب النازح يا أماه ؟ بودى لو أنكن عنيتن به كما ينبغى ، لأن والدتى على ما جبلت عليه من خير ولطف ، لا تهش لأمثاله من النازحين الغرباء » وقالت يوريكليا تجيبه : « يا بنى لا تثريب على والدتك فى هذه السبيل فقد احتسى ضيفك من الخمر ملء بطنه ، حتى لقد أبى أن يذوق طعاماً بعد ، وقد أبى إلا أن ينام على فراش خشن فى الردهة الكبرى ، ولا أدرى لماذا تشبث بهذا » . وانطلق تلياك إلى المدينة يتبعه كلباه. ثم أقبل الراعى يومايوس يسوق بين يديه ثلاثة خنازير كنناز من أسمن قطعانه ، وما إن رأى أودسيوس — الشحاذ الفقير فى حسبانه — حتى قصد إليه ، ولبث يسائله عما لقى من العشاق — فذكر له أودسيوس ما كان من وقاحتهم ... وبينما هما كذلك ، إذ أقبل الراعى السفيه ، سليط اللسان ، ميلانثيوس وهو يحدو قطعانه وماعزه ، وطفق كدأبه يسب أودسيوس ويرسل عليه وعلى يومايوس ما نزح به فمه من شتائم ، تحرشاً بالرجل الشحاذ الفقير ، ولكن أودسيوس لم يحرك ساكناً ... وأقبل راع آخر يقود بقرة صفراء لاذلول ولا فارض ، يدعى فيلوتيوس ، فوقف عند زميله يومايوس يسائله عن صاحبه الفقير الشيخ ، وكأنما راعته ملامحه وحسن

سمته : « إن له سيماء كسيماء الملوك برغم أسماله ومزقه ! » ، ثم صافح أودسيوس وقال له : « مرحباً أيها الأب ! خفف الله عناءك ووضع عنك وزر ما تشكو . يا للسماء ! إن مرآك يفجر الدموع فى عينى لأنك تذكرنى بمولاى أودسيوس الذى وكل إلى رعى قطعانه وأنا بعد صغير حدث ، فكَبُرَت كما كَبُرْت ، وتضاعف عددها ... ولكنى وا أسفاه لا أفرح بسمنها ووفرة عددها ، بل إن الحزن ليبرح على نفسى لأنها تسمن فتكون غذاء لا مباركا ولا هنيئاً لأولئك الظالمين ... ولولا رجائى فى السماء ... وأملى الكبير فى عودة مولاى أودسيوس لَلُذْت من بعيد بسيد آخر أخدمه ، لأن الصبر على خبائث هؤلاء العتاة الطغاة لم يعد فى طوق أحد ... وا أسفاه عليك يا مولاى أين أنت اليوم ؟ ألا ليتك تعود فتبطش البطشة الكبرى بهؤلاء الجبارين ! » ... واغتبط أودسيوس بما سمع من كلام الراعى فقال له : « لله ما أشجعك أيها الصديق ! ولكنى أبشرك وأطمئنك ، وأقسم لك أن مولاك عائد ما فى هذا شك ، وهو عائد عما قريب ، وستشهد عيناك هاتان مصارع البغاة الطغاة ! » ... وبينما هما يتحدثان إذا بالعشاق يقبلون أفواجاً فيملأون البهو ، ويجلسون إلى ولیمتهم ، فيشير تلماك إلى أبيه فيجلسه معهم ، ويعد له مائدة ومقعداً ، ويحضر له من الشواء والخبز والشراب ما هو حسبه ويقول له بمسمع من الجميع : « إجلس أيها السيد ولا تخش رهقاً ... إنى أمقت أن أسمع شغبــاً اليوم ، فالبيت بيت أودسيوس وإنى لصاحبه ! » وغيظ أنطونيوس فقال : « دعوه فقد حق له أن يقول

ما يشاء ، فتالله لولا أنْ حال جُوف بيننــــا و بينه لأسكتتنا إلى الأبد أنفاسه ! » وقال سفيه آخر : « طب نفساً ياتليماخوس وقرَّ عيناً ، فهاك منحة منى لضيفك ، مضغة مشتهاة ! » ثم تناول عظمة من السلة القريبة فقذف بها أودسيوس الذى انحرف عنهــا فلم تصبه ، وعندئذ قال تلماك مغاضباً : « تالله لو أصابته لأقصدْتك برمحى هذا فنفذ فى صدرك ، وخرج يلمع من ظهرك ، ولا نقلب العرس الذى تحلم به فـكان مناحــة تؤُزّ بيتك ... إنى لم أعد صبياً بعد فلا ترهبونى ! سترون كيف أستطيع أن أضع لـكل ذلك حداً بعد إذ طفح الـكيل ! » وهنا هب اثيم آخر فجبذ فى سخرية مقالة تلماك .. « لأن من حقه أن يحمى ضيفه ... ولـكن اسمع ياتليماخوس ... لم لا تمضى إلى آمك وقد يئست من عودة أبيك فتطلب إليها أن تحضر فتختار البعل الذى يروقها من بيننا ؟ » فتَمَحَّلَ تليماك الـكلام وقال : « هى حـرة مطلقة الحرية . إنى لا أقف فى طريقها ولا أقسرها على شىء ! » وما كاد يفرغ حتى انفجر المناكيد يضحكون و يضجون .

ثم حدثت المعجزة !

لقد تضرجت وجوه القوم بحمرة الدم .. ولقد تحركت قطع اللحم فوق الخوان فهى تقطر دماً أحمر كأنه ينبثق من غلاصم قتلى ! ثم امتلأت عيونهم بدموع غِزار حرار ... ثم طفقت دموعهم تعلو وتهبط وتنشق عن تنهدات تَصَّعَّدُ من سويداءات القلوب ... ثم هـــذا ثيوكليمنوس — الـكاهن الآبق — يشهد المعجزة و يرى النذير ، فينهض فيهم قائلا :

« تعساً لـكم أيها الأنجاس لقد سِيء بكم ! ماذا تخبأ لـكم المقادير يا ترى ؟ ما هذه الظلمات كأنها قِطَعٌ الليل تغطش رؤوسكم وتزلزل أقدامكم ؟ وما هذه الدموع تتصبب من عيونكم فتشوى خدودكم ؟ أنظروا إن استطعتم ! ما هذه الدماء التى تضرج جدران القصر ؟ ما هذه الأشباح التى تـكظ البهو الخالد ؟ إنها تتهاوى إلى عالم الفناء فويل لـكم ! ؟ أوه ! وتلك آية أخرى لقد كسفت الشمس فجأة وتوارت بالحجاب ! الضباب الضباب ! ما أروع الضباب ينتشر فيملأ ما بين الأرض والسماء ! ! » .

وبالرغم مما أنذر الـكاهن فقد أغرق القوم فى الضحك ، ولم يزدادوا إلا خبالا ... وقال قائلهم ، وإنه ليوريماخوس : « ما أحسب إلا أن به جِنّة ! خذوه فغلوه ثم فى السوق صلوه ، عسى أن يجد ثمت ضياء يمشى فيه ، إنه لا يجد ضياء هنا ! ! » .

وتلبث الـكاهن فقال : « أربع عليك يا يوريماخوس فإن لى عينين وأذنين وإنى لأرى وأسمع ... وإنى نذير لـكم من بلاء يحل بكم فلا يبقى ولا يذر ... أيها الأفاكون المفسدون ! » وانطلق الـكاهن من القصر ... ولمز أحد العشاق تلماك فقال : « ألا ما أتعسك فى كل من ضَيَّفت من ضيف يا فتى ! أما كان بحسبك هذا الفقير الشحاذ القذر الذى تطعمه ، ما عليه من سبيل ، حتى تجلب هذا المتفيهق الذى يدعى النبوة ويرجم بالغيب ؟ » .

وصمت تلماك فلم ينبس ، وظل ينظر إلى أبيه ، ويرقب ساعة الجد .

* * *

وما رميت إذ رميت . . .

وكانت بنلوب جالسة فى الحريم تسمع إلى ضجيج القوم وعجيجهم ، فبدا لها أن تضع حداً لهـذا العبث العقيم الذى استمر كل هذه السنين الطوال فأمرت بعض وصيفاتها فتبعتها إلى المخبأ الذى حفظت به أذخار الملك وعتاده ، والسلاح الذى فرّقت له قلوب وارتعدت فرائص وزاغت من هوله أبصار …

لله ما كان أشجاها ذكريات حافلة بأروع ضروب المجد ! ها هى ذى تلك الرماح التى طالما لاعب بها أودسيوس الأسنة ، والسيوف التى طالما انتزع بها الأرواح ، والدروع السابغات التى كانت تدرأ عنه وتحميه ، وتحفظه وتفتديه … ثم ها هى ذى تلك القوس العظيمة معلقة فوق الحائط تلمع وترقص من حولها المنايا … القوس ذات الذكر التى أهداها إلى أودسيوس أحد المعجبين به … ها هى ذى بعد هـذه السنين الطوال لم يحملها أحد غير أودسيوس ، لأن أحـداً غير أودسيوس لا يستطيع أن يثنى قوس أودسيوس ، وفيها الوتر المُرُد ، الذى لا يلين ولا يبين ولا يَرُدُّ ، إلا إذا كلمه أودسيوس ! ! وتناولت بنلوب كنانة السهام التى طالما قذفت المنون فى قلوب الأعادى ، وجلست تنثرها فى حجرها ، وتنتقى منها ، وتبكى أحر البكاء … لأن كل سهم منها كان يهيج فى قلبها ذكريات زوجها البطل .

وأشارت إلى وصيفاتها فحملن القوس العظيمة ، وحملن (الدّناجل) ، ثم حملت هى السهام وسارت أمامهن ، وعلى وجهها نقابها السادر الحزين ؛ حتى إذا كانت عند الأمراء هتفت بهم فصمتوا ، ثم قالت لهم وفى صوتها

نبرة الحزن ، وموسيقى الآلام : « ها هى ذى قوس أودسيوس وتلك هى سهامه أيها السادة الأمراء ، فمن استطاع أن يثنيها فيرسل عنها سهماً يخترق الدناجل الاثنى عشر فإنى له ، وهو صاحبى ... وعسى أن تبطل السماء حجتكم اليوم ... فقد طالما ذهبتم بخير هذا القصر ، وأرغتم من زاده بحجة أنكم عشاق ، كما استبحتم أن تسموا أنفسكم ، فإليكم القوس فانظروا ماذا تصنعون » وأشارت إلى الراعى يومايوس فتسلم القوس العظيمة ، وحملها معه زميله راعى الضأن فيلوتيوس ... ثم إن الراعيين لم يطيقا ذكريات سيدهما التى هاجتها فيهما القوس فذرفا دموعهما ثم استخرطا فى البكاء ... وانتهرهما أنطونيوس فقال: « تباً لكما أيها الفلاحان القذران فيم هذا البكاء ! ألتهيجان الشجو فى فؤاد سيدتكما ؟ إنطلقا أيها المسخان فابكيا بعيداً فتالله ما أحسب بكاءكما إلا يزيد فى صلابة القوس ، وتالله ما أحسب أحداً منا ببالغ منها مأرباً ... وَىْ ! من منا له بأس أودسيوس ؟ ! لقد كنت طفلا ، بل كنت وليداً ، حينما رأيت رجلا ذا صولة وفتوة يهديها إلى البطل ... أجل .. رأيت هذا بعينى هاتين . وكان فى كل ما قال ساخراً ... فقد هيأ له الغرور أنه بقليل من العناء سيثنى القوس ويرسل السهم ويحظى بينلوب ! »

ونهض تليماك فقال إنه سيساهم فى الرماية فإذا استطاع فإنه سيُبقى أمه لديه ولا يتركها تغادر منزل أبيه أبداً ... ثم حفر حُفَراً على خط مستقيم فجعل فى كل منها دُنجلا وثبت حولها بالحجارة والتراب ... ثم إنه تناول القوس العظيمة وألقمها السهم ، وجمع قواه وطفق يشد ؛ وفشل مثنى

وثلاث ، وكانت القوس تشمخ عليه فلا تكاد تنثنى ، حتى إذا حاول الرابعة وأوشك أن يظفر ، أومأ إليه والده ففهم ما يريد وقال : « أوه ! إنه لا يقدر على هذه القوس إلا من هو أقوى منى وأكمل جسماناً وأتم بنية ... فليتقدم لها من شاء منكم حتى نرى ! » .

وقال أنطونيوس : إنهم جميعاً مشتركون فى التجربة حسب مقاعدهم ، حتى الكاهن . فنهض هذا ويمم شطر الوصيد وحمل القوس الرهيبة ، وحاول مائة مرة أن يثنيها فلم يستطع ، فألقاها وقال : « أيها الرفاق ... ما أحسب هذه القوس إلا موئسةً للجميع ... لقد أوهتنى وذهبت بمُنَّتى . ألا فلتحلموا بامرأة أخرى غير بنلوب ، فوالله ثم والله إنها للرجل الذى كتبتها المقادير له ... الذى يحضر إليها بما ليس فى وسعكم من كنوز ومن أذخار » .

وغضب أنطونيوس وتجهم للكاهن ثم قال : « ألا ساء ما تقول أيها الرفيق ! أحسبت أننا نيأس من هذه القوس لأنك لم تقدر عليها ؟ ومتى كنت رجل جلاد وجهاد ؛ ومتى ثنيت قوساً أو أرسلت سهماً ! أربع عليك ففينا الكثيرون الذين يستطيعونها بالقليل الأقل من الجهد » ثم أمر راعى الضأن ملانثيوس أن يحفر حفرة ويوقد فيها ناراً يجعل بها وعاء من شحم ليعالجوا به القوس عسى أن تلين قبل أن يُذلوا دلوهم ... فلما كان هذا أخذ الأبطال كل بدوره يعالج أن يثنى القوس ، ولكنها استعصت عليهم جميعاً ، ولم يبق إلا أنطونيوس ويوريماخوس ، وهما أكثر هذا الجمع قوة وأوفرهم فتوة .

ثم نهض راعى الخنازير ، يومايوس ، ونهض فى إثره صديقه الراعى الآخر ، فَحثّا الُخطَى خارج البهو لما شاهدا من يأس القوم ... وقد تبعهما أودسيوس ... فلما كانوا بعيداً قال لهما : « أيها الحبيبان ، أإذا أرسلت العناية أودسيوس فى هذه اللحظة ليبطش بهؤلاء المناكيد ، أفتحاربونهم معه ، أم تحاربونه معهم ؟ » ... فرمقه فيلوتيوس وقال : « يا للسماء ! تالله لو صحت أحلامك لرأيت كيف أفتديه منهم بنفسى ومهجتى ! وتالله لرأيت كيف يهتز سلاحى فيحصد رؤوسهم ويبعثر أشلاءهم ! » وقال يومايوس مثل هذه المقالة ... ولما وثق من إخلاصهما كشف لهما عن حقيقته فقال : « إذن فاعلمـــــا أنى أنا أودسيوس ، وهذه هى الندوب التى أحـــــدثها الخنزير فى ســاقى ، وقد أُبت إلى وطنى فجـأة فلقيتكما أول من لقيت ، وأكرمت مثواى يا يومايوس وأنت لا تعرفنى ، ولم أشأ أن أبدو للقوم حتى أعرف عدوى من صديقى » ولم يكد يفرغ من قوله حتى انحنى الرجلان يشهدان الندوب ، فلما استيقناها ، ذهلا عن نفسيهما ، وجثوا عند قدمى مولاهما ، وطفقا يقبلانهما ويغسلانهما بدموعهما ، ثم نهضا فألقيا سلاحهما عليه ؛ بيد أنه أمرهما أن يصمتا حتى لا يفضح أمرهم أحد ... وقال لهما : « لا بد أن نعود أدراجنا إلى البهو ، وسأنطلق أنا قبلكما ، وسأطلب منك يا يومايوس أن تعطينى القوس لأقوم بنصيبى فى التجربة ، وسيرفض القوم أن أفعل ، ولـكنك يجب ألا تبالى ، بل تناولنى القوس ، ثم تسرع بعد هذا إلى الحريم فتخبر النساء فيه ألا يذعرن إذا سمعن ضجة أو عويلا فى البهو ، أو شهدن حربا وقتالا ... أما نت

يا فيلوتيوس فتسرع إلى باب البهو فتوصده وتحكم إغلاقه حتى لا يفلت منهم أحد أبداً» . ثم مضى فجلس مكانه لدى الباب ، وتبعه الراعيان ... وفى هذا الوقت كان يوريماخوس يحاول محاولته ، وكان من وقت إلى آخر يذهب بالقوس العظيمة فيعرضها للنار عسى أن يسهل عليه ثنيها ، لكن القوس أبت مع ذلك أن تلين ، فلما بلغ من يوريماخوس الجهد ألقى بها يائساً وقال :

« تباً لها من قوس عنيدة ، والعار الأبدى لنا جميعاً يا رفاق ! ما لنا ولهذا ؟ إن فى إيثاكا حساناً ، وإن فيهن أزواجاً عُرُباً أبكاراً لمن يشاء ! أوه ! يا للخزى ! أوَاه لو لم تقل الأجيال المقبلة إننا كنا دون أودسيوس قوة وأقل منه فتوة حين عجزنا أن نثنى قوسه !! ياللخزى ... يا للخزى ! »

ورُوِّع أنطونيوس ! وذهل عن أمره ، ولم يشأ أن يخزى نفسه بأن يحاول كما حاول غيره ... فوقف فقال : « ما أحسب القوس عنيدة ولا مستعصية كما تزعمون ... ولكن اليوم يوم عيد أپولو رب القوس العظيم ، فأنى لنا أن نحمل قوساً اليوم ! دعوها ، واتركوا الأهداف مكانها ، فلن يجسر أحد أن يدخل بهو أودسيوس فيمضى بها ، وفى بكرة الغد يحضر ميلانثيوس من قطعانه عنزات سماناً فنضحى بها لأپوللو ، ثم نتم محاولتنا » .

ولكن أودسيوس هب من مجلسه فقال : « يا سادة ! ما دمتم لن تحاولوا الرماية اليوم فأرجو أن تدفعوا إلىَّ هذه القوس لأجرب أنا أيضاً ، ولأرى هل لا تزال بقية من مُنَّة الشباب مخبوءة فى أعصابى ! أم أنها

ذهبت بها جميعاً متاعب الحياة وكثرة التجوال فى أطراف الدنيا ... »
وجن جنون القوم لما قال أودسيوس هذا ، وعجبوا كيف يجسر شحاذ فقير مثله أن يطلب أن يشارك السادات فى مباراتهم ... ومن يدرى ؟ لعلهم ذعروا أن ينجح هذا الفقير فيما فشلوا هم فيه ... قال أنطونيوس : « أخزن عليك لسانك أيها السليط الوقح ! ألا يكفيك أن يسمح لك بوجودك بين هؤلاء السادة الأخيار من أقيال البلاد حتى تطلب أن تباريهم ! » وكانت بنلوب تطلع فلم تحتمل أن يؤذى ضيف ولدها هكذا ، فقالت : « أنطونيوس ، أنى لك أن تؤذى تليماك فى ضيفه ؟ بل ينبغى أن يحاول الرجل كما حاولتم ، فأما أنك تخشى أن يظفر فيما فشلتم فيه ... فلا ضير ... إنه لا جرم ليس يحلم مثلكم بأن أكون زوجة له ، فليفرخ روعك إذن ، ولتطمئنوا جميعاً» وقال يوريماخوس : «يا ابنة إيكاريوس ما دار بخلدنا قط أن تكونى زوجة له إذا ظفر ، ولكنا خشينا أن يفضحنا فى الناس فيقول : « عجباً لسادات إيثاكا وما حولها ؟ يطمعون أن يتزوج أحدهم امرأة البطل العظيم أودسيوس ثم لا يستطيعون رمى سهم عن قوسه ، ويأتى رجل شحاذ فقير فيثنى القوس ويرمى السهم وهم مع هذا لا يستحيون ! » هذا ما خفنا أن يكون يا ابنة إيكاروس وهذا ما خشينا أن يذهب بشرفنا ! » فقالت بنلوب : « لتطمئن يا يوريماخوس فليس فى مثل هذا يضيع شرفكم ... ولكن الرجل ذو جسم طوال ومظهر جبار ، وقد ذكر آباءه فعلم أنه كريم العنصر طيب الأرومة

عريق المحتد ، فلم لا يعطى القوس لنرى ما يكون ؟ وإنه وإذا ظفر فسأحلم عليه وأدفع له سلاحاً وأرسله أنى شاء ! » . ثم نهض تلياك فقال : « أماه ! إن القوس قوسى وإنى لصاحبها ، أعطيها لمن أشاء وأصونها عمّن أشاء ، ولن ينازعنى حتى أحد من العالمين ، ولو شئت لأعطيتها الرجل فتكون حقاً خالصاً له ، وما سمحت لأحد أن يمنعنى ... تفضلى أنت فغلقى عليك أبواب الحريم ، وانظرى فى أعمال البيت ، وصرفى شئون الخدم ، وخذى فى غزلك ونسجك ، وسننظر نحن فى أمر القوس ، وسأرى أنا لمن تكون النوبة ، فإنى هنا سيد لا مسود ! » ... وشدهت بنلوب قليلاً ، إلا أنها عرفت أن ابنها قال حقاً ، فانسحبت ، وغلقت عليها أبوابها ، وانطرحت فى فراشها حيث وافتها مينرقا فسكبت فى عينيها غفوة هادئة لذيذة ، فاستسلمت لسبات عميق .

وتقدم يومايوس فحمل القوس وأوشك أن يذهب بها إلى أودسيوس لكن الأمراء زأروا مغاضبين ، فخشى الراعى ، وألقى القوس ثانية ، فصاح به تلياك : « هات القوس هنا أيها الرعديد ، لشد ما أود أن أخلص منك ومن هؤلاء السادة الذين ترهبهم ... ! » وسخر الأمراء وضجوا ضاحكين ... ولكن الراعى تقدم إلى القوس فاحتملها ، وذهب بها قدما إلى مولاه ... وانطلق بعد هذا إلى الداخل فنادى المرضع يوريكليا وقال لها : « إن مولاى يأمرك أن تغلقى جميع الأبواب ، ويقول لك إنه إذا سمع النساء ضجة فى البهو أو قتالا فليجلسن حيث هن

ولا ينزعجن ، وليأخذن فى عملهن ، أتسمعين ؟ » .

وغلقت المرضع الأبواب وبلغت رسالة مولاها ... ثم هم فيلوتيوس فغلق باب البهو وأحكم إقفاله وربطه بِسَلَب (١) طويل كان لسفينة وألقى لدى الباب ؛ وعاد فجلس مكانه وعيناه لا تريمان عن مولاه ...

وتناول أودسيوس القوس فجعل يفحصها ويبحث فى أجزائها ، مخافة أن يكون السوس قد نخرها إذ هو ناء عن بلاده ... وزاغت أبصار القوم ، وجعلوا يُبَرّقون فى الشحاذ الفقير ويقولون : « الهِلَّوْفُ (٢) الزنيم ! إن له لَعَيْناً فاحصة كأن لها عهداً بالرماية ؛ وإنه ليبحث القوس كأنه يقتنى أمثالها ! » ثم قبض أودسيوس على القوس ، وشد طرفها فى سهولة وفى يسر ، كما يشد الموسيقى وتراً من أوتار قيثاره ، ونظر إلى الأهداف المتراصة أمامه ، وأرسل سهماً اخترقها جميعاً ، وسُمع له صوت كسقسقة العصافير ...

يا عجباً ! ! لقد أراش أودسيوس السهم ، وأرسل زيوس العلى زلزلة ورعداً مدوياً وثب له فؤاد البطل ، وطارت منه ألوان القوم ، وانقذف الرعب فى قلوبهم ...

ثم أخذ أودسيوس سهماً آخر فثبّته ، ثم أراشه فاخترق الأهداف مرة أخرى ...

قال أودسيوس : « تليماخوس أيها العزيز ! إن ضيفك لم يخيّب

---

(١) فى القاموس السلب لحاء شجر باليمن تعمل منه الحبال ونحسب أن منه إطلاق السلب فى الحبال العليظة فى مصر فلم نر بأساً من استعماله بهذا المعنى .

(٢) الهلوف بتشديد اللام وزان فردوس الثقيل الجافى البطين ونحسب أن منه نحت المصريون كلمة هلفوت وقد استعملناها لظرفها ومناسبتها كثيراً للمقام

رجاءك ولا أضاع عشمك[1] ، ولقد أصبت الأهداف كلها على حداثة عهد بالرماية ... والآن ، هلم ... إن النهار يوشك أن يولج ، وإنه لينبغى أن نعد وليمة المساء للسادة الأمراء ، ولن يعدموا بعدها ما دأبوا عليه من رقص وعزف ، وقصف وغناء ... ! »

وهم تلياك فألقى حمائل سيفه على كاهله ، وتناول رمحه العظيم ... وسنرى !

(١) فى القاموس العشم الطمع .

الانتقام الهائل

وألقى أودسيوس أسماله ، واطّرح مزقه ، وبرز للملأ أودسيوس القوى الحديدى الجبار ، وتناول كنانة الأسهم التى تُهَمهم فيها المنايا وتعمغم ، والقوس العتيدة العنيدة ، ووقف عند الوصيد حتى لا يفر أحد من أعدائه فينجو من الموت الذى هو ملاقيه ، ثم نثر الكنانة عند قدميه وهتف بالعشاق يقول : « وهكذا يا سادة تتم فصول المأساة ، وهكذا أيضاً تنتهى المباراة التى لم يفز فيها واحد منكم ... والآن ... أنظروا ... إنى لن أسدد سهامى إلى هذه الأهداف بعد ، بل إنى مسددها إلى غرض آخر ... » وشد الوتر المُرَدّ ، وأرسل إلى حلقوم أنطونيوس سهماً مراشاً عجل به إلى هيدز . وكان العلج يوشك أن يحتسى كأساً ذهبية من أعتق الخمر ، فسقطت الكأس من يده الذاهلة ، وسقط هو يتشحط فى دمه ، ويلفظ أنفاسه . وذعر الآخرون حينما رأوا أخاهم يسقط إلى الأرض رمة لا نفَس فيها ولا حراك ، فهاجوا وماجوا ، وهبوا يبحثون عن أسلحتهم ... ولكن ، هيهات ! لقد أخفاها أودسيوس وولده ليلة أمس ... فأنى لهم بها !! وصاحوا بأودسيوس : «أيها المجنون لقد أخطأت المرمى ! ماذا أصابك ؟ إنك تسدد إلينا ؟ لقد قتلت أنبل شباب إيثاكا ، ثكلتك أمك ! أبداً لن تحمل بعد هذه قوساً أبداً .

وانكشف الستر ، وعاد إلى الشحاذ الفقير عنفوانه ، وانقذفت من

فمه الحُمَم فقال : « أيها الـكلاب ! فال[1] ما زعمتم أن أودسيوس لن يثوب ! هأنذا أيها العبيد ! لقد استبحتم حمى بيتى وأذللتم قدسه الحرام ، وأوضعتم فى الفتنة فاعتديتم على نسائى ، ولم تبالوا أن تتعشقوا زوجى ، بينا رجلها حى يسعى على قدميه ، غير عابئين بمن يطّلع عليـكم فى السماء وهو بكم محيط ، ولا مبالين بما تضج به الرفات الـكريمة فى ثرى هذه الأرض من فعالـكم ، فويل لـكم ، لقد حان حينكم ! ! » .

وارتعدت فرائص الـكلاب كما دعاهم أودسيوس ، وطارت حمرة الخمر من خدودهم ، ووقف يوريماخوس متخاذلا وهو يقول : « إن كنت حقاً ملـكنا أودسيوس فـكلنا نعتذر عما ارتـكبناه من الإثم فى بيتك . ولقد تـكلمت فقلت الحق كل الحق ، ولـكنك قد أرديت أنطونيوس الذى دعانا إلى كل ذلك والذى كان يطمح أن يتربع على عرشك ويملك كما ملـكت ، فاعف عنا واصفح عن خطايانا ، فنحن بالرغم من كل ما حصل شعبك الأمين ، ورعاياك الأوفياء الأولياء .. على أننا سنعوضك مما استبحنا مالاً بمال وعتاداً بعتاد » . فقال أودسيوس : « يوريماخوس أيها النذل ! إنـكم مهما ملأتم يدى بالذهب فلن تشفوا حَرَدى ولن تُذهبوا غلتى حتى أنتقم منـكم جميعاً لما صدر عنـكم من إفك ، وما ارتـكبتم من أوزار ! فاختاروا لـكم ! الحربَ التى جدت بكم فجدوا بهـا ، والقتالَ الذى لا محيص منه ولا محيد عنه ، أو ... فالفرار الفرار ... ولن تجدوا إلى الفرار سبيلا ... » وزُلزل الجميع زلزالا شديداً ،

(١) خاب

وجفت ألسنتهم فى حلوقهم فما عرفوا ماذا يحيرون ، ثم هتف فيهم يوريماخوس فجأة يقول: « أيها الإخوان ، لقد تحجر قلب هذا الرجل فلن يعرف سبيلا إلى الرحمة ، وها قد قبض على القوس بكلتا يديه ، ووقف عند الوصيد يذودنا عن الباب ، ولن يفلت أحد منا من سهامه قط ، بل إنه سيقنصنا واحداً بعد واحد ... ولا أرى إلا أن تمزعوا إلى سيوفكم فتخترطوها ، وإلى المناضد فتدّرعوا بها ، ثم نهجم عليه كرجل واحد عسى أن نزحزحه عن الباب فننجو بأنفسنا ونلوذ بالفرار فإذا بلغنا المدينة فإننا سالمون ! » ثم فرغ من صيحته واستل سيفه ، وهجم على أودسيوس مرعداً مزمجراً ، ولكن أودسيوس أصماه بسهم فى صدره فصرعه ، وخر اللئيم يعالج سكرة الموت ، وانتشرت ضبابة الفناء الأبدى على وجهه المقبوح فأطبقت عينيه ... وهنا ... هاج الأمير أمفينوم وماج وهجم على أودسيوس بسيفه الذى تقطر من حده المنايا .. وكاد اللئيم ينال من خصمه منالا لولا أن قفز تلياك برمحه العظيم فأغمده فى صدره ورده عن أبيه وعاد مكانه دون أن ينتزع الرمح مخافة أن يتكاثر عليه الأعداء .

وقال تلياك لأبيه : « أبتاه ! إنه يجب أن نستعد بسلاح أكثر ... وإنى ذاهب فمحضر ما نحتاج إليه وعائد بسرعة البرق » فقال أبوه وهو يقصد القوم بسهامه : « هلم يا ولدى وهات ما استطعت ، فلشد ما أخشى أن تفرغ هذه السهام فلا أستطيع أن أدفعهم عن الباب ... » وانطلق تلياك إلى غرفة السلاح ؛ فأحضر ما مست إليه الحاجة من رماح وسيوف وخوذات ، وادّرع بما هو حسبه منها ، ثم ألبس الراعيين الأمينين

درعين سابغتين[١] وزودهما بسيفين بتّارين ، ووقف الثلاثة إلى جنب البطل العظيم يمنعون تكاثر العشاق عليه ، بينما هو يرســـــل سهامه فتخترقهم وتستأصل شأفتهم واحداً فواحداً ، حتى إذا فرغت سهامه ، وقف الأبطال الثلاثة يذودون من دون الباب حتى لبس أودسيوس دروعه ووضع على رأسه خوذته ، وأخذ رمحين عظيمين فى كلتا يديه ، وعاد إلى كفاحه ، وكانت فى الجانب الآخر من البهو بوابة صغيرة لم يفطن العشاق إليها ، فأرسل أودسيوس راعى الخنازير ليحرسها وليحول بين العشاق و بينها ... وضاقت الدنيا حتى غدت ككفة الحابل فى أعين القوم ، وتجهمت لهم حتى غدت كالليل البهيم ألقى غواشيه فوق رؤوسهم ، وناء بكلكله على صدروهم ... فقال قائلهم : « ألا يستطيع أحد أن يمرق من البوابة فيصيح بأهلنا و يستنجدهم لنا ؟ » .

فانبرى له ميلانثيوس[٢] يجيبه : « هذا عبث لن يكون وراءه طائل فإن رجلا واحداً يستطيع أن يقفنا جميعاً لو فعلنا ، دون أن نبلغ الباب ... بل لدىّ فكرة .. إنى أعرف أين خبأ أودسيوس وابنه أسلحتنا ، وسأنطلق فأحضر لكم منها مايقيكم منهما . » ثم تعلق بحبال مدلاة من كُوّة فى السقف وتسلق عليها حتى نفذ ثمت ، وانطلق إلى غرفة السلاح فأحضر اثنتى عشرة درعاً ورماحاً كثيرة وخوذات ، وظل يلقى بها من الكوة فيتلقاها رفاقه ويدرعون بها ... ولو كان مع أودسيوس سهم واحد يرسله إلى هذا العلج قبل أن يتعلق بالحبال لما استطاع أن يحضر

(١) صافيتين .

(٢) هو الراعى الخائن الذى أصبح ضلعه مع العشاق ضد مولاه أودسيوس .

هذه العُدد . قال أودسيوس : « أى بنى لقد خاننا بعضهم ودل القوم على غرفة السلاح ، فانظر كيف يتضاعف عناؤنا ويزيد بلاؤنا » فقال تلماك : « كلا يا أبتاه ، إنه لم يخنا أحد ، والذنب ذنبى ، فقد تركت باب الغرفة دون أن أوصده ... يومايوس ! إنطلق فغلِّق باب غرفة السلاح وأحضر مفتاحها ؛ وانظر هل خاننا أحد ، أو أن هذا من فعل ميلانتيوس كما أحْدِس ! » وانطلق يومايوس فرأى ميلانتيوس ذاهباً إلى غرفة السلاح ليحضر عُدَداً أُخَرَ ورماحاً ، فقال الراعى : « ها هو ميلانتيوس الوغد منطلق إلى الغرفة كما حدس مولاى » وهتف بتلماك : « ها هو ذا ! هاهوذا ! هل أحضره حياً ليلقى جزاءه أم أقتله حيث هو ؟ » فقال أودسيوس : « بل اذهب أنت وأخوك الراعى فشدا وثاقه واحبساه فى الغرفة حتى يلقى جزاءه ، وسأبقى أنا وتلماك لنذود دون الباب » . انطلق الراعيان فوقف كل منهما خلف مصراع من باب الغرفة حتى إذا برز ميلانتيوس انقضا عليه وكبلاه ودفعاه داخل الغرفة ، ثم ربطاه فى عمود هناك ، وقال له يومايوس « إهنأ يا صاح وارقد هنا إلى الصباح ، وأكبر ظنى أن الشمس لا تشرق عليك إلا وروحك فى عالم الظلال والأشباح ، فلا تراك قطعانك بعد اليوم » وأغلقا الباب وعادا أدراجهما إلى مولاهما وولده ، ووقف الأربعة يناضلون جحفلا بأكمله . ثم بدت مينرفا الحكيمة فى زى منطور وطيلسانه فعرفها أودسيوس وفرح بها قلبه ، وهتف بها قائلا : « منطور أيها العزيز ، معونتك وتأييدك ، فنحن صديقان منذ القدم ! » وهتف العشاق ينادون : « احذر يا منطور وإلا فتلقى

حتفك بعد أن نظفر بهذا الوغد . ولحظت مينرفا ذعر أودسيوس مما رأى من تسلح القوم فقالت تؤنبه وتحثه : ما هذا التقاعس عن الحلبة يا أودسيوس ؟ هل فقدت شجاعتك وعنفوانك ؟ إنك ما أحجمت مثل ما تحجم اليوم طوال عشر سنوات حاربتها فى طروادة من أجل هيلين فهل يشق عليك أن تلقى هذه الحفنة من عشاق پنلوپ فى بيتك ، بل فى عقر دارك ؟ هلم ! قف إلى جانبى وانظر إذا كان منطور قد عق الصداقة القديمة ! » .

وحاربت معه ساعة ، ولكنها تركته ليعمل للنصر بمفرده ، وانسحرت فكانت عصفوراً من عصافير الجنة جعل يرف ويرف فى سماء البهو ؛ حتى وقف على إحدى حشباته ... وفرح العشاق لما رأوا من مفارقة منطور ، وعادت إليهم بعض شجاعتهم لما رأوا المحار بين الأربعة يقفون وحدهم فى مدخل الباب الكبير ...

وقال أحدهم يخاطب الباقين : هلموا فليقذف ستة رماحهم قذفة واحدة إلى صدر أودسيوس ، فإنه إن سقط استرحنا منه ، فلن نلقى عناء من الباقين » ولباه أصحابه ، فقذفوا برماحهم فى صدر أودسيوس ، ولكن ... هيهات ... إن واحداً منهم لم يصب غرضاً من الصدر العظيم ... وهنا ... هتف أودسيوس برفاقه ، فانقض الأربعة على أربعة من المهاجمين فجعلوا فى صدورهم رماحهم ، ورد الله كيدهم فى نحورهم ، فقتل كل مهاجمه ... وروع الآخرون فارتدوا على أعقابهم ، وانزووا فى الركن السحيق من البهو ، وبهذا استطاع أودسيوس ورفاقه انتزاع الرماح من

صدور المقتولين ... ولم يهتم الراعيان بما أصابهما من جراح بالغة ، بل وقفا يناضلان ويفديان سيديهما ... ولما رأت مينرفا ما يلقى المحاربون الأربعة من تكاثر الأعداء ، رفّت فى الهواء ، ثم كشفت عن درعها الهائلة التى تجلب الموت إلى كل من يراها ، ووضعت خوذتها الرائعة ثم انبرت للقوم ، وهجم المحاربون الأربعة يطاردون الأعداء ، والأعداء يجرون من هٰهنا وهٰهنا مذعورين ذاهلين مما رأوا من درع مينرفا ... وجعل أودسيوس ورفاقه يصطلمونهم أربعة بعد أربعة ... حتى لم يبق إلا المنشد المسكين فيميوس ، الذى قَسَره العشاق على الإنشاد لهم ، وتطريبهم تطريباً لم يؤثره ، ولم يؤجر عليه ... لقد فزع المنشد المسكين من هول المجزرة ... وانطرح تحت قدمى أودسيوس يقول : « مولاى ! أودسيوس العظيم ! ارحمنى واغفِر فقد قهرنى القوم على ما رأيت ! اصفح عن المنشد البائس الذى يدخل السرور على أفئدة الآلهة ، ويذهب الحزن عن قلوب الناس ! » وهتف تلماك بأبيه يقول : « إصفح عنه يا أبى ، فإنه لا تثريب عليه ولا لوم ... وهلم ننقذ المنادى إن كان لا يزال به رمق ، فلقد كان يعنى بى إذ أنا صبى فى المهد ! » وكان المنادى قد فزع مما رأى ، وخبأ نفسه تحت مقعد كبير ، ثم طرح عليه جلد ثور ، فلما سمع تلماك يقول لأبيه هذا القول ، برز من مكمنه ، وتعلق برجلى تلماك ، وأنشأ يتوسل ويتضرع ، ويبكى ويتصدع . فقال له أودسيوس : « لا تجزع أيها الرجل ؛ فلقد أنقذك ولدى كما أنقذ المنشد ... اذهبا فانتظرا فى الرحبة ، فعندى ما يشغلنى عنكما الآن ... وانطلق الرجلان وهما لا يصدقان أنهما نجوا ، وجلسا عند المذبح

ينتظران قتلتهما فى كل لحظة ... ثم مضى أودسيوس يبحث فى البهو وتحت المناضد عمن يكون به رمق من الحياة فيجهز عليه ، بيد أنهم خروا جميعاً مضرجين بدمائهم فى التراب ، وقد تكبكبوا فوق بعضهم كالسمك فوق الساحل يقذف به الصياد فى يوم صائف ... ثم قال لابنه أن يدعو المرضع العجوز يوريكليا ، فأقبلت ورأت أودسيوس واقفاً كالمارد بين القتلى وقد لطخت الدماء يديه ورجليه وصدره، فكادت المرأة تجن من الفرح لهذا النصر المبين الحاسم ، وأوشكت أن تصيح وتزغرد ، لولا أن ردعها أودسيوس عن ذلك : أيتها المرضع العجوز اكتمى فرحتك ، فإنه ينبغى ألا تكون شماتة فوق جثث القتلى ، وألا يكون صياح ، لأنها إرادة السماء قد نفذت فيهم بما أسرفوا من قبل وكانوا من المفسدين ! » ثم أمر بالجثث أن تحمل خارج القصر ، وبالدماء أن تغسل ، فتم ذلك فى أقصر وقت ، والتفت إلى المرضع يحدثها ويقول : « أرأيت ؟ اذهبى الآن فأحضرى ناراً وكبريتاً كيما نطهر الحجرة ، ثم أخبرى بنلوب أن تلقانى هٰهنا ! » . فقالت العجوز « سمعاً وطاعة لك يا بنى ! سأفعل ما أمرت ولكنى سأحضر لك ثوباً تلبسه قبل كل شىء فإنه لا ينبغى أن تظل واقفاً هكذا فى أسمالك هذه » بيد أن أودسيوس أمرها أن تفعل ما أخبرها من فورها ، فانطلقت العجوز ، وعادت بالنار والكبريت ، وأخذ أودسيوس فى تطهير البهو الكبير .

بنلوب ... وأخيراً ... بنلوب !

وهرولت المرضع العجوز فصعدت إلى الطابق العلوى، حيث كانت سيدتها

المحزونة تتقلب على فراش الهموم والأحزان فهتفت بهـا وهى تضحك ، وتـكاد تجن من الفرح : « هلمى يا بنَيّتى فاشهدى بعينيك كيف حققت الآلهة أحلامك واستجابت لصلواتك ... هلمى ... لقد عاد أودسيوس و بطش البطشة الـكبرى بأعدائه فقتلهم عن بكرة أبيهم بعد ما كان من خباثاتهم ، و بعد ما استباحوا من حرماته وما أراغوا من خيره وهزئوا بولده ... إنهضى ! » .

ولم تصدقها پنلوپ ، وقالت مستهزئة بها : « لشد ما عدوت طورك وغبت عن صوابك أيتها المرضع العزيزة حين توقظينني بمثل هـذا العبث وذاك الحديث الملفق ! لقد حرمتنى من غفوة يا لهـا من غفوة لم تـكتحل عيناى بأهدأ منها ولا أروح منذ أن فارقنا أودسيوس إلى الأرض المشئومة ... تالله لو حصل مثل هـذا ممن هن دونك سناً ومنزلة من الخدم لـكان لى معهن شأن آخر .. ولـكن .. لا عليك يا يوريكليا .. » فتبسمت المرضع ثم قالت : « وَىْ ! تالله إنه للحق ، ولا مرية فيما أقول ... إنه هو الشحاذ الفقير الذى كلمك ، والذى عبث به القوم وقد كان يعرف تلياك كل ذلك ، ولـكنه جعله سراً بينه و بين أبيه حتى يثأر من الأمراء ويستأصل شأفتهم ! » فوثبت بنلوب من سريرها مسبوهة ذاهلة ، وطوقت بذراعيها عنق يوريكليا ، وأنشأت تقول : « خبريني بالله عليك أيتها العزيزة .. خبريني بالله عليك .. إذا كان ما تقولين حقاً فأنَّى لأودسيوس أن يلقى وحده كل هؤلاء ؟ وأنى لواحد أن يهزم فيلقاً من مائة أو يزيدون ؟» فقالت المرضع : « لعمرك ما رأيت كيف حدث هذا الأمر ، ولـكنى سمعت

بأذنىَّ هاتين أنين القتلى ... لقد كنا جميعاً جالسات داخل القصر ، وفرائصنا ترتعد من العَرَق ، وكانت النوافذ كلها مغلقة بأمر سيدى ، حتى أقبل تلماك فدعانا إلى البهو ، حيث رأينا أودسيوس واقفاً بين الرمم ، وهو الآن يطهر البهو من أدرانهم بالنار والكبريت ؛ والمدفأ يتأجج بلظي كالجحيم ، ولقد أرسلني لأدعوك إليه حتى يفرح بك ، ويطمئن قلبك ، بعد طول العذاب »

وكانت العجوز تتكلم وهى ما تنقطع عن الضحك والمرح ، فقالت لها بنلوب : « أيتها المرضع العزيزة لا يقتلك الفرح والصخب .. تالله إنه لن يفرح بأودسيوس اليوم أحد كما أفرح به أنا وولدى تلماك .. هذا إن كان ما قلت حقاً ... على أننى لا أصدق ... لا جرم إنه إله كريم أقبل لينتقم لنا من هؤلاء العرابيد جزاء ما أنزلوا بنا من هوان فأبادهم جميعاً ... أما أودسيوس فلا ! لقد قضى أودسيوس وقضى أودسيوس إلى الأبد ! » فقالت يوريكليا : « ألا تزالين غير مصدقة يا طفلتى (!) العزيزة ؟ ألا فاسمعى ! هاك دليلا آخر ؛ بينما كنت أغسل قدمى الرجل الفقير اللاجىء تحسست يداى نَدَبةً فى ساقه ذكرتنى بالندوب التى أحدثها الخنزير البرى فى ساق سيدى أودسيوس ، فلما كشفت عنها تبينتها ، وتأكدت أنه هو ، وأردت أن أصيح بك لأخبرك ، وأزف إليك البشرى . لكنه أطبق يده على فمى فلم أستطع أن أنبس ... تعالى ! هلمى معى الآن وانظرى بعينيك لترىْ إن كنت كاذبة ، تعالى جعلت فداك ! » وانطلقتا معاً ، وأطافت الذكريات برأس بنلوب ، ولم تدر ماذا عساها فاعلة إذا كان ما أنبأت به المرضع حقاً ... فلما دخلتا البهو جلست بنلوب على مقعد كبير

قريب من المدفأة ، ثم طفقت تحدق ببصرها في أودسيوس ، وكان جالساً وظهره إلى عمود من عماد البهو ، وعيناه تبحثان في الأرض ، وكأنه كان ينتظر أن تتكلم بنلوب قبل أن يفوه هو بكلمة ... بيد أنها لم تنبس ، بل كانت ذاهلة شاردة ، تنظر إليه مرة فتوشك أن تعرف فيه بعلها الحبيب ولكنها كانت إذا نظرت إلى مِزَقه وخِرَقه ، والأسمال التي لا تستر بعض جسمه الهائل عجبت ، وتولاها الدهش ، وانعقد لسانها فما يكاد يبين .

وقال تلماك آخر الأمر : « أماه ! اشد ما تحجّر قلبك وغلظت كبدك ! لم لا تنهضين فتعانقي أبي ! ! أية زوجة ينحبس لسانها كما انحبس لسانك ، فما تكلم زوجها الذى آب من سفر سنين كلها أشجان وكلها أحزان ، وكلها آلام متصلة ومتاعب تنوء بحملها الجبال ! » فقالت أمه تجيبه : « تالله يا بنى لقد ذهلت عن نفسى وإنى لفى تيه فما أكاد أبين ... ولكن إذا كان حقاً أودسيوس ، فإن لنا علامات هى سر ذات بيننا ، ولا يعرفها أحد سوانا » فتبسم أودسيوس وقال : « لا عليك يا بنى ! دعها فستستبين حقيقتى حين أخلع هذه الأسمال » ثم انتحى وولده ناحية ، وأسر إليه أنهما ينبغى أن يتهيآ لما عسى أن يكون من تألب الإيثاكيين عليهما وشغبهم لما كان من قتل ساداتهم ، وما يتوقع من قيامهم بثورة عامة لا تبقى ولا تذر للانتقام من القاتل ... وذكر أودسيوس أنهما يجب أن يقيما فى البهو فيأخذا مثل ما كان العشاق يأخذون فيه من قصف وعبث ومجانة ...

وحسب المارة أن بنلوب قد اختارت بعلها من بين الأمراء ... « فهى لم تعد

تطيق الوحدة ، ولا تحتمل الترمُّل ، ولا تقوى على حياة الآمال الكواذب التى تجرعت غُصصها مدى عشرين عاماً » أما أودسيوس فقد مضى فاستحم وتضمخ بأحسن الطيوب ، وأضفى عليه من كل سابرىّ وفوْفٍ موشى ، ثم تنزلت مينرفا فنفخت فيه من روح الشباب ، وسكبت فى عروقه من دماء الفتوة ، ومسحت بيديها الكريمتين على وجهه المجعد ذى الأسارير ، فأشرق وتألق ، وهدلت شعره على كتفيه غدائر فاحمة كقطع من الليل البهيم . ثم إنه انطلق إلى البهو فجلس تلقاء پنلوب وأنشأ يقول : أيتها الزوجة المعجبة ! أما والله لقد ركّبت الآلهة بين جنبيك قلباً ليس كقلوب النساء ... وأى امرأة تنتبذ من زوجها مكاناً قصياً كما تنتبذين يا پنلوب ... بعد إذ عاد إليك من تجوال عشرين سنة كلهن قلاقل وأهوال ... يوريكليا ! هلمى فامهدى لى فراشاً بيديك الضعيفتين ، ما دام الحديد البارد الذى خلق منه قلبها لا يلين ! » ومع كل هـذا فقد كان الريب يرين على فؤاد پنلوب ، فقالت تختبره : « مولاى ! إنى وأيم الحق لا معجبة ولا بى خيلاء ، ولكنى أذكر أحسن الذكر كيف كنت يوم همت بك سفينتك الجبارة إلى طروادة ... يوريكليا ! إذهبي أيتها المرضع فأحضرى سرير زواجنا من المخدع ، واجعلى عليه الوسائد والحسبانات ليستريح عليه مولاك كما أمرك » وعجب أودسوس لما تكلمت به زوجته ، فقال : « إنك يا زوجتى تمزقين نياط قلبى بما تقولين ! أنّى لأحد مّا من العالمين أن يحرك سريرى بله أن يحمله ، إن لم تكونى قد أطلعته على سره ؟ لقـد صنعت مخدعى واتخذت سريرى فى جذع الزيتونة الهائلة ... فهل لا يزال سريرى فى

موضعه ثمت ، أم أن أحداً قطع الجذع العتيد واحتمل السرير إلى مكان بعيد ؟ » وهنا ، مادت الدنيا برأس بنلوب ، وتأكدت أن الرجل زوجها من غير شك ، نخفق قلبها خفقاناً شديداً ، وانطلقت تعدو نحوه ، ثم طوقت عنقه بذراعيها ، وراحت تبكي وتنتحب ، وتقول له : « لا تنقم علىّ إذاً يا أودسيوس ، ولا يحزنك أنني لم أعرفك منذ أول نظرة .. أواه أيها العزيز ! لقد قضت الآلهة أن نفترق وأن نتعذب كل هذه السنين ، وما كان من شكي فهو أثر من احتراسي خشية أن يخدعني أحد فيدعي أنه أنت ، ويزخرف على ويبهرج حتى ينالني بالخداع والخب ... ولكن ما دمت قد ذكرت لي سر المخدع والسرير والزيتونة ، وهو ما لا يعلمه أحد غيري وغيرك وغير يوريكيا ، فالآن فاهنأ ، ولأهنأ أنا ، وليطمئن قلبي ... قلبي الوفي الذي أرده إليك كآخر عهدك به ، لا ينطوي إلا على حبك ، ولا يضمر غير الوفاء لك ... » وعانقها أودسيوس ... وضم إلى صدره صدرها ... والتف حول عنقه ذراعاها البضتان البيضاوان — وجد عاجهما الناعم الأملس حول كاهله ، ووقف أودسيوس على شاطىء الذكرى كما يقف السباح المتعب المنهوك على شاطىء اليم وقد بلغه بعد جهد ، فأعضاؤه متراخية، وأعصابه موهونة ، وقلبه خفق، وروحه نشوى وذراعاه مع ذلك معلقتان بالشاطىء وقد سمرتا فيه ... وقال بعد لأى : « والله يا زوجتي العزيزة إنا ما بلغنا بعد نهاية أشجاننا وأحزاننا ، وإن أمامنا لأمداً بعيداً وهموماً أخر تنبأ لي عنها الكاهن تيريزياس حينما

رحلت إليه فى هيدز ، و إنى لا أدرى ماذا يكون من أمرى ... ولـكن ... لا ... لننطلق الآن إلى مخدعنا العزيز الطاهر فإن بى حاجة إلى الراحة والإستجمام ... وإن بى لشوقاً مبرحاً ونزوعاً شديداً إليك » .

فقالت بنلوب : « المخدع الطاهر النقى معد فى أيما لحظة أردت ياأودسيوسى العزيز ... بيد أنك أثرت شجنى وورّعت شجوى بما ذكرت عمايتربص بنا من هم جديد ، فهلا ذكرت لى ماذا زعم لك تيريزياس فى العـالم الآخر ؟ إنى مشوقة إلى ما قال ، فاذكره بحق الآلهة عليك » فأجاب أودسيوس « عمرك الله لم تسألين عن أمر إن يبد لك يسؤك ؟ ! ولـكن لا ضير ... سأذكر لك ما نبأ نى به تيريزياس » ثم وجم قليـلا وقال : « لقد أشار أن أحمل مجدافا عظيما على كاهلى ، ثم أنطلق مهاجراً إلى ممالك نائية وأصقاع سحيقة ، حتى أكون فى قوم لم يسمعوا عن البحر قط ، ولم يروا فى حياتهم مجدافاً ولا سارية ، فإذا لقيت أول من يسألنى عما أحمل ، وهـل هو مذراة مما ينسف به القمح ، غرست المجداف فى الأرض ، ثم تقربت إلى إله البحار نبتيون الجبار بقرابين تمحو ما بينى وبينه ، وتعقد بيننا أواصر الســـلام والوئام ، كما تقربنى إلى أعوانه الآخرين من آلهة المـاء ، فإذا فعلت استرحت من لأواء الحياة ، ونأت عنى أرزاؤها ، وعدت إلى شعبى وإليك ، وإلى ولدى وقصرى فعشت بينكم بسلام ، حتى يأتينى الموت ، هادم اللذات ، من أعمـاق البحر ، ولـكنه سيكون موتاً طيباً لا مخوفاً ولا مرهوباً ، بل سكرة

بين أَمَنَةٍ ونعاس . بعد إذِ الجسم موهون ، والقلب فارغ ، والرأس مشتعل والروح سالية قالية » .

وهكذا ظل الحبيبان المشوقان يتحدثان قطعاً من الليل ، بينما كانت المرضع وخادمة أخرى تمهدان الفراش على ضوء المشاعل ... ثم أقبلت الوصيفة فذهبت تمشى بين أيديهما إلى المخدع ، وفى يديهما المشعل المقدس يفيض نوراً ولألاء كما أفاض منذ عشرين سنة ...

ولفهما ظلام الليل ، وسِتْرُ الهوى ... وسكن البهو بعد ماضج بالعزف والقصف ، وهدأ القصر فى سدول السعادة .

وهتف هرمز بأرواح القتلى فهمهمت ، ثم أشار إليها بعصاه فسحر الكرى مُقلها ، ثم أشار كرة أخرى فأهرعت فى إثره كما تهرع الخفافيش فى إثر دليلها .

وانطلق حبيب الآلهة فعبر عباب البحر المحيط ، وعبرت الأرواح الهائمة فى إثره ، وجاز صخرة لوكيديا ، وبوابة الشمس الخالدة ، ثم انطلق ، والأرواح الهائمة من خلفه ، في تيه الأحلام ، وعبر بها فى مروج آسفوديل ذات الأشباح ، حيث لقى القتلى أرواح ذويهم وأبطالهم من رجال هيلاس الذين سقطوا تحت أسوار طروادة ... وهناك ... وقفوا طويلا يتناجون ، وكلم ابن پليوس قائد الهيلانيين أجا ممنون ورثا له ، فكلمه أجا ممنون وتحسر عليه ، ورأوا روح پتروكلوس حبيب أخيل زعيم الميرميدون ، وروح أخيل نفسه ، وروح أجاكس العظيم ... وعرف أجا ممنون روح أمفيديون العاشق المحروب الذى قتله أودسيوس فيمن قتل من عشاق پنلوب ، فكلمه ، وكلمه أمفيديون فقص عليه ما كان من مأساتهم الغرامية وما كان من أوبة أودسيوس المفاجئة واختلاطه بهم فى صورة فقير شحاذ ... إلى آخر القصة الدامية المشجية التى انتهت بقتلهم جميعاً ... وما كاد يفرغ حتى بدا العجب فى محيا القائد أجا ممنون وطفق يثنى على وفاء پنلوب ، وشجاعة صديقه أودسيوس ، ثم راح ينحى

على زوجته الآثمة كليتمنسترا ما كان من غدرها ، وتدبير غيلتــه مع حبيبها الفاسق إيجستوس ...

وهكذا انتهت الأشباح الآثمة إلى ظلمــات هيدز ... إلى مملــكة بلوتو ... حيث تلقى جزاءها العــادل من مخالب سيربيروس الحــادة وأظفاره القواطع .

هذا ما كان من أمر تلك الفئة الباغية .

أما ما كان من أمر أودسيوس فقد استيقظ فى بكرة اليوم التالى ، واستيقظت معه بنلوب السعيدة ، وهب من فراشه فارتدى ملابسه ، ووضع عليه سلاحه ، ثم أمر زوجه ألا تخاطب من الناس إنسياً حتى يعود ، وأن تغلق عليها أبواب القصر ، لأنه منطلق إلى أبيه ليزف إليه البشرى بنفسه . ودعا إليه تليماخوس ليصحبه ، وليصحبه الراعيــان المخلصان الوفيان ، بعــد إذ يسبغ كل منهما عليه دروعه ، ويستعد بسلاحه .

وانطلق الأربعة يطوون شوارع المدينة التى خيم عليها الصمت دون أن يشعر بهم أحد من أهلها ، حتى بلغوا الخلاء ، وما زالوا يذرعونه حتى كانوا عند المزرعة المصون الناضرة ، وهناك نظر أودسيوس بعينين مشوقتين ، وقلب ملتــاع خفق ، إلى البيت الصغير الذى يؤوى أباه الضعيف الشيخ ، حيث يقضى أيامه فى أسى ليس بعده أسى ، ويجتر همومه فى صمت كصمت الموتى ، ويذرف دموعه فى قنوط وسكون ... لا يراه أحد ، ولا يشــكو بثه إلى مخلوق ، إلا هذه المرأة العجوز الحيزبون

التى تخدمه فى رضى ، وتسهر عليه فى حب له ، و إشفاق من أجله ... وكان ليرتس ، الأب المحزون ، يتلهى بالعمل فى بستان قريب يشذب شجيراته ، ويهذب زهيراته ، فأمر أودسيوس ولده وراعييه أن يبقوا فى المنزل ليعدوا غداء فاخراً ، وشواء سمينا ؛ لأنه يحب أن يلقى أباه فى البستان وحده ...

وانطلق أودسيوس إلى البستان ، فوجد الفلاحين قد انصرفوا إلى أعمالهم ، ووجد أباه يجوس خلال الأشجار كالشبح ، ويهوى بفأسه فيحتفر حولهن ، وهو بين الفينة والفينة يصلح من لباسه الخشن الذى اتخذه من جلد عنز ، كما اتخذ منه قفازيه وجوربيه ... ووقف أودسيوس تحت كمثراة باسقة وطفق ينظر إليه ، ويقلب فى السنين الطوال التى يرزح تحتهن عينيه ، ثم يتعجب للقلب الكبير الذى صمد لحدثان الزمان ولأواء الأيام فلم ينصدع ولم يهن ، وإن كان بعض حزنه لتنوء منه الجبال .

وانبجس الدمع من عينى أودسيوس ، وانهمر على خديه الحزينين ، وأوشك أن يمضى نحو أبيه فيأخذه فى حضنه ، ويفجأه بالبشرى القاتلة ، لولا خيفته على تلك الشيخوخة المتداعية أن تنقض حين لا تحتمل النبأ العظيم ... نبأ عودة قطعة القلب والكبد بعد يأس دام عشرين عاماً ... لهذا آثر أودسيوس ألا يفعل ، وآثر أن يلقى أباه كرجل غريب جوّاب آفاق ، ويحدثه ، ليعلم ما فى قلبه ، فذهب إليه ، ووقف عن كثب يكلمه :

— «أيها الشيخ : ويكأنك لا علم لك بأمور هذا الزرع ، و إن أثمر بستانك وآتى أكله ! حقاً ، إنى لا أرى عشباً فى الأرض ، ولاشجرة إلا وهى مثمرة ، ولا زهرة إلا وهى مسفرة نامية ، وما ذاك إلا لسهرك عليها . بيد أنه لن يسوءك إن لاحظت أنك تعنى بهذا البستان أكثر مما تعنى بنفسك ، مع ما أنت فيه من تقادم السن ولفحة الشمس ووطأة المرض ... وما أحسب مولاك إلا قاسى القلب عليك ، قليل الاحتفاء بك والتوجع من أجلك ، مع ما لك من سيماء النبل ، ومظاهر الملوك ؛ فما كان أحجى بك — وأنت فى هذه السن — أن تستحم وتتضمخ وتنام ملء عينيك ، لا يزعجك عمل ، ولا تئودك أكلاف الحياة ! ولكن قل لى بالله عليك أيها الشيخ ، لمن تنصب كل هذا النصب ، و بستان من هذا ؟ خبرنى ! لا تخفِ على أيها الأب ، فلقد لقيت من سألته فلم يأبه بى ولم يُن عسألتى ... ولقد ذرعت الرحب حتى وصلت هذه الأرض ، إيثاكا ، لأنى كنت أقدم فيما مضى من الزمان فأحل ضيفاً على أمير عزيز فيها ، وما أعرف إن كان لا يزل حياً يرزق ، أو مضى لا قدر الله إلى هيدز ! ولقد كان هذا الصديق يزورنى فى وطنى فأكرم مثواه كما يكرم مثواى ، ولقد كان يحدثنى الأحاديث عن أبيه ليرتيس ابن آزرياس ... وما أنس لا أنس أيام كان يحمل إلى الهدايا فأردها إليه أضعافاً مضاعفة ، فمن ذلك أننى نفحته مرة بسبع بِدَر من خالص الذهب ، و بجبالة من فضة مزدانة بأفواف الزهر ، واثنى عشر صداراً ، واثنى عشر دثاراً ، ومثلهن من أكرم البُسط ، وشىء كثير من ثياب

القاقم والسنجاب ، ثم أهديت إليه أربع جوارٍ كُنّس أبكارٍ اختارهن بنفسه ، مثقفات مهذبات ، يتخايلن فى الخز ، ويرفلن فى الديباج » .

وازدحمت الدموع الحِرار بكل الذكريات المشجية فى عينى الرجل الشيخ ، وقال يجيب أودسيوس : « أيها الأخ لقد بلغت هناك ، فهذه هى إيثا كا ... بيد أنها — وا أسفاه ! — نهب مقسم بين فئة باغية ظالمة لا تخضع لقانون ولا تعرف شريعة . أما صديقك فوا أسفى عليه ... ويا ألف أسى على هداياك ! من لك به اليــوم ليردها عليك أضعافاً مضاعفة يا صاح ! ولــكن قل لى بربك واصدقنى : منذ كم سنة لقيت صديقك التاعس ، الذى هو ابنى ! ؟ إيه ... ! له الله ! ما أحسب إلا أن السمك قد اغتذى به ، أو أنه غدا يوماً جزر السباع وكل نسر قشعم ! أواه عليك يا أودسيوس ياولدى ! هكذا قضيت ولم أذرف على ثراك عبرة ، ولم تــكتحل عينا أمك قبل أن تموت برؤياك .. ولا ينلوب ! ولا ينلوب أيضاً كانت إلى جانبك لتغمض بيدها أجفانك ... ولــكن ... ولــكن قل لى أيها الأخ من أنت ، ومن أى البلاد قدمت ؟ وابن مَن من الــكرام الأكابر ؟ وفى أى الرفاق وصلت إلى إيثا كا وفى أى السفائن ؟ أم وصلت بك إحدى الجوارى المنشئات ثم غادرتك فى إيثا كا ؟ » .

وقال أودسيوس وهو يلفق ما يقول : « أما من أنا ... فـ ... أنا إبيريتوس بن أفيداس بن پوليبمون من أمراء أليباس ، من أعمال صقلية ، ولقد هبت على سفينتى عاصفة هوجاء فدفعتنا نحو بلادكم وألقينا المراسى فى مينائــكم ... ولقد لقيت أودسيوس لآخر مرة منذ خمس سنوات ،

وقد افترقنا وكلنا أمل أن نلتقى لنتبادل تذكارات المحبة وهدايا الصداقة والوفاء والود » .

وانعقدت سحابة مظلمة من مرارة الحزن فحجبت الضوء عن عينى ليرتس ؛ ثم إنه أهوى إلى الأرض فقبض قبضات من التراب وراح يحثوها على رأسه ، ويئن أنينا مؤلما . ولم يحتمل أودسيوس أن يرى أباه فى هـذه الحال ، بل كاد صدره ينشق من حسرة عليه ، فهرول وأخذه ملء ذراعيه وجعل يضمه إلى صدره ويقبله ويقول : « أبتاه ! أبتاه ! هو أنا ذا ! أنا أودسيوس عدت إليك بعد عشرين عاما فافرح وهدئ روعك ، ولتنته آلامك ، وإليك أحسن البشريات ! لقد قتلت أعدائي العشاق جميعا . قتلتهم فى بيتى ، وانتقمت لك ولى ولبنلوب ! »

بيد أن ليرتس وقف ذاهلا عن نفسه ، ثم نظر إلى ولده وقال : « إن كنت حقاً ولدى أودسيوس ، فهات برهانك الذى يقطع شكى ! »

فقال أودسيوس : « ألا تصدق ! إذن فانظر إلى الندوب الخالدة التى أحدثها فى ساقى خنزير الفلاة إذ أنا حَدَث يا أبى ! ألا تذكر يوم كنا على جبل برناسوس ، وكان جدى أوتوليكوس معنا ثمة ، وكان يتحفنى بالهدايا واللهى ؟ وهاك دليلا آخر يوم مشيت معـك فى هذه الحديقة ورجوتك أن تجعل بعض هذه الأشجار باسمى ، فمشيت معك ، ورحت أنت تسميها لى بأسمائها ، فجعلت لى ثلاث عشرة كمثراة ، وعشر تفاحات ، وثلاثين تينة ، وخمسين صفا من الـكروم الناضرة التى كان يزرع القمح بين عرائشها والتى كانت تتدلى منها العناقيد من كل لون ! »

وانجاب الشك عن فؤاد ليرتس ، فأخذ ولده بين ذراعيه المرتجفتين وراح يضمه ويقبله ، ويصعد فى صدره الرحب القوى أنفاسه ، حتى إذا وهنت قواه أرسله ، وأخذ يحدثه فيقول : « ياللآلهة ! يا أرباب السموات الخالدة فى شعاف الأولمب ! أهكذا قضيت آخر الأمر أن ينصب جام غضبك وحُم نقمتك على هؤلاء الكفرة الفجرة ! ولكن ! لشد ما أخشى أن يتألب الجمهور علينا ، فيهرعوا إلى هنا ، ويطلبوا ثار ذويهم .

فتبسم أودسيوس وقال له يطمئنه : « لا عليك يا أبى ... هلم الآن فلنذهب إلى بيتك الجميل ، فلقد أرسلت تليماك ثمة ومعه الراعى ، ويومايوس الوفى ، ليعدوا لنا طعاماً سريعاً خفيفاً » .

وأعد الطعام ، ومزجت الخمر ، وذهبت الخادم العجوز فأعدت حمّاماً لسيدها الشيخ ، ثم ضمخته وأضفت عليه ملابس نظيفة .. وتنزلت مينرفا الكريمة فمشت بيديها الإلهيتين على جسم ليرتيس فتدفق الشباب فى عروقه ، وعاد إليه رواؤه وحسن سمته ، فلما خرج من الحمام تعجب أودسيوس وقال له : « تالله يا أبت إنى لا أشك فى أن بعض الآلهة قد رد إليك صباك . وخلع عليك بُرْدة الشباب من جديد ! ! » .

ولم يكن عجب ليرتيس بأقل من عجب ولده ... « تعاليت يا جوف ! وتقدست يا مينرفا ! وسما حدك يا أبوللو ! لقد كسوتمونى نضرة الشباب التى كانت لى يوم ملكت مدينة نريكوس بمعونة السيفاليفيين الشجعان ! أواه لو قُدِّر لى أن أقف إلى جنبك أمس يا بنى ، ليكون لى شرف مجالدة الأوغاد الذين قتلت ، إذن ، لحظيت بكوكبة منهم أضرج أديم الأرض

بدمائها ، فأشفى منهم حَرَداً فى صدرى ، وغِلاً فى حشاشتى ! » .

وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، ثم جلسوا على الأرائك متقابلين ... وكانت الخادم العجوز قد انطلقت إلى المزارع فدعت كبير الفلاحين دوليوس ، فأقبل فى رجاله الذين كدهم العمل وأنهكتهم المثابرة ... فلما رأوا ما ارتد إلى سيدهم من شبابه ، وهذا الرجل الغريب الذى يجلس بين العائلة المقدسة ، وقفوا مسبوهين مشدوهين ، لا يعرفون ماذا يقولون ... وحدجهم أودسيوس ، ثم بدأ يكلمهم فى لطف وخبث ويقول : « إجلس أيها العجوز دوليوس فكل أنت ورجالك ... فليس ثمة متسع لدهش أو عجب ... إجلس قبل كل شىء فاملأ بطنك وبطون رجالك ... لقد انتظرناكم طويلا ، لكنكم استأنيتم ! » ولكن سرعان ما عرف دوليوس مولاه حين سمع صوته ، فأقبل عليه ، وتناول يديه ، وطفق يغمرهما بالقبل الباكية ويقول : « أوه يا مولاى ! هكذا والله تستجيب السماء ! لقد طالما جأرنا ولقد طالما دعونا فلها الثناء إذ ردتك إلينا ! فعش واسلم وسر وابتهج ... ولكن .. هل علمت الملكة بقدوم مولاى ؟ ألا ننطلق من فورنا فنزف إليها البشرى ؟ » .

وطمأنه أودسيوس ، فجلس الرجل مبتهجاً مسروراً ، وجلس أبناؤه معه ، وأخذوا فى أكلهم وشرابهم ، وأخذ أودسيوس يلاطفهم ويداعبهم .. وهكذا عاد الحبور مرة أخرى إلى بيت ليرتيس !

* * *

وقرع آذان الناس فى المدينة ما كان من قدوم أودسيوس ، وما

حاق بالأمراء المعاميد من نـكبة على يديه الجبارتين ، فأهرعت جموعهم إلى قصره صاخبةً ناعبةً ، ثم انطلقوا إلى حيث كدست أجساد القتلى فحرّق كل قتيله ، وأرسلت جثث الغرباء إلى ذويهم فى أوطانهم فى سفن الصيادين من كل فج لتُحرّق ثمة ... واجتمعوا بعدُ ليتشاوروا بينهم فيما ينبغى أن يكون ... فنهض يوپيتيس والأسى يزلزل جوانحه وأنشأ يقول : « أيهـا الرفاق ! لقد كان هـذا الرجل الطاغية حرباً دائمة عليكم فلم يصبكم منه إلا الشر ، ولم تثمر لـكم فعاله إلا الندامة ! فلقد ساق شبابكم وخيرة أبطالـكم الى طروادة المشئومة حيث قتلوا أجمعين ، وهاهوذا ينقلب اليكم اليوم ليذبح ساداتكم وذوى الصولة فيكم ... فهلموا إذاً وروّوا رأيكم فيه قبل أن ينطلق إلى پيلوس فيطلب العون عليكم ، وتصبحوا على ما قصرتم نادمين ! إنا إن لم نثأر لضحايانا فأى عار يَسِمنا وأى خزى يصمنا يا قوم ! وأية حياة هذه التى تحيونها بعد ما حل بكم من هوان ومذلة ... لخير لـكم أن تذبحوا أنفسكم فترحلوا إلى هيدز مع أرواح قتلاكم ولن تـكونوا على ذلك من الآسفين ! » ثم جلس وهو يتصدع من الحزن على صاحبه أنتينوس الذى كان أول ضحايا أودسيوس ...

وقام ميدون المنشد التاعس فقال : « أيها المواطنون أعيرونى آذانـكم ! تالله إن أودسيوس لم يرم سهامه إذ رمى ، ولـكن بعض الآلهة كان يرسم له و ينافح عنه ، ولقد رأيته بعينىّ هاتين فى صورة منطور ، ووالله ما هو منطور ، ووالله لقد كان يمشى بين يديه هٰهنا وهٰهنا فيُراع العشاق وتفزع قلوبهم و يسقط بعضهم فوق بعض فتأخذهم سهام أودسيوس ويروى

من دمائهم سيفه ! » وما كاد يفرغ ميدون ، وكان فيهم أميناً صادقاً ، حتى طارت ألوانهم وامتقعت وجوههم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وادّاراأوا طويلا ، ثم وقف هاليتير بطلهم القديم بن مسطور ، وكانت له دراية بكشف أستار الماضي والحاضر والمستقبل ، فَصَعَّرَ خده وقال : « أيها الإخوان ! يا أبناء إيثاكا ! إسمعوا وعوا ! تالله لقد طالما مهدتم للفتنة ، وإنها لثمرة أنتم غارسو شجرتها وأنتم اليوم جُناتُها ... أتذكرون يوم رجوتكم فألحفت عليكم في الرجاء أنا وصاحبي ميدون هذا ، أن نذهب فنمنع القصر من شبابكم ، ونصون عرض أودسيوس من أبنائكم ، ونصرفهم عن ولده وزوجه ومتاع هذه الحياة الدنيا ، فأبيتم أكبر الإباء ، ورفضتم أقبح الرفض ، وجعلتموها فتنةً كنت أستعيذ بالآلهة منها ؟! فعلام تغلي مراجل صدوركم ياقوم ؟ وفيم ائتماركم بالرجل وقد ثار لعرضه ؟ ألا فاسمعوها كلمة مخلصة أسديها إليكم ... الرأى ألا تذهبوا ، وألا تجعلوها فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، بل اقعدوا ههنا آمنين ، ولا تكونوا كالذي سعي إلى حتفه بظلفه ، وأبطأت عليه المنايا فسعى قُدُماً إليها ! » وما فرغ حتى زجر القوم وتصايحوا به ، وضجوا من كل مكان ... ثم إنهم سمعوا إلى شيطان يوبيتيس ففزعوا إلى أسلحتهم ، وأسبغوا عليهم من دروعهم ، وانطلقوا إلى المدينة فنظموا فيها صفوفهم ، وأقاموا يوبيتيس قائداً منحوساً عليهم ، وما جعلوه كذلك إلا ليلقى حتفه بيد أودسيوس ، وتعجل روحه إلى النار !

ومضت مينرفا إلى سيد الأولمب ، جوف العلى فوقفت ببابه تقول :

« أبتاه ! أَبِنْ عن سريرتك ، واكشف عن مكتوم قلبك ومكنون نفسك ! هل يحل على هذه الفئة الظالمة غضبك ، أم أنك مانحها محبتك ، ومحصنها بحمايتك ؟ » فتبسم من قولها وأنشأ يجيب : « وفيم هذا التساؤل يا ابنتى ؟ ألم تَقَدُرى أنت أن يعود أودسيوس إلى وطنه فيذبح بيديه أولئك العتاة الطغاة ، ويريح وجه الأرض من خباثاتهم ؟ ليكن ما تشائين ! إصنعى ما بدا لك ... ولكن نصحى أمحضك إياه يامينرڤا ! مادام أودسيوس قد ثأر لنفسه من أعدائه ، فليكن السلام على الأرض ، وليحل الأمان فى ربوعها ، وليتقاسم الملأ على الود والصفاء ، وليحكم أودسيوس بين الناس بالعدل ... وعلينا نحن أن ننزع ما فى صدورهم من غل فينسوا سخائمهم ، ويطرحوا ثاراتهم ، ثم لتكن لهم من أنفسهم أَمَنَةٌ ، ولتجر البركات عليهم أجمعين ، وليصبحوا بحولنا أصفياء متحابين »

ورفَّت مينرڤا من السموات العلى إلى إيثاكا .

وفرغ أصحاب أودسيوس من أكلهم فأمرهم أن يتحسَّسوا آثار القوم ، فانطلق أحد أبناء دوليوس إلى المدينة فرأى من استعداد أهلها ما رأى ، وجاء إلى مولاه على عجل فقال له : « مولاى ! لقد تسلح الإيثاكيون وهم موشكون أن يقدموا إليك ! » فنهض أودسيوس فادّرع ، وادّرع أبوه وابنه وخادماه وأبناء دوليوس الستة ، وادَّرع دوليوس كذلك ، وادرع الفلاحون الآخرون ، وحمل كلٌ سلاحه ، وبرزوا إلى الطريق وفى مقدمتهم أودسيوس .

وبدت مينرڤا فى صورة منطور وفى طيلسانه ، فلما رآها أودسيوس

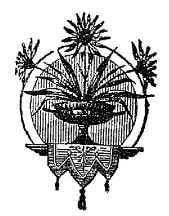
فرح واستبشر ، والتفت إلى تليماك فقال : «أى بنى عليك أنت أن تحمينا اليوم فقد عرفت ما خاض أبوك من معامع ، وسنرى من يحارب خيراً من صاحبه اليوم ! » فقال تليماك يجيبه : « اطمئن يا أبى فسترى كيف يحمى العسلوج فرعه ، وكيف يشب الفرع على أصله . تالله لن أفضحك فيما وكلت إلىّ يا أبى ، ولن يخيب رأى أهلى فىّ ! » وفرح الوالد بمقالة ابنه ، وشكر للآلهة وأثنى عليها .

واقتربت مينرفا من ليرتيس ، وهى لا تزال فى صورة منطور ، فقالت له : « أوه أيها الجد الوقور ! صلّ لمينرفا وابتهل ، وتوسل إلى جوف ، أن يمنحاك القوة والجلد ، ثم اهجم بحربتك على يوبيتيس فروّها من دمه ، فالسماء كلها معك » ولمسته بيدها فتدفق شبابه فى قلبه ، وكان جيش الأعداء قد اقترب منهم فطار ليرتيس إليهم برمحه ، وأقصد يوبيتيس بضربة فى صدره ، فخرج سنان الرمح يلمع من ظهره ، ورأى أودسيوس ذلك فطار إلى الملأ بسلاحه ورماحه ، وانقض تليماك فى إثره ، وهجم الآخرون فى إثر تليماك ، ولم يطل القراع ، فقد فزع الأعداء واختلط نظامهم ، فولوا الأدبار ، ولكن هيهات ! لا نجاة اليوم ! فلقد سد عليهم أودسيوس ورفاقه الطرق ، وأخذوا عليهم المسالك ، فهم فى ضيق ، وهم ذاهلون !

وهتفت ابنة جوف العذراء بأودسيوس ورجاله تقول : « السلام عليكم أيها المحاربون ! السلام ! السلام ! قبل أن تجرى دماؤكم أنهارا ! » ثم بدت مينرفا فى صورتها الإلهية المقدسة فارتعدت فرائص القوم ،

وتخاذلوا فيما بينهم ، حتى أصحاب أودسيوس ! لقد ارتجفت أعصابهم وعصف الذعر بسواعدهم ، وكادت سيوفهم ورماحهم تنتثر على الأرض... ولم يعبأ أودسيوس ، بل هجم كالنمر على القوم المنهزمين يود لو يصعقهم ، وطفق يبرق و يرعد ، ويزأر بصوته المدوى العظيم ، فغضب سيد الأولمب ، وأرسل إحدى صواعقه نذيراً من لدنه إلى مينرفا ، فعجلت إليه ذات العينين الزبرجديتين ، وزجرته عن الناس وهى تقول : « لا يا أودسيوس ! لا يا ابن ليرتس النبيل ، لا يجدر هذا بماضيك ! ضع حداً لهذه المجزرة المروّعة أو تجلب عليك غضب جوف العلى ! » .

وخبَت أودسيوس ، وسُرَّت مينرفا ، وعقد منظور الصلح بين الفريقين ، ودخل الناس فى السلم كافة ... !



استدراك

نرجو أن نستدرك على قصة طروادة ، بمناسبة ظهور شقيقتها هذه ، مما سقط سهواً أثناء الطبع من الإشارة إلى أول الإلياذة التى تبدأ بذلك النزاع العقيم الذى شجر بين أجاممنون وأخيل من جراء الفتاتين ، والذى يجرى ذكره فى الصحيفة الثالثه بعد المائه من قصة طروادة .

الفهرس

صفحة

(مطبعة الرسالة — شارع السلطان حسين — عابدين)

للمؤلف :

١ ـ أساطير الحب والجمال عند الإغريق

٢ ـ قصة طروادة

٣ ـ الأوذيســة

٤ ـ إخيلوس والمسرح اليونانى

(تحت الطبع)